# مبادئ الحكمة

## بين هدى الوحي و تصورات الفلسفة

المرجع الديني آية الله العظمى
السيد محمد تقي المدرسي

آية الله السيد محمد تقي المدرسي

# مبادئ الحكمة

## بين هدى الوحي وتصورات الفلسفة

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net > رابط بديل

مبادئ الحكمة
بين هدى الوحي وتصوّرات الفلسفة
آية الله السيّد محمّدتقي المدرّسي
الناشر: دار محبّي الحسين عليه السلام
الطبعة الثانية ـ ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣م / ٣٠٠٠ نسخة
ISBN 964 - 7373 - 47 - 3 شابك ٣ ـ ٤٧ ـ ٧٣٧٣ ـ ٩٦٤

# بسم الله الرحمن الرحيم
# المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الميامين.

قبل عقد من الزمان، اتيحت لي فرصة الحديث عن بعض مبادئ الحكمة والعرفان، وبعد عام من ذلك التاريخ خرج الى الاسواق كتاب باسم "العرفان الاسلامي" واستقبل في كثير من الاوساط استقبالاً حسناً، وترجم الى اللغة الفارسية واستقبلت ترجمته ايضاً استقبالاً مناسباً، واعيدت طباعتها عدة مرات. وكان الكتاب عبارة عن تحرير قسم من تلك الأشرطة بعد توثيقها.. وبقي القسم الآخر منها معطلة، الى أن وفق اخوتنا في المكتب وبالذات القسم الثقافي منه والاستاذ الحاج طالب خان حفظه الله بالخصوص للعمل على تحرير الأشرطة من جديد.

وبالرغم من أن القسم الاول من الموضوعات متشابهة مع موضوعات كتاب العرفان، إلا أن القارئ العزيز سوف يكتشف إنشاء الله؛ أن النسق العام للكتاب

الجديد كان يستدعي اعادة تحرير تلك الموضوعات، بالاضافة الى الموضوعات الجديدة.

بلى؛ الحديث عن مبادئ الحكمة حديث شيق، والكثير من الناس يودون أن يطّلعوا على موجز لتلك المبادئ، وإذا اراد أحدهم التوسع فبإمكانه مراجعة الدراسات المطوّلة.

واختصار الحديث عن مبادئ الحكمة ذات صعوبة نسبية ولكن الله سبحانه وفقنا الى ذلك بفضله وبيركة أحاديث أهل البيت عليهم السلام.

وفي الختام أهدي ثواب هذه الدفاتر التي شرحت فيها مبادئ الحكمة على اساس نصوص الوحي مقارنة بتصورات الفلسفة، أهدي ثوابها الى روح استاذي ووالدي سماحة آية الله السيد محمد كاظم المدرسي وذلك بمناسبة مرور السنة الرابعة على وفاته. وذلك لأنه (قدس سره) كان له الفضل الكبير عليّ بعد الله سبحانه، حيث كنت منذ نعومة أظفاري تلميذاً صغيراً عنده وهو يلقي على طلبة أهل العلم في مدينة كربلاء المقدسة دروس المعارف الاسلامية التي تلقاها -بدوره- في مدرسة استاذه آية الله العظمى الشيخ ميرزا مهدي الاصفهاني في مدينة مشهد المشرفة.

ونسأل الله العلي القدير أن ينفع بهذا الكتاب المؤمنين. وأن يجعله ذخراً لي ولهم ليوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم..

محمد تقي المدرسي

طهران ٢٤/ ذي القعدة الحرام / ١٤١٨هـ

# الباب الأول

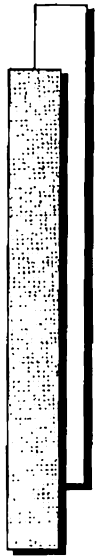

# نظرة تاريخية

# تمهيد

من الحري بنا ان نعرف، ان الحكمة تختلط فيها الموضوعات المتباعدة بصورة قد يبدو فيها الحديث مشتتا، لا يدور حول محور واحد. فالبحث يتنقل من مجال الفلسفة الى مجال السلوك والاخلاق، ومنه الى المجتمع، ومن المجتمع الى السياسة. كل هذه البحوث قد تكون محوراً لموضوع الحكمة، او ما يسمى بالفلسفة.

فربما يتحدث المرء حال تناوله مباحث الحكمة عن القلب وما يدور في اعماقه من خلجات وهواجس، وما تعتريه من شهوات وتطلّعات، وما يعيش في غماره من أفكار وإرادة. وفي نفس الوقت قد يكون حديث الباحث عن الارض والجبال والصحاري، بل وحتى عن الكواكب المتناثرة في الفضاء، وربما عن ابعد مجرة في هذا الفضاء اللامتناهي. وقد يكون الحديث عن الانفجارات الهائلة الحادثة في أعمق زوايا الفضاء، وفي الوقت ذاته عن شعلة الحب الابدية التي تسكن قلبك.

ولعلك تتساءل: ماهي العلاقة بين تلك الانفجارات الكونية الهائلة وبين القلب؛ هذه المضخة الصغيرة التي نرمز بها الى العواطف والاحاسيس البشرية ؟ فأين القلب واين الكون ؟ اين الفؤاد واين الفضاء ؟!

واقول : بلى ؛ إن هناك علاقة راسخة، والعلاقة تكمن في ان من يهيمن على تلك المجرات الهائلة هو ذاته المهيمن على قلبك، وقلب المؤمن تهيمن عليه قدرة إلهية ؛ وتلك المجرات تهيمن عليها قدرة إلهية. والشعلة الابدية التي تسكن قلبك، هي شعلة الحب التي تربط بين قلبك الصغير وبين ربك الكبير، وبالتالي بين قلبك هنا وبين تلك المجرات، في كل آفاق السماء. فالاله المهيمن واحد، ونحن نعيش في ظل الحكمة، في مهرجان الوحدة ؛ بل في مهرجان الأحدية.

## الحكمة : محور المعارف :

إذن ؛ فالحكمة والفلسفة، وان شئت فقل العرفان، تجمع بين شتات معلوماتك بخيط واحد، وهذا الخيط هو الحديث عن المبُدئ والمعيد، الخالق المبدع الذي نرجع ونؤوب إليه، إلهنا الذي نحبه ونكدح اليه ونخشاه ونرغب في ثوابه. انه حديث عن اشياء عديدة، ولكن ليس بصورة فوضوية، انما هو حديث عن هذه الاشياء ضمن إطار الاحدية الالهية، وحول محور معرفة الله سبحانه وتعالى.

وقد يزعم البعض ان الحديث عن الحكمة سيغور في اعماق الفلسفة والعلم، وفي اعماق الالغاز والاسرار التي هي فوق مستوى العقل البشري.

اقول بلا، ولكن ليست هذه الاسرار ألغازا أمام الانسان الذي يفتح قلبه، وأمام من يعيش لحظات المعرفة والاشراق والتجلي. نعم الذي يعيش بقلب مغلق؛ يعيش في إطار اهوائه ؛ يعيش ضمن زنزانة نفسه. هذا الذي يعيش في مثل هذه الاقبية

سوف يصبح النور لعينيه لغزاً محيّراً ؛ اما المؤمن فهو ينظر بنور الله، وإن قلبه يتحوّل الى مهبط لحكمة الله، وسيكون فؤاده موضعاً يتجلى فيه الرب سبحانه وتعالى. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا رأيتم المؤمن صموتا فادنوا منه فإنه يُلقي الحكمة.(١)

ان الحديث هنا ليس حديث المستويات العلمية، فقد يكون اكبر العلماء طفلا صغيرا في مجال الحكمة الالهية والعرفان، لانه لا يعيش الاّ بقلب مغلق، يجهل طبيعة ذاته، ولايعرف خالقه ولا الى اين يسير. وقد يكون راعي الابقار والاغنام السارح معها على سفوح الجبال عملاقا عظيما في اسرار الحكمة، لانه ينظر بنور الله. فالعلم ليس مجرد اكداس من المعلومات، بل هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء.

## الحكمة ؛كتاب مفتوح :

ان موضوع الحكمة الالهية الذي سنتناوله ليس موضوع اسرار جامدة، بالرغم من انه حديث عظيم ويتناول موضوعاً دقيقاً، الا أن هذا الحديث سيكون موضوعاً رائعاً وممتعاً بالنسبة الى القلوب المؤمنة المفعمة بالنور الالهي.

ونتساءل : ماهو واجب القراء تجاه مثل هذه البحوث ؟

وقبل الإجابة عن السؤال ؛ لابد من التأكيد على انه من الضياع ان يعيش الانسان سبعين عاماً مثلاً، وهو بعيد وغافل عن المعرفة ؛ بعيد عن اقرب الاشياء اليه ؛ بعيد عمن هو اقرب اليه من حبل الوريد، وذلك لمجرد انه لم يرغب في ان يجهد نفسه او يُعمل فكره. واذا كان من المنتظر ان يقف المرء عند هذا الحد، فيا ترى

(١) بحار الأنوار / ج ١ / ص ١٥٤ / رواية ٣٠.

ما هي العلة وراء ان يدعى بالكائن العاقل ؟ ولماذا وفّر الله للانسان مصادر العلم ووسائل المعرفة ؟ هل زوده الله بها ليحملها معه الى القبر ؟

إن أمقت شيء عند الله سبحانه وتعالى ان يدور هذا الكائن المكرّم في حلقة مفرغة، وان يقف في نهاية المطاف عند النقطة التي بدأ منها. البعض من الناس لا يتوقع من المفكر والكاتب والخطيب إلا ان يحدثهم عمّا حدثهم به من قبل، انهم لايريدون إلا العيش في ظل القصص والمعلومات التي ادلى بها لهم من قبل. اما اذا حاول المتحدث اوالكاتب اختراق آفاق جديدة، استرهبوه واسترهبوا آفاقه، بل ولعلهم ينكصون على اعقابهم مفتشين عن مجالات اسهل. والسهولة ليست من الشجاعة والبطولة في شيء، اذ يتعين على الانسان ان يسعى ابدا الى فتح ميادين جديدة، وغير ذلك فأن من تساوى يوماه فهو مغبون، وهل رأيت شجاعاً خاسراً ؟ انما الشجاعة قرين الفوز وقرين الربح، ولقد قيل قديما : فاز باللذات من كان جسورا، واية لذة احلى وامتع من لذة المعرفة.

## قيدوا العلم بالكتابة :

وفي اطار هذا الحديث ؛ يمكن القول ان ثَمّ اصولا وواجبات ينبغي على طالب المعرفة من اخذها بعين الاعتبار لتحصل له الفائدة على وجهها الاسنى والافضل.

فبعد سعيه باتجاه اقتحامه افق المعرفة هناك اصل تدوين ماتقع عليه يده من تفاصيل معرفية، لعله يفيد منها غدا خلال مسيرته وكدحه، وعسى ان تكون ورقة العلم الواحدة التي يخلّفها المرء بعد حياته حجابا منيعا بينه وبين نار جهنم في الاخرة.

ولايقل الواحد منا ان مجال عمله يختلف او يتعارض مع تحصيل العلم و الاهتمام بالمعرفة. فالعلم ليس حكرا على احد، فهو ليس عنصرياً او طبقياً، ولقد قال نبي الاسلام الاعظم صلى الله عليه وآله :" طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ".(١)

وهناك اصل اخر يتمثل في متابعة البحث والتطلع نحو العثور على اجوبة شاملة وشافية لكل سؤال يستوقف الذهن. وقد تكون هذه الاجابة في قراءة كتاب آخر، او حضور درس، او محاورة استاذ عالم. ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ( النحل/٤٣)

**النقد :**

ثم يأتي دور عملية النقد لما يتلى عليك كدارس، لا سيما في مجال العرفان الاسلامي الذي يتحتم ان تقوم فيه بدور الفاعل دون الاكتفاء بدور المنفعل والمتلقي. فمن المفترض في خائض هذا المجال ان يستمع ليختار ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (الزمر/١٨) ، ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ (الحاقة/١٢)

فالاختيار امر واجب هنا، وان تكون المجادلة بالتي هي احسن دون الوصول الى حد المراء، وإذا ما توضحت الحقيقة فلا بد من قبولها والاستسلام لها دون خجل او تعنت وغرور.

اما اللازم الآخر والاخير فهو التفاعل مع موضوع هذا البحث، ويكفي ان نعرف ان العرفان الاسلامي والحكمة الالهية قد تكون وبالا علينا، لأنها تحملنا

---

(١) بحار الأنوار / ج ١ / ص ١٧٧ / رواية ٥٤.

مسؤولية عظمى لاترغب اهواؤنا وشياطيننا ان نحتملها. والحديث الشريف يقول: " إن امرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرّب او نبي مرسل او عبد مؤمن امتحن الله قلبه للايمان ".(١)، فنحن لسنا برسل ولا ملائكة، ولكن لنكن مؤمنين ممتحنين، امتحن الله قلوبنا للايمان، ولم لا ؟ لم لا نطمح ان نكون مؤمنين ممتحنين حتى نحتمل أمر الائمة المعصومين عليهم الصلاة والسلام ؟

وفي خاتمة التمهيد هذا، ننتقل الى السؤال الآخر : ماهي طبيعة البحوث التي سنتناولها ؟ وحول ماذا تدور فصولها ؟

سيحوي الكتاب فصولا عديدة ؛ الاول منها سيتناول موضوع الفروق الاساسية بين الفلسفة والدين، وسنتحدث في هذا المجال عن تأريخ الفلسفة وعن الخطوط العريضة للفلسفة، كما سنتحدث عن الخطوط العريضة للحكمة الالهية. ثم نتناول بعد ذاك ابعاد هذه الحكمة وهذا قد يحويه الفصل الثاني ؛ وبالذات خلال الحديث عن المعرفة والعقل والتوحيد وابعاده. ثم ننتقل في الفصول الاخرى الى بحث الجوانب السلبية في الفلسفة، والمعطيات الايجابية للحكمة الالهية.

ومن خلال ذلك كله سيتبين لنا ان القرآن الكريم، والسنة الشريفة، والادعية المأثورة، تتحدث عن أعمق وأعقد المسائل، و عن سر الاسرار ولُغز الالغاز وغيب الغيوب.. تتحدث عنها وتتناولها بلغة سهلة ميسورة وجدانية تمكّن الانسان الفطن من الانتفاع بها.

ان تلاوة كل آية من آيات الذكر الحكيم، وقراءة كل رواية ودعاء جاء على لسان الرسول العظيم واهل بيت الوحي عليهم السلام تحدو بنا الى تلاوة وقراءة

---

(١) بحار الأنوار / ج ٢ / ص ٧١ / رواية ٣٠.

المزيد منها. فنحن وللاسف الشديد بعيدون عن هـذه الروافد العلمية الغنية رغـم قربها منـا؛ بعيدون عن الاستفادة منهـا، لاننا لا نعرف معنى القرآن الـذي نتلوه أو معنى الدعاء الذي نقرأه او معنى الرواية التـي نسـمعها. امـا إذا عرفنـا ودرسنا هـذا العرفان الاسلامي، فسوف تتحول آيات القـرآن الى معراج، وفقرات الأدعيـة الى مدرسة، واحاديث الرسول الكريم واهل بيته عليهم السلام الى جامعة روحية – علمية بالنسبة الى كل واحد منا – تزيده ايمانا وتربية وعلما وخلقا حسناً.

# الحكمة لماذا ؟

من حق المرء أن يتساءل عن السر وراء ضرورة الاجتهاد في دراسة العرفان الاسلامي.. ويفرض هذا التساؤل نفسه علينا قبل الخوض في غمار بحث "العرفان الاسلامي"؛ المتعدد الاطراف الواسع الشواطئ. وفي الاجابة نقول:

ان الانسان المسلم كثيرا ما يكون عرضة للأمواج الفكرية غير النزيهة التي تعمل من أجل سلب الهوية الدينية من شخصية الفرد المؤمن، ومالم يحصّن الانسان المؤمن نفسه وسلوكه ضد الجوانب الشيطانية الخاطئة لهذه الامواج الفكرية الزاحفة، فان ذلك يؤدي الى اصابته في ثقافته ومعتقداته الدينية إصابات بالغة الخطورة.

ان الناس يولدون على الفطرة ولكن البعض ينحرف عن الجادة المستقيمة، ولا يكون ذلك بفعل الوراثة او التربية دائما، بل ثَمّ سبب آخر لا يقل عن سابقيه تأثيراً على سلوكه وثقافته وآدابه ذلك السبب هو ما يدعوه بعض الفلاسفة بـ" أصنام السوق " اي ما يتوارد عليه من افكار بسبب تعرضه للموجات الثقافية الغربية على

طبيعته وتكوينه.

فالمسلمون الذين انجرف بعضهم نحو الفلسفة الغربية او الشرقية لم ينحرفوا بداعي التربية السيئة، او بسبب انعدام الاهتمام العائلي بهم.. فالآباء في مجتمعاتنا المسلمة غالبا ما يكونون ذوي عاطفة خاصة تجاه أبنائهم تجعلهم يقومون بواجب التوجيه والتربية، الا ان الاجيال الحديدة انفتحت بلا حدود وبلا بصيرة عاصمة أمام التيارات الفكرية الزاحفة فأضحت في مهب الرياح العاتية السامّة التي تنفثها الثقافة الغربية او الشرقية اللادينية، مما أثرت عليها وأدت بها في نهاية المطاف الى الفسق والانحراف، والى الالحاد والكفر أحياناً.

ان الطفل ينمو في بلاده المسلمة مؤمنا، وحينما ينخرط في سلك المدارس الحديثة فإن اول ما يعتريه هو الشك بما حمله من ايمان بريء معه الى المدرسة، لان المناهج الدراسية المستوردة لا تهدف الا الى مسخ هوية ابنائنا المؤمنين.. ثم سرعان ما يتحول هذا الشك مع التدرج التعليمي الى طرح الشبهات والمغالطات ومن ثم ينتهي الامر الى الفسق والانحراف.. وقد يكون مصير الشاب السقوط في هاوية الكفر والالحاد.

ونحن بدورنا قد نتعرض لهذه الموجات. فاليوم قد تحوطنا ثقافة اسلامية ولكن هل نستطيع ضمان استمرار هذه الاحاطة الثقافية؟ إن من المحتمل ان تتغير الظروف، وان تنعدم من حولنا مصادر الثقافة الدينية التي نستلهم منها ؛ وأن نعيش مستقبلاً ظروفا فكرية معاكسة، وذلك بالاقامة في بلاد غربية عنا وعن افكارنا وآدابنا واخلاقنا، وهناك تتصاعد نسبة انسياقنا باتجاه الفساد والثقافة الملحدة ؛ إذا كنا منزوعي السلاح، واذ ذاك كيف سندافع عن انفسنا ؟

البعض يقول أنا مؤمن وسوف أموت مؤمناً، ولكننا نتساءل - بتفاؤل - عن الضمانة في ذلك ؟ وهل يضمن الداخل في مستعمرة المحنطين ان يخرج بنفسه سليما معافى مالم يكن قد حصن بدنه بالمضادات الحيوية اللازمة؟! كذلك الامر تماماً بالنسبة للروح والقلب وغذائهما من الفكر والثقافة والمعرفة.

هذا كله بغض النظر عن ان ما يدعى بمصادر الثقافة الاسلامية لم تعد اليوم مصادر ثقافية دينية خالصة تماما. فهناك الكثير من الكتب والبحوث التي دوّنها كتاب مسلمون الا انك لا تستطيع أن تضمن بشكل مطلق سلامة كل الافكار الواردة فيها، فهناك أحياناً كثيرة خلط بين الافكار الصحيحة والثقافات الدخيلة أو الآراء الشخصية، وللتمييز بين كل ذلك لابد للمؤمن أن يمتلك المقياس الذي يعينه على تحديد الخطأ عن الصواب، ويقيه عن السقوط في المزالق الفكرية والانحرافات المعرفية.

وبامتلاك ذلك المقياس فإن بإمكان الفرد المسلم ان يخوض ما شاء له ان يخوض في المعارف الاسلامية وغير الاسلامية، مادام يتمتع بما يعصمه عن الانحراف والتيه. إذ الأمر ليس مرهوناً بمسألة فقهية فرعية مثلاً، حيث قد يخطأ الواحد منا في واجب من واجبات صلاته وبامكانه ان يعالجه بقضاء او احتياط، او يحل بواجب الصوم فيقدم الكفارة - مثلاً -. انما الأمر يتعلق بالايمان بمصدر الوجود وخالقه وقد حذّر الله في مناسبات لا تحصى عن الشرك ووصفه بأنه ظلم عظيم، وان الذنوب جميعاً قابلة للغفران سوى الشرك والكفر به، وان تفاصيل العقاب عليه لا قدرة للمخلوق الضعيف على تحملها ؛ بل ولا تصورها.

ومن هذا المنطلق بالذات ؛ نؤكد بأن الاخوة المؤمنين مدعوون بشكل مؤكد

الى متابعة بحث العرفان الاسلامي الذي يمثل بطبيعة الحال مفتاحاً جديراً لبحوث اعمق واشمل واكمل.

والضرورة الكامنة وراء هذه المتابعة هي ان الافكار الانتقائية والالتقاطية التي كانت منتشرة في زمن أئمة اهل البيت عليهم السلام وتستفحل في يومنا هذا، لابد لنا من مواجهتها والوقوف موقف المتمكن منها ومن دحضها بألمع الحجج وأقوى الادلة.

ولطالما كان الائمة عليهم السلام يُسألون عن الافكار الإلحادية التي كانت منتشرة على عهدهم، فكانوا عليهم السلام يؤكدون على ضرورة امتلاك المقياس السليم في مواجهة تلك الافكار. والمقياس هو معرفة أين هي معاقل العلم، وأبواب الرحمة، وضياء الامر. يقول الامام جعفر الصادق عليه السلام: "إن رسول الله صلى الله عليه وآله أنال في الناس وأنال وأنال، وإنا أهل البيت معاقل العلم وأبواب الحكم وضياء الامر" (١)

فالرسول صلى الله عليه وآله والائمة من أهل بيته عليهم السلام هم معاقل العلم وأبواب الحكم وضياء الامر، وبالتالي هم المقياس السليم الذي على المؤمن الرجوع اليه. فالانسان المؤمن عليه ان يتمتع ويتزود أولا بالمقاييس السليمة المستنبطة من الحجة الالهية، ثم لا ضير عليه ان ينفتح على الثقافات الاخرى لدراستها والرد على الفاسد والملحد منها. ومن دون التزود والتسلح بالمقاييس المشار اليها لايجوز له الانفتاح على الثقافات الاخرى، إذ سيكون واقعه مدعاة لمزيد من الشك والضياع والانحراف.

---

(١) بحار الأنوار / ج ٢ / ص ٢١٤ / رواية ١.

## معرفة الله اشرف العلوم :

والسبب الآخر الذي يدعو الانسان المسلم الى دراسة العرفان، ينشأ من ان اشرف العلوم هو علم معرفة الله سبحانه وتعالى ؛ لان الله عز وجل هو مصدر الوجود ومنشأ الخير، وهو الذي خلق كل شيء وقدّره تقديرا، وهو المبدئ المعيد، والخالق الرازق، له الاسماء الحسنى في عالم التكوين وفي عالم التشريع والثقافة وعلوم الفكر.. فان الله سبحانه وتعالى هو المحور، والايمان به يأتي قبل كل ايمان.

يقول الامام امير المؤمنين علي عليه السلام في اول خطبة وضعت في كتاب نهج البلاغة :

" الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ولايحصي نعمه العادّون ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بُعد الهمم ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود ولا نعت موجود ولا وقت معدود ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته ونشر الرياح برحمته ووتّد بالصخور ميدان أرضه " ثم يقول عليه السلام : " اول الدين معرفته ".

فعلم الدين يبدأ من حيث الايمان بالله سبحانه وتعالى ؛ فهو مصدر هذا الوجود، وأول الدين هو معرفة مصدر هذا الوجود، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه. و" اول عبادة الله معرفته " كما يؤكد سيد المتقين علي بن ابي طالب عليه السلام ذلك.(١)

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤ / ص ٢٥٣ / رواية ٦.

فقد يعبد المخلوق خالقه بفريضة الصلاة والصيام والزكاة، وقد يعبده بالجهاد والقتل في سبيله، ولكن تبقى معرفة الله اعظم من كل انواع التعبد، فعبر معرفة الله تتم الفرائض، وعبرها ايضا يقبل ما دونها. فمن صلى ولا يعرف لمن صلى، او صام ولم يعرف لمن صام، ومن جاهد وقُتل ولم يعرف في سبيل من جاهد وقُتل.. ستذهب اعماله سدى وحسرة، وقد يخسر الدنيا والآخرة، حيث سيضل سعيه ويقعد مذموماً مدحوراً.

اذن ؛ " أول عبادة الله معرفته، واصل معرفته توحيده، ونظام توحيده نفي الصفات عنه ؛ جلَّ ان تحلّه الصفات لشهادة العقول، ان كل من حلّته الصفات مصنوع، وشهادة العقول انه جلَّ جلاله صانع ليس بمصنوع..." إلى آخر الخطبة الايمانية التي رويت عن الامام علي عليه السلام.(١)

ولكي نهيء نقطة البدء في هذا البحث المديد، فانه من الجدير بنا ان نلتمس ذلك في احاديث الرسول وروايات اهل بيته عليهم السلام التي من طبيعتها ان تهب لنا الامل والرجاء في رحمة الله سبحانه وتعالى. فهي التي تفتح لنا آفاقا من العلم الاسلامي المتجسد بالعرفان والحكمة ؛ ولا شك ان اهل البيت هم اول وخير من عرف الله عزّ وجلّ حق معرفته، ولذلك اجتباهم ربهم.

## الجنة ثمن التوحيد:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله : "والذي بعثني بالحق بشيرا ؛ لايعذب الله بالنار موحِّدا ابداً، وان اهل التوحيد ليشفعون فيشفّعون". ثم قال صلى الله عليه وآله: "إنه اذا كان يوم القيامة أمر الله تبارك وتعالى بقوم ساءت أعمالهم في دار

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤ / ص ٢٥٣ / رواية ٦.

الدنيا الى النار فيقولون : يا ربنا كيف تدخلنا النار وقد كنا نوحدك في دار الدنيا ؟ وكيف تحرق ألسنتنا وقد نطقت بتوحيدك في دار الدنيا ؟ وكيف تحرق قلوبنا وقد عقدت على ان لا إله الا انت ؟ ام كيف تحرق وجوهنا وقد عفرناها لك في التراب ؟ ام كيف تحرق ايدينا وقد رفعناها بالدعاء اليك ؟ فيقول الله جل جلاله : عبادي ساءت اعمالكم في دار الدنيا فجزاؤكم نار جهنم. فيقولون : يا ربنا عفوك اعظم ام خطيئتنا ؟ فيقول تبارك وتعالى : بل عفوي. فيقولون : رحمتك اوسع ام ذنوبنا ؟ فيقول عز وجل : بل رحمتي، فيقولون : إقرارنا بتوحيدك اعظم ام ذنوبنا ؟ فيقول تعالى : بل إقراركم بتوحيدي اعظم. فيقولون : يا ربنا فليسعنا عفوك ورحمتك التي وسعت كل شيء. فيقول الله جل جلاله : ملائكتي، وعزتي وجلالي ماخلقت خلقا احب اليَّ من المقرين بتوحيدي، وان لا إله غيري، وحق عليَّ ان لا أُصلِي اهل توحيدي [أي : لأحرفهم بالنار] ادخلوا عبادي الجنة".(١)

وقد جاء في مأثور الدعاء :" من اكثر طرق الباب اوشك ان يسمع الجواب ". والمرء اذا نادى الله بغير انكسار فليستغث مرة اخرى، فلعل بينه وبين الله الف حجاب، وكلما قال الداعي : يا ألله، كلما خرق حجاباً من هذه الحجب حتى يصل الى مصدر النور، فيجيبه الله سبحانه وهو اللطيف بعباده : لبيك وسعديك، عبدي ادعني اجبك. ولعل الدعاء الاهم الذي ينبغي ان ندعو به هو : ان يقينا الله نار جهنم، ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (آل عمران/١٩١-١٩٢)

---

(١) بحار الأنوار / ج ٣ / ص ١ / رواية ١.

فالبعض في هذه الدنيا يطمح لان يكون الاول في كل مضمار من مضامير الحياة، والبعض الآخر يكتفي بالفتات من كل شيء. البعض يدعو الله لان يمنحه امرا بسيطا لا يتناسب حتى واحتياجاته الدنيوية، اما البعض الآخر فلا يكتفي بالطلب الى الله سبحانه وتعالى ان يقيه عذاب نار جهنم فحسب، بل يتطلع ويسمو الى الدرجة الاعلى ليتمنى على الله - وهو القريب المجيب - أن يقيه الخزي في يوم القيامة، بنفس الدرجة التي يطلب فيها ان يرزقه الرضوان الالهي الذي قال القرآن الكريم عنه انه اكبر من الجنة ذاتها، و انه هو الفوز العظيم. ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة/٧٢).

ان ذلك كله منوط بمستوى معرفة العبد بربه بعد معرفته بنفسه كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله : " من عرف نفسه فقد عرف ربه ".(١) وهذه المعرفة هي المقياس الأوفى المحدد لشخصية الانسان، وغير ذلك من المقاييس لا يعدو كونه هباءً غير ذي بال، لا سيما إذا تذكرنا ان مظاهر الوجود لا محالة آيلة الى الزوال والانعدام في يوم من الايام كان عند الله موقوتاً.

ولا ادل على ما تقدم بان آيات القرآن المجيد تحدثنا وبمطلق الوضوح والصراحة عن هذه الحقيقة ؛ حيث تقول : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران/١٩٣)

---

(١) بحار الأنوار / ج ٢ / ص ٣٢ / رواية ٢٢.

ان المضامين القيمة التي تختزلها هذه الآية المباركة تعبر – فيما تعبر – عن نداء إلهي مباشر لبني آدم، وما ينبغي ان يكون عليه اعتقاده وسلوكه وشخصيته. فالآية تتحدث عن شريحة من المؤمنين سمعوا نداء الايمان فلم يكن بوسعهم – حسب شخصيتهم الراقية – إلا ان يسلموا لهذا النداء تسليماً، معتقدين بأن لا ثقل للاعمال الطيبة الصادرة عنهم – رغم وجوبها واهميتها – فهم على يقين من امرهم وامر ربهم – بعد معرفتهم به – بان لا خلاص لهم من الذنوب والموبقات سوى رحمة الله تعالى، نظراً الى انه المنّان الرحيم و الكريم، فالتوحيد ؛ والتوحيد فقط هو المنقذ من السيئات والموصل الى النعيم الابدي. والتوحيد لا يكون ولا يتأتى إلا بعد معرفة الله جل جلاله.

وثَم قول عظيم لرسول الله صلى الله عليه وآله يؤكد فيه ان " التوحيد ثمن الجنة "(١) وان " وَحِّدِ الله تشتري بتوحيدك الجنة ".

وقد روى أبوذر الغفاري رحمه الله انه قال : خرجت ليلة من الليالي فاذا رسول الله صلى الله عليه وآله يمشي وحده ليس معه إنسان فظننت انه يكره ان يمشي معه أحد، فجعلت امشي في ظل القمر، فالتفت فرآني فقال: من هذا؟ قلت: ابوذر جعلني الله فداك. قال: يا أباذر تعال، فمشيت معه ساعة. فقال: إن المكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيرا فنفخ فيه بيمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا. قال : فمشيت معه ساعة، فقال : اجلس هاهنا – وأجلسني في قاع حوله حجارة – فقال لي : إجلس حتى أرجع إليك. قال : وانطلق في الحرَّة حتى لم أره وتوارى عني فأطال اللبث، ثم إني سمعته عليه الصلاة والسلام وهو

(١) بحار الأنوار / ج ٣ / ص ٣ / رواية ٣.

مقبل وهو يقول : وإن زنى وإن سرق، قال : فلما جاء لم أصبر حتى قلت : يا نبي الله جعلني الله فداك من تكلمه في جانب الحرة؟ فإني ما سمعت احدا يردّ عليك شيئا، قال: ذاك جبرائيل عرض لي في جانب الحرة؛ فقال: بشّر أمتك انه من مات لا يشرك بالله عز وجل شيئا دخل الجنة، قال : قلت : ياجبرائيل وان زنى وان سرق ؟ قال نعم وإن شرب الخمر.(١)

وبالرغم من ان الشيخ الصدوق – قدس الله نفسه الزكية – وغيره من العلماء الابرار كانوا قد علّقوا على هذا الخبر بان مثل هذا الانسان الذي تحدث عنه الامين جبرائيل عليه السلام لا يموت حتى يوفقه الله سبحانه وتعالى الى التوبة قبيل مماته وإن العلامة المجلسي يقول : لا ينبغي الاغترار بتلك الاخبار والاجتراء بها على المعاصي.

ولكن يبدو ان الأمر بين امرين كما اشار عدة من العلماء الأخيار، اذ ان الحالة المثلى لايمان الانسان وانطلاقا من معرفته بالله ان يعيش حالة الرجاء والخوف. فهو يرجو الله ورحمته وكأنه لم يعصه قط، ويخاف الله وعقابه وكأنه لم يطعه قط.

وعلى اية حال ؛ فان الداعي الى تداول العرفان الاسلامي يكمن وراءه سببان رئيسيان :

الأول : ان امواج الثقافة الدخيلة المشوشة على طبيعة مجتمعاتنا الاسلامية وافرادنا المسلمين قد تؤثر فينا مالم نكن متحصنين بحصن التوحيد ومعرفة الله. ففي العقائد لايجوز التقليد، وإنّما على كل فرد أن يمتلك المقياس القرآني الذي

(١) بحار الأنوار / ج ٣ / ص ٧ / رواية ١٧.

عبره يعرف ربه حق المعرفة. وإنما يتأتى ذلك عبر تلاوة القرآن الكريم، والتدبر في آياته. فبصائر القرآن التي نطقت بها الآيات الشريفة، وفسرها الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله والائمة الهداة من أهل بيته، هي المقياس الذي ينبغي على كل واحد منا أن يمتلكه.

الثاني : ان اشرف العلوم واوجبها هو علم الدين، وهو بدوره ذو درجات، وارفعها هو توحيد الله سبحانه وتعالى.

# علم الكلام

عرفنا مما سبق من البحث حول تأريخ تسرب الافكار الفلسفية الى البلاد الاسلامية ؛ ان المدارس الفلسفية التي كانت تحيط بالعالم الاسلامي ابان بزوغ نور الاسلام، وبالذات مدرسة الاسكندرية، اختلطت فيها الافكار الفلسفية المنسوبة الى افلاطون شيخ فلاسفة الاشراق، بالثقافات والمعارف التي كان المسيحيون وقتها يعتقدون بها. ومن خلال هذا الخلط نشأت المسيحية الحديدة المعروفة اليوم، والتي أدانها القرآن الكريم باعتبارها مضاهئة للكفار الذين كانوا قبلها حيث قال ربنا سبحانه:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة/٣٠). كما إن المسلمين لم يظلوا بعيداً عن التأثر بهذه الافكار الفلسفية، فانتشرت فيما بينهم الافكار الانتقائية التي كانت تمزج بين شيء من الافكار الاسلامية والنظرات الفلسفية البشرية الدخيلة.

ولمزيد من التفصيل لابد ان نستعرض تأريخ علم الكلام الذي يعتبر فرعاً من العلوم العقلية التي كانت ولا تزال مرادفة للفلسفة.

**ماهو "الكلام" :**

ماهو علم الكلام وما هدفه، ولماذا سمّي بعلم الكلام؟

علم الكلام هو العلم الذي يدافع عن العقائد الاسلامية بالادلة العقلية.

أمّا لماذا سمّي بعلم الكلام فقد قال البعض: لان المنشغلين بهذا العلم كانوا يعنونون فصول مباحثهم بلفظة كلام فيقولون - مثلاً - كلام في توحيد الله، كلام في القدر، وهكذا...

وبعض احال التسمية لماهية البحوث، ولان اكثر ما بحث هذا العلم انما بحث موضوع كلام الله عز وجل هل هو قديم ام حادث، وهذه المسألة قد أشغلت المسلمين حوالي قرنين من الزمان.

وبعض آخر ألجأ هذه التسمية الى المعنى، وذلك لأن الفلاسفة سموا علمهم بالمنطق، ولأن ترجمة كلمة (المنطق) في اللغة العربية، هو الكلام. ولذا أطلق الفلاسفة المسلمون على علمهم اسم (الكلام).

والقول الثالث هو الأظهر، ومنه يتبين انه حالة من التقليد الذي كان علماء الكلام يمارسونه بالنسبة الى الفلاسفة.(١)

**سامري هذه الامة:**

في رواية عن أبي يحيى الواسطي قال: لما فتح امير المؤمنين عليه السلام البصرة اجتمع الناس عليه وفيهم الحسن البصري ومعه ألواح، فكان كلما لفظ أمير

---

(١) للتوسع راجع: العرفان الاسلامي بين نظريات البشر وبصائر الوحي -للمؤلف.

المؤمنين عليه السلام بكلمة كتبها، فقال لـه أمير المؤمنين عليه السلام – باعلى صوته – : ما تصنع ؟ قال : نكتب آثاركم لنحدث بها بعدكم. فقال له امير المؤمنين عليه السلام: اما وان لكل قوم سامرياً وهذا سامري هذه الامة، أما إنه لا يقول (لا مساس) ولكنه يقول لا قتال"(١).

والذي يبدو واضحاً وجلياً من هذا النص وغيره مما سيأتي هو وجه التشابه بين سامري بني اسرائيل والحسن البصري. فسامري بني اسرائيل أخرج لهم عجلا جسدا له خوار وقال هذا إلهكم وإله موسى فأضل به شطراً كبيراً من جماهير بني اسرائيل، ومثله فعل الحسن البصري الذي عمل على سلب المسؤولية عن الدين الاسلامي ودفع البحوث العقائدية ونحا بها منحى يجرد فيه الايمان عن العمل. والبصري هذا الذي آخاه أمير المؤمنين بابليس في رواية نقلها الطبرسي في الاحتجاج (ج ١ / ص ١٧١) أسس مدرسة ضالة في القدر، التي ذمها الرسول صلى الله عليه وآله وحذرالامة منها فيما روى عنه صلى الله عليه وآله جماعة من علماء الاسلام انه قال: "لعنت القدرية على لسان سبعين نبياً " قيل : ومن القدرية يا رسول الله ؟ فقال : قوم يزعمون أن الله سبحانه قدّر عليهم المعاصي وعذبهم عليها "(٢).

وقال ابن عباس: مرّ (أميرالمؤمنين عليه السلام) بالحسن البصري و هو يتوضأ، فقال: يا حسن أسبغ الوضوء، فقال : يا أميرالمؤمنين لقد قتلت بالأمس اناساً يشهدون أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، يصلون

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤٢ / ص ١٤١ / رواية ٢.

(٢) المصدر / ج ٥ / ص ٤٧.

الخمس و يسبغون الوضوء، فقال له أميرالمؤمنين عليه السلام : فقد كان ما رأيت فما منعك أن تعين علينا عدونا ؟!

فقال : والله لأصدقنك يا أميرالمؤمنين، لقد خرجت في أول يوم فاغتسلت وتحنطت وصببت عليَّ سلاحي، و أنا لا أشك في أن التخلف عن ام المؤمنين عائشة هو الكفر، فلما انتهيت إلى موضع من الخريبة ناداني مناد : " يا حسن إلى أين ؟ ارجع فإن القاتل والمقتول في النار"، فرجعت ذعراً وجلست في بيتي، فلما كان اليوم الثاني لم أشك أن التخلف عن ام المؤمنين عائشة هو الكفر، فتحنطت وصببت عليَّ سلاحي وخرجت أريد القتال، حتى انتهيت إلى موضع من الخريبة فناداني مناد من خلفي: " يا حسن إلى أين؟ فإن القاتل والمقتول في النار ". قال علي عليه السلام : صدقك أفتدري من ذلك المنادي؟ قال: لا. قال عليه السلام : ذاك أخوك إبليس و صدقك، إن القاتل والمقتول منهم في النار، فقال الحسن البصري: الآن عرفت يا أميرالمؤمنين أن القوم هلكى". (١)

الحسن البصري هذا هو الذي اسس مدرسة الاشاعرة وفي ظل مدرسته، نمت مدرسة الاعتزال على يد تلميذه واصل بن عطاء الذي يصف استاذه البصري بأنه يتغير بين عشية وضحاها، وانه لا يستقر على رأي، وأنه كل يوم هو في شأن. ففي يوم يقول بالقدر، أي ان الله سبحانه هو الذي قدّر اعمال العباد وليس للعباد شأن في اعمالهم، وفي يوم آخر يقول إن العمل هو من شأن الانسان وحده. وفي يوم ثالث يقول إن علم الله سبحانه حادث، وفي رابع يقول علم الله قديم، ومرة يقول خلق الله للخلق حادث، وأخرى يقول قديم.

---

(١) الاحتجاج / ج ١ / ص ١٧١.

وربما يتصور ان هذا التلون والتغير في آراء الحسن البصري كان سبباً لانعزال تلميذه واصل بن عطاء عن مدرسة استاذه، لكن الحقائق التأريخية التي سادت تلك الفترة تكشف بوضوح عن سبب رئيسي آخر هو أن الازارقة - وهم فرع من فروع الخوارج - كانت لهم السلطة آنذاك على البصرة، وكانوا يزعمون بان مرتكب الكبيرة كافر وأنه خالد في النار، بينما كان الحسن البصري يقول انه ليس بكافر. فكان لابد لواصل، وهو كأستاذه يعيش حالة الانهزامية، ولكي يتهرب عن تحمل عناء الوقوف امام الحكام المتطرفين واصحاب النفوذ، ولكي ينسلَّ عن قضايا الثورة التي كان يقودها أهل بيت الرسول صلوات الله عليهم اجمعين دفاعا عن الرسالة الالهية. كان لابد له أن يخرج برأي توفيقي بين آراء استاذه وآراء السلطة الحاكمة، فأسس مذهبا يقول إن مرتكب الكبيرة ليس بكافر وليس بمسلم وانما هو منزلة بين منزلتين فهو إذن فاسق(١).

وقد اطلق اسم المعتزلة على المدرسة التي اسسها واصل بن عطاء بعد ان طرده استاذه الحسن البصري من حلقة درسه لمخالفته لاقواله، فاعتزل في زاوية من المسجد واتخذ لنفسه حلقة جديدة والتحق به عمرو بن عبيد، وبذلك سمي بالمعتزل، وسميت مدرسته بالمعتزلة، وقد أنشعبت فيما بعد الى اثنين وعشرين فرقة.

## لماذا علم الكلام؟

حينما تعرضت ثقافة المسلمين الى الارتجاج وسادتها الفوضى نتيجة الظروف السياسية والاجتماعية ؛ سيما بعد مقتل الخليفة الثالث، ظهرت على الساحة

---

(١) الخياط، كتاب الانتصار ص ١١٨ / الشهرستاني، الملل والنحل ص ١٧ / عنهما : تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٧٩.

الاسلامية تساؤلات كان لها أثر لايستهان به في الحقل الثقافي، فاضطربت معها الافكار. وكانت سبباً دافعاً لعلماء الدين ان يُنشؤوا علماً أو فناً يستطيع ان يحافظ على توازن الجو الثقافي وعلى تعادل الفكر، هذا من جهة ؛ ومن جهة ثانية فان باب العلم الذي فتحه رسول الله صلى الله عليه وآله امام المسلمين على مصراعيه بقوله: " انا مدينة العلم وعلي بابها "، وقوله: " علي اقضاكم "(١). وقوله: " من كنت مولاه فهذا علي مولاه "(٢)، وكذلك باب الولوج الى المعارف الالهية الذي فتحه الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله بقوله: " اني تارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا : كتاب الله، وعترتي اهل بيتي "(٣)، هذا الباب صدته رياح الجاهلية المتجددة في المجتمع الاسلامي الحديث، والأهواء التسلطية في بعض الفئات التي عملت على إبعاد أهل بيت العصمة عن مراكز التوجيه والتثقيف وبالتالي ابعاد الناس عن تفسير القرآن الكريم. فكان ان اجتاحت المجتمع الاسلامي افكار غريبة دخيلة، وكان ان احتاج الناس الى ثقافة بديلة فنشأت نظريات واسست مدارس فكرية مختلفة وهكذا وجد أمثال الحسن البصري وواصل بن عطاء وكانت المذاهب والمدارس الاخرى في علم الكلام وفي الفقه.

ثم ان انقلاب مجتمع الجزيرة العربية على واقعه المتخلف بفضل بزوغ نور الاسلام وظهور الرسالة المحمدية، كان انبثاقا للحضارة الاسلامية في القرن الاول

---

(١) بحار الانوار / ج ١٠ / ص ٤٤٥ / رواية ١٥.

(٢) المصدر / ج ٤ / ص ٢٠٣.

(٣) المصدر / ج ٢ / ص ٢٨٥ / رواية ٢.

الهجري، وحيث نشر الاسلام نوره على البقاع المجاورة للجزيرة وفتح المسلمون العراق وسوريا ومصر، اصطدموا حينها بالحضارة البيزنطية والفارسية القديمة، وكنتيجة طبيعية لهذا الاصطدام والاحتكاك بين الحضارة الاسلامية وتلك الحضارات تفاعلت الافكار فخرج الى حيز الواقع نمطان من التفكر يمثل احدهما فئة المتبعين للافكار الدخيلة وهم الفلاسفة كابن المقفّع وابن ابي العوجاء وعبد الله الديصاني وغيرهم من المتزندقة، وفئة أخرى أرادت ان توفق بين الامرين ؛ بين الافكار الدخيلة والافكار الاصيلة، وهؤلاء هم الذين أسسوا ما يعرف اليوم بعلم الكلام.

## من تفكر في ذات الله تزندق :

وقد لعن رسول الله عدة فئات ومن جملتهم (القدرية) قال صلى الله عليه وآله : لعنت القدرية على لسان سبعين نبياً، قيل : ومن القدرية يارسول الله ؟ فقال : قوم يزعمون ان الله سبحانه قدّر عليهم المعاصي وعذبهم عليها(١). ويقول القدرية: اننا نعمل الاعمال والله هو الذي يجازي ويتحمل مسؤولية اعمالنا، يقولون : علم الله قديم وعمل الانسان في علم الله ؛ فالله هو الذي قام بهذا العمل، وكثير من المسلمين ضلّوا السبيل ففسدت افكارهم وعقائدهم بسبب هذه الافكارالتبريرية، الافكار التي تبرر ما يفعله الانسان وترفع عنه الجزاء عما يرتكبه من كبائر وصغائر والتي سنتناولها بالبحث ونبيّن فسادها عقلاً وشرعاً.

والاعتقاد السائد عند بعض المؤرخين هو ان الحسن البصري هو اول من تكلم في القدر وان إليه تنتهي كثير من المذاهب العقائدية القائلة بتجريد الايمان عن

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٤٧.

العمل، وربما كان هو المشجع للتصوف والرهبنة بزعمه ان افعال العباد مخلوقة، ففي رواية في البحار عن أمير المؤمنين عليه السلام في القدر انه قال : " ألا إن القدر سرّ من سرّ الله وحرز من حرز الله، مرفوع في حجاب الله، مطوي عن خلق الله، مختوم بخاتم الله، سابق في علم الله، وضع الله عن العباد علمه، ورفعه فوق شهاداتهم لانهم لاينالونه بحقيقة الربانية ولابقدرة الصمدانية ولا بعظمة النورانية ولا بعزة الوحدانية لانه بحر زاخر مواج خالص لله عز وجل، عمقه ما بين السماء والارض، عرضه مابين المشرق والمغرب اسود كالليل الدامس، كثير الحيّات والحيتان ؛ تعلو مرة وتسفل أخرى، في قعره شمس تضيء لا ينبغي ان يطّلع عليها إلاّ الواحد الفرد، فمن تطلّع عليها فقد ضادّ الله في حكمه ونازعه في سلطانه وكشف عن سرّه وستره وباء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير(١). وقد وردت هذه الرواية جواباً قاطعاً لمن سأله عليه السلام عن القدر، وجاءت تحذيراً بان القدر امر خطير وتوجيهاً للانسان بأن يؤمن بوجدانه وبفطرته وانه مكلف حرّ ومريد في أعماله وان عليه الجزاء، واما ان يتعمق الانسان في ذات الله فذاك هو التفكر في ذات الله وذاك هو الزندقة، بينما يأتي سامري هذه الامة ليحدث الناس عن القدر فيبث الشبهات في افكار الناس ويضللهم.

والذي يبدو ان الحسن بن ابي الحسن البصري كان يسعى الى تبرير افكاره من خلال مراسلاته وكتاباته مع الائمة المعصومين، فلم يكن يجد إلاّ ردّاً قاطعاً، فقد روي عن العالم – الامام موسى بن جعفر عليه السلام – انه قال : كتب الحسن بن ابي الحسن البصري الى الحسين بن علي بن ابي طالب صلوات الله عليهما

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٩٧.

يسأله عن القدر، فكتب اليه " فاتبع ما شرحت لك في القدر مما افضى إلينا اهل البيت فانه من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر، ومن حمل المعاصي على الله عز وجل فقد افترى على الله افتراءً عظيماً " والذي يبدو ان الرجل كان يسعى لمثل ذلك، اذ انه اما كان يحمّل الله اعماله ومسؤولية تصرفاته واما انه كان يقول بان ليس لله شأن في مسألة القدر، لكن الحسين عليه السلام يقول في جوابه - : ان الله تبارك وتعالى لا يطاع بإكراه ولا يعصى بغلبة ولا يهمل العباد في الهلكة لكنه المالك لما ملّكهم... الى ان قال عليه السلام في نهاية الحديث: "فانا على ذلك اذهب وبه اقول، والله انا واصحابي ايضاً عليه ولله الحمد". (١)

ممّا سبق تتضح طبيعة الظروف التي سادت المجتمع الاسلامي في تلك الفترة وطبيعة العوامل التي ادت الى نشوء علم الكلام، أئمة معصومون يضعون الحقائق أمام الناس من خلال احاديثهم وكتاباتهم ومراسلاتهم، ومسلمون يعيشون في متاهات هذا العلم ويتحدثون بما اسقط الله عنهم مسؤوليته، هكذا وفي مثل هذه الظروف انتشر علم الكلام، وهو وإن لم يكن ضاراً كله فقد كان مفيداً في بعض جوانبه، إلا إنه في مثل هذه الارضية وهذه الاجواء نشأت فرق منحرفة في الامة الاسلامية كالاسماعيلية والمانوية، والراوندية، والباطنية، فرق الّهت الائمة عليهم السلام ، فما من إمام من ائمتنا ابتداءً من الامام علي عليه السلام والى الامام الرضا عليه السلام إلاّ وقد أُلّه من قبل مجموعة من اصحاب الفلسفة الذين كانوا يحسبون أنفسهم -كذباً وزوراً- من الشيعة، وكان الأئمة الاطهار يحاربونهم أشد المحاربة.

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ١٢٣.

ان الافكار الفلسفية هي التي سببت حدوث فرق عديدة بين المسلمين وكان اهمها الفرقتين الاساسيتين: فرقة المشاء وكان يمثلهم الفيلسوف المعروف ابن رشد، وفرقة الاشراق وكان يمثلهم ابن سينا والفيلسوف المعروف سهروردي.

# تاريخ الفلسفة

في عالم الفكر خطان لا يلتقيان إلا في مواضع يسيرة بسيطة ؛ ألا وهما خط الرسالات الالهية، وخط الفلسفة البشرية. ولكل من هذين الخطين تاريخه الممتد عبر الزمن. فمنذ هبوط أبينا آدم على هذا الكوكب، كان يحمل معه رسالة السماء الالهية التي سبقت وجود الحاجة اليها، فمع اول انسان جاءت رسالة السماء، وستبقى وتستمر الى آخر إنسان. وسوف لن تخلو الارض من حجة إلهية يحمل الرسالة الالهية.

ونحن لسنا بصدد البحث عن تأريخ الرسالات السماوية، وإنما ينبغي لنا ان نشير الى فكرتين قد نحتاج إليهما في سياق البحوث القادمة إن شاء الله تعالى.

## الاولى : وحدة الهدف في الرسالات الالهية

لا ريب ان الخطوط العريضة لرسالات الله تبارك وتعالى واحدة، إذ كلها تدعو الى توحيد الله الخالق الواحد الاحد، والى تسبيحه وتقديسه وبيان أنه تعالى اكبر من ان يوصف بوصف.. وكلها تدعو إلى الخلوص في العبودية له جل وعلا،

والى نفي الشركاء عنه ومحاربة الانداد الذين يُعبدون من دونه. وايضا فانها جميعها تدعو الى اصلاح النفس، وبالتالي الى اصلاح المجتمع الانساني. فالمعارف الالهية التي تكاملت على يد النبي الاكرم صلى الله عليه وآله هي ذاتها المعارف التي جاءت بصورتها المجملة مع آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وهي ذات المعارف التي جاءت مع نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومع كل النبيين صلوات الله عليهم أجمعين.

إذن، فإن افلاطون مثلاً لا يمكن ان يكون نبياً، إذا كانت تعاليمه الاشراقية مخالفة لتعاليم نبينا صلى الله عليه وآله. بل وحتى زرادشت لايمكن ان يكون نبياً اذا كانت تعاليمه هي هذه المخالفة لتعاليم عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فان ما ينسب إليه من أفكار صوفية اشراقية ليست بحقيقة، لأنها مخالفة لما نعهده من معارف القرآن الحكيم.

فالفكرة الاولى هي بإيجاز: ان رسالات الله تعالى واحدة، ودعوتها واحدة، وثقافتها واحدة، وخطوط معارفها العريضة واحدة أيضاً لا اختلاف فيها إلا ما يعرض من التشريعات الجزئية التي تتغير مع الزمن.

## الثانية: القرآن الكريم اكمل الرسالات الالهية

إن المعارف الالهية التي انبثقت من الرسالات الالهية نجدها في القرآن الكريم. فنحن لو تدبرنا الآيات الكريمة، نقف على ماكان يدعو إليه الانجيل والتوراة والزبور ومئة وثلاثون ونيف من الكتب الالهية التي نزلت على البشر ؛ فمن خلال قراءة لسورة هود مثلاً او الشعراء او القصص، بل كل السور القرآنية الكريمة، يبدو واضحاً شمولية القرآن الكريم وهيمنته على كل الرسالات السابقة له، بل ويظهر

بكل جلاء انه اكمل الرسالات واجمعها.

ومن خلال نظرة إلى ما كان يدعو إليه الانبياء والى ماهية الرسالات التي جاؤوا بها، والى تأريخ تلك الرسالات، نعرف كونها واحدة فيما جاءت به من المعارف الالهية، وان خطوطها العريضة واحدة ايضاً. وان القرآن الكريم هو أكملها.

إذاً فالذي ينبغي لنا ان نؤرخه هو الفكر البشري، ذلك الفكر الذي يولد ناقصاً فيتعامل خلال مسيرة تكامله مع العصور والازمان ثم يبدو أخيرا مناقضا لنفسه. ذلك الفكر الذي ينشأ حينا في اليونان وينتقل الى الاسكندرية ومن ثم الى أنطاكية ومنها الى الروم والى سائر بلاد العالم، فتتبدل صوره عبر الحضارات المختلفة كالحضارة الهيلينية والمصرية والفارسية القديمة وغيرها من الحضارات.

## المعارف الالهية:

لكي نستعرض جانباً من الفلسفة البشرية، لابد لنا ان نبين ان الفكر إذا كان موحى من قبل الله تعالى الى الانسان، فذلك الفكر يكون مقدساً عن التأثر بالظروف، منزّها عن كل شائبة، بعيدا عن تأثيرات الحالات النفسية للانسان وظروفه الثقافية والاقتصادية والسياسية، كطبيعة الانتاج مثلاً او طريقة الحكم او ما اشبه ذلك ؛ لان هذا الفكر نزيه بعيد عن الهوى، فهو كعلم نبينا محمد صلى الله عليه وآله الذي يقول عنه ربنا سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ ( النجم/٣-٤ )

فالجزيرة العربية إبان نزول القرآن بأحوالها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، لم تكن لتؤثر في ماهية المعارف القرآنية، بل العكس هو الصحيح إذ الرسالة المحمدية جاءت لتوجيه الانسان نحو التكامل، وذلك لأن القرآن الكريم ليس

قرآن الجزيرة. فهو لم ينبت من أرضها ولم يكن وليد مجتمعها، و انما أوحي من قبل الله تعالى الملك القدوس الذي لا تخفى عليه خافية والذي لا يتأثر بالهوى، بينما الفكر البشري ليس كذلك اذ انه عادة ما يكون وليد الظروف.

**اقتباس الافكار:**

إن الفكر البشري ينبع من واقعه الذي يعيشه، فهو -إذن- تبع لها يتغيّر بتغيّرها. فالظروف في الحقيقة هي التي تتحكم عادة في فكر الانسان، وبالتالي فهي المبلورة لهذا الفكر، فحيث تتوافر ظروف متشابهة لانسانين مختلفين في مكانين متباعدين مكاناً وزماناً، تتوقع حينها ان تنتج هذه الظروف المتشابهة فكرتين متشابهتين دون أن يكون هناك ادنى لقاء بين هذين الرجلين، لان بينهما قرون متباعدة من الزمان ومسافات شاسعة لا تجتازها القوافل التجارية او الوسائل العلمية. وكذلك لا يبعد أن يكون هناك وقبل آلاف السنين - قبل تسعة آلاف سنة مثلاً - في مصر من كان يفكر بنفس الفكرة التي يفكر بها شخص يعيش في الهند هذا العام ؛ إذا ما افترضنا تشابه ظروفهما، دون أن يكون أحدهما قد اقتبس من الآخر.

فالثورة - مثلاً - تولد بسبب ظروف خاصة وعوامل معينة، فحيث يكون هناك ظلم وكان قباله تحدٍّ للظلم، وحيث ما تكون هناك فكرة تستجمع هذا التحدي، وقيادة تركز هذا التحدي وتوجهه فسوف تكون هناك ثورة.

ومثل هذا الامر مثل الاختراعات، إذ قد يخترع رجل اختراعاً في مدينة ألمانية وآخر يخترع نفس الاختراع في نفس العام، بل ونفس الشهر ايضاً في مدينة امريكية، فهذا لايعني بأي وجه ان احدهما اقتبس اختراعه من الثاني.

ونحن انما نقول هذا لكي نؤكد على أنه ليس مستبعداً ان تكون هناك افكار قد انتجتها عبقرية اليونان القديمة ثم أنتجتها مرة أخرى عبقرية فيلسوف مسلم عاش في القرن السادس الهجري، لكنا لا نقول بأن اي منهما اقتبس أفكاره من الآخر. نعم المؤرخون للفلسفة وللثقافات عادة يحاولون أن يربطوا بين المفكرين بعضهم مع بعض، فيقولون إن هذا المفكر انما اقتبس أفكاره من ذاك المفكر لمجرد التشابه في الفكرتين اولمجرد ان احدهما سبق الآخر في انتاج هذه الفكرة. ونحن نقول لهم إن انتقال الفكر من جيل الى جيل آخر، ومن بلد إلى بلد آخر أمر ممكن سيما في عصرنا هذا الزاخر بالممهدات والوسائل العلمية المتقدمة لمثل هذا الانتقال ؛ لكن ذلك لا يعني بأي وجه ان كل من فكّر بما فكّر به الآخرون انما يكون قد اقتبس منهم او قلدهم فيه.

## لمحة تاريخية:

قبل آلاف السنين كان هناك مفكرون في الصين وآخرون في الهند ومصر، غير ان بداية تجمع الفلسفة بل وتحولها الى مدرسة معروفة لدينا انما كان في اليونان - الاغريق القديم -. فسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطو ومجموعة آخرون من الفلاسفة كانوا في اليونان، وهؤلاء هم الذين استطاعوا ان يبلوروا الفكر الفلسفي القديم وان يكتبوا هذا الفكر وينشروه، وحين أدّت الظروف السياسية والعسكرية الى قيام حروب ومنازعات، و حينما التقت جيوش اليونان في عصر الاسكندر بجيوش الفرس، ساعدت الظروف حينها على التقاء الافكار وتبادل الفلاسفة أفكارهم، وكان لقاء الفلسفة الغربية بالفلسفة الشرقية من أمثلة هذه القاعدة.

اما الفترة التي سبقت بزوغ نور الاسلام فقد كان هناك وفي آسيا الوسطى بالذات

اربع مدارس فلسفية، بل أربعة مراكز للفلسفة، كان أهمها ماكان في الاسكندرية ومركز آخر في العراق وآخر في ايران - في جندي شابور - ورابع في حوالي سوريا. هذه المدارس لا نعرف مدى تأثر المسلمين بها، لكن الذي ينبغي ان نقف عنده طويلا هو مركز الاسكندرية، إذ هو المركز الأساسي الذي التقى به الفكر الاسلامي بالفكر الغربي، فمنذ القرن الثاني للميلاد مستمرا الى القرن السابع للميلاد - القرن الثاني للهجرة - كانت الاسكندرية مركزاً للفلسفة اليونانية التي تبلورت فيها فكرة سميت فيما بعد بـ" الافلاطونية الجديدة ".

الفيلسوف اليوناني أفلاطون، تلميذ سقراط واستاذ أرسطو، ابتدع مدرسة معينة في الفلسفة سميت بمدرسة الاشراق، والظاهر إن هذه التسمية جاءت لان افلاطون كان يعتقد بعالم المثل، وباشراق عالم الحقيقة على عالم المثل، وذلك في نظرية له طويلة سنتعرض لذكرها في البحوث القادمة إن شاء الله تعالى.

اما ارسطو تلميذ افلاطون فقد اختلف مع هذه المدرسة، فابتدع بدوره مدرسة أخرى سماها المدرسة المشائية او مدرسة المشائين.

## الافلاطونية الجديدة :

ولأن الاسكندرية بمصر كانت مركزاً مهما لالتقاء الفكر الغربي بالفكر الشرقي ابان حروب الاسكندر، وإنها كانت قبل بزوغ نور الاسلام مركزا مهما من مراكز الفلسفة، ومدرسة من مدارسها، كان طبيعياً ان تظهر في هذه المدرسة افكار جديدة كنتيجة طبيعية للأجواء الفكرية التي سادت هذا المركز الفكري. فقد عاش في الاسكندرية فلاسفة ومفكرون كان منهم " امونيوس سكّاس"(١)

(١) امونيوس سكّاس؛ أو امونيوس الحمال، وبعضهم سمّاه "حموروئيس" أو "حمونيوس".

[النصف الاول من القرن الثالث للميلاد] الذي تأثر بتعاليم افلاطون وعمل على تطويرها بحيث تنسجم مع المفاهيم الارسطوية والشرقية(١) وبذلك أسس ما أطلق عليه بـ"الافلاطونية الجديدة" وكان "فلوطين"(٢) من أبرز تلاميذ "امونيوس" وقد عمل على بلورة مذهب استاذه "الافلاطونية الجديدة" وقد اعتبره البعض مؤسس هذا المذهب وليس استاذه، وقد تأثر "فلوطين" هذا بالرسالة الالهية التي هبطت على المسيح بن مريم عليهما السلام، ولانه كان فيلسوفا معتقدا بأفكار افلاطون، أراد ان يمزج بين أفكار افلاطون من جهة وبين الرسالة الالهية من جهة ثانية، فكانت نتيجة محاولاته تلك ونتيجة هذا المزج بين ما يعتقد به من الافكار الافلاطونية وما تأثر به من الرسالة الالهية ان خرج بما سمي بعدئذ بالاقانيم الثلاثة فقال : إن الله ليس واحداً وإنما هو ثالث ثلاثة، الله أي الاب والابن، والروح القدس الفاصل بين الاب وبين الابن.

لكن الذي يجدر بالذكر ان الاحبار – اعني علماء المسيحية – خالفوا في البدء هذه الفكرة المستحدثة ؛ فكرة خلط المعارف الالهية والتعاليم السماوية بالفلسفة البشرية، معترضين بأن ذلك تحريف وزيادة في الدين. غير ان تغيّر الظروف الاجتماعية والسياسية دفع المسيحين واضطرهم الى مبايعة امبراطور الروم خوفاً من اضطهاد اليهود لهم، وطمعاً في استدراج امبراطور روما لدينهم، فراحوا

---

(١) تصوّر اصحاب الافلاطونية الجديدة العالم فيضاً منبثقاً من الذات العليا التي تستطيع الروح الاتحاد بها في حال الانجذاب الروحي. [موسوعة المورد – ج٧ – ص١١٥].

(٢) فلوطين أو افلوطين [٢٠٥-٢٧٠م] فيلسوف روماني، مصري النشأة تتلمذ على امونيوس سكّاس، يعتبر ابرز ممثلي "الافلاطونية المحدثة" رحل الى روما حيث تتلمذ عليه (فرفوريوس) عام ٢٦٣م [موسوعة المورد – ج٨ – ص٥١].

يخضعون للفلسفة الافلاطونية الحديدة. فكان ذلك سببا لدخول الشرك والافكار الغنوصية والحلولية في الديانة المسيحية، وكانت الاسكندرية على يد (امونيوس) وعلى يد تلميذه (فلوطين) بابا ولجت منه الافلاطونية الجديدة في الديانة المسيحية.

قبول الاحبار والرهبان للافلاطونية الجديدة انما كان بسبب رغبتهم الملحة وحرصهم الشديد على جلب الناس للدين. هذه الرغبة وذلك الحرص استدعى ان يلجأ هؤلاء الرهبان والاحبار الى التخفيف في أحكام الدين وتسهيل تشريعاته، وبالتالي خلط الرسالة الالهية بالفلسفة البشرية وبالشكل الذي يتمشى واهواء الناس. فراحوا يغيرون معالم الديانة الاساسية، وكان ذلك بالنتيجة سبباً في استحداث أنواع جديدة من الديانات الممسوخة البعيدة عن الرسالة الالهية كل البعد.

والدين الاسلامي الحنيف لم يكن أيضاً في مأمن من عبث العابثين ولا في منأى عن أهواء النفس البشرية. فمنذ ان دخل الاسلام الهند مثلا واعتنق الناس الاسلام الحنيف راحت تيارات التغيير واساليب التبديل تلعب دورها في حرف هذه الرسالة السماوية، فظهرت الديانة السيخية التي هي في الواقع تحريف للاسلام، بل وظهرت الديانة القاديانية على يد القادياني، كما استحدثت الديانة البهائية على يد محمد علي بهاء. وليس هذا فحسب، بل وكل المذاهب المنحرفة التي انبثقت من الديانات الالهية المستقيمة انما كانت بسبب اختلاط الافكار البشرية بهدى الله سبحانه وتعالى وبالرسالات السماوية ؛ هذا الاختلاط الذي سبّب انواعاً جديدة مستحدثة من المذاهب والديانات البعيدة عن الرسالات السماوية السمحاء كل البعد.

ولابد أن نشير هنا الى أن عدداً ليس بقليل من علماء المسلمين سلكوا طريق الانحراف هذا وابتلوا بهذا الداء، كل ذلك من أجل ان يجمعوا حولهم انصاراً واعواناً. فراحوا يغيّرون الدين ويحرّفون الكلم عن مواضعه ويخففون من أحكام الدين وواجباته ويهوّنون على المكلف واجباته ويسهلون تشريعاته ترغيباً بالدين وجذباً إليه، ولكنهم بفعلهم هذا لا يبعدون الناس عن الدين فحسب بل ويعملون شاؤوا أم أبوا على تضعيف روح الايمان الصادق لدى النفوس المؤمنة.

## الفلسفة ومسيرة الفكر الاسلامي :

منذ نهايات القرن الاول وخلال القرنين الثاني والثالث للهجرة، كانت مدرسة الاسكندرية فاعلة ومؤثرة في مسيرة التفكر الانساني، وقد بلغ ذلك التأثير حداً كبيراً في ايام خلافة عمر بن عبد العزيز، حينما انتقلت هذه المدرسة من الاسكندرية إلى انطاكية لاسباب تأريخية، وخلال هذه الفترة أيضا كان لها تأثيرها الملموس في تفكر بعض المسلمين جنباً الى جنب مع مدرسة رهى حوالي حلب، ومدرسة انطاكية ومدرسة جندي شابور في ايران، ومدارس فلسفية أخرى تركت أثرها على مسيرة الفكر الاسلامي، و الذي يبدو ان مدرسة الاسكندرية كانت أكثر اثراً وابعد تأثيراً من قريناتها الاخرى، وهذا ما سنبيّنه في بحوث قادمة.

ولدراسة تاريخ الفلسفة عند المسلمين، لابد ان نبيّن مدى تفاعل عرب الحجاز قبل الاسلام مع الفلسفة. جاء في مقدمة الطبعة الثانية لكتاب (نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام) للدكتور علي سامي نشار -الذي يعتبر حجة في موضوعه- وهو يؤرخ للفلسفة الاسلامية: "ولكن الامر عاد الى معاوية بن ابي سفيان ولم يكن المسلمون بعد قد تناسوا اباه هذا الغنوصي القائم، هذا الثنوي المجوسي الذي لم

يؤمن أبدا"، ويضيف: "ومهما قيل في معاوية ومهما حاول علماء المذهب من السلف المتأخر ومن اهل السنة من وضعه في نسق صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله فان الرجل لم يؤمن ابدا بالاسلام، ولقد كان يطلق نفثاته على الاسلام كثيراً ولكنه لم يكن يستطيع ان يفعل أكثر من هذا".(١)

وهذه ليست تهمة يوجهها النشار لشخص معاوية لموقف معادٍ له، فالكاتب يتميز بافكاره المتطرفة ضد الشيعة والتي يستقيها من المستشرقين الذين طرقوا فرق الشيعة وتأريخهم السياسي، فهو في تصريحه هذا إنما يعتمد على جملة من المصادر التأريخية التي تثبت بالحرف الواحد ما يذهب اليه. يقول الدكتور ناجي التكريتي هناك دلائل كثيرة تشير الى أن النقل والاطلاع على فلسفة اليونان بدأ في عصر الدولة الأموية، وفي صدرها بالذات. (٢)

إذن كان لابي سفيان صلات بالأفكار الغنوصية، والافكار المجوسية والافكار الافلاطونية الجديدة منذ عهد ما قبل الاسلام، وهذا لأن العرب كانوا يتفاعلون مع الحضارات، ويحتكون بمجتمعاتها وبافكارها وهذا يؤكد الفكرة القائلة بأن السلطات السياسية كانت وراء ترجمة الافكار الفلسفية الشركية الى اللغة العربية، لمقاومة الخط الرسالي الواضح، ولمقاومة المفسرين والفقهاء من أهل البيت عليهم السلام وبالتالي لدعم سلطاتهم، ومن اجل مقاومة نور الاسلام وهدى القرآن، وهذا ما سنأتي عليه بمزيد من التفصيل باذن الله تبارك وتعالى.

---

(١) " نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام " ج / ٢ مقدمة الطبعة الثانية.

(٢) الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية / ص ١٠٦.

# فلسفة هيلينية بلغة عربية

قبل ان نتحدث عن تأريخ الفلسفة التي تسربت الى البلاد الاسلامية وذلك ببيان فلسفة شيخ الاشراق " سهروردي " الذي كان يعتبر ذا خط فلسفي محدّد، خصوصاً في البلاد الاسلامية الشرقية. لابد وان نشير الى ملاحظتين أساسيتين :

## ١/ مقياس الثقافة

يبحث الانسان عادة عن مقياس للثقافة يستطيع ان يحدد به الافكار التي ترد عليه، فيميّز بين ماهو نافع وما هو ضار من الافكار التي يستقبلها. فكثيراً ما نواجه السؤال القائل : ماهي الثقافة الاصيلة، وماهي الثقافة الدخيلة ؟ ماهي الثقافة التي يمكننا ان نستسلم لها من دون تردد، وماهي الثقافة التي لابد ان نرفضها ؟

ان أي ثقافة إنما تنتهي بالتالي الى خطوط عريضة تجمعها الفلسفة، فكل ثقافة تقع ضمن اطار معين، وتنطلق من قواعد اساسية محددة. وهذه القواعد هي التي يجب ان نقف عليها ونفهمها لكي نفهم طبيعة تلك الثقافة.

فاذا اردت أن تعرف طبيعة ثقافة انسان ما، فإن عليك الوقوف على الفلسفة التي

يؤمن بها ؛ فلو كان – وعلى سبيل المثال – يؤمن بالفلسفة المادية، فان هذه الفلسفة سوف تكتنف كل جوانب تفكيره وستؤطر افكاره وتحدد ثقافته وسائر معلوماته ومعارفه ضمن تلك الحدود المادية، ولو كان يؤمن بالحكمة الالهية، فان هذه الحكمة سوف تؤطر افكاره أيضاً.

وإذا كانت هذه الحقيقة معروفة واضحة فلا بد ان نبني عليها حقيقة أخرى، وهي ان ثقافة البشرية جمعاء تعود بالتالي إلى خطين اساسيين : خط الفلسفة الالحادية الشركية، وخط الفلسفة الايمانية التوحيدية. وبالتالي فان كل ما عند البشر من الثقافات يعود الى أحد هذين الجذرين الرئيسين ؛ جذر الشرك أو جذر التوحيد.

## إمتدادات الحضارة الهيلينية :

والجذر الاول، وهوجذر الشرك في عالمنا اليوم يرجع الى لون واحد من الثقافات. وقد توصل المؤرخ المعروف "آرنولد توينبي" (١٨٨٩-١٩٧٥) الذي درس الحضارات البشرية والثقافات التي نبتت من أرضيتها تلك الحضارات، الى نتيجة واحدة، وهي انه كانت هناك حضارات عديدة في العالم، وربما كانت تزيد على عشرين حضارة لكنها بادت وانتهت، وان الحضارة القائمة اليوم انما هي واحدة من تلك الحضارات وهي المسماة بالحضارة الهيلينية. والحضارة الاوربية الحديثة –إن استطعنا ان نطلق عليها اسم حضارة– ليست إلا امتداداً للحضارة الهيلينية القديمة(١)، بل لوتصورنا ان الحضارة الهيلينية كتابا فما تسمى اليوم بالحضارة الاوربية ليست إلا نسخة عن ذلك الكتاب.

---

(١) الحضارة الهلّينية (Hellenism) هي حضارة اليونان القديمة في القرن الرابع قبل الميلاد.

استطاع اليونان ان ينشروا افكارهم بما كانت لهم من قدرات كافية عبر موجات متلاحقة ومترامية الى مختلف البقاع والآفاق، فقد انتقلت افكارهم الى روما واستمرت خلال القرون الوسطى حتى تجددت فيما يسمى بعصر النهضة. فمنطق ارسطو مازال يدرّس في الجامعات الاوربية الى يومنا هذا، وأن اللغة اليونانية هي جذر لغة الاوربيين وحضارتهم. وهذا الاعتقاد يبدو واضحاً جلياً لنا لو استقرأنا التعابير والاصطلاحات العلمية التي يستخدمونها في كتبهم. ففي اي كتاب غربي لابد وان نواجه مثلا التعبير (لوجيك Logic) وهي يونانية لاتينية الاصل وتعني المنهج او المنطق، وتستخدم في الكلمات الاوربية الحديثة بمعنى العلم، كـ(علم وظائف الاعضاء – الفسيولوجيا Physiology) و(علم النفس – السيكولوجيا Psychology) و(علم الاجتماع – السوسيولوجيا Sociology) إلى غير ذلك من الاصطلاحات المستخدمة اليوم لدى الغرب.

كما ان فلاسفة المسلمين هم أيضاً تأثروا بأفكار فلاسفة اليونان عبر مدرسة الاسكندرية، وذلك يعني ان الفلسفة المتأثرة بالفلسفة اليونانية انما هي امتداد للحضارة الهيلينية ايضا. فنحن إذا ما استثنينا القرآن الكريم وما بقي على اصالته الربانية من الرسالات الالهية عند المسيحيين واليهود، يمكننا القول بأن ما في العالم اليوم لا يتجاوز الحضارة الهيلينية الشركية التي نشأت ابان عصر اليونان القدماء.

ثم إن ثقافة اي مجتمع انما هي وليدة الفلسفة التي يؤمن بها ذلك المجتمع، وهذا ما نلحظه واضحا في المجتمعات الغربية. فالتعصب العنصري والانانية وحب الذات المتأصلة في الجاهلية الغربية، انبثقت كلها من قاعدة الشرك؛

والشرك لا ينتج إلاّ الجهل، بل الشرك والجهل صنوان لايفترقان. وقد تغيب الحقيقة عن البعض فيعتقد ان اوربا انما ابتعدت عن الايمان في عصر النهضة، وهذا خطأ كبير؛ فأوربا كانت بعيده عن الايمان الحقيقي منذ زمن سحيق، والاوربيون بعيدون عن الايمان بالله الواحد الصمد الفرد الاحد الذي نؤمن به نحن عبر منهج القرآن الحكيم، وانما آمنوا بأفكار الافلاطونية الجديدة التي دخلت في المسيحية عبر مدرسة الاسكندرية؛ كما أسلفنا.

## ٢/ خلط الوثنية بالدين

سبق وان ذكرنا ان من السمات التي اتسمت بها الافلاطونية الجديدة هو خلط الافكار الشركية بالتعابير الدينية. فاليونانيون القدماء قالوا بالصادر الاول والصادر الثاني ؛ كذلك قال هؤلاء بان الله ولد الصدر الاول وهو روح القدس، وهذا ولد الصدر الثاني وهو عيسى بن مريم، وهكذا جاءت نظرية الولادة او ما تسمى بنظرية الفيض أو نظرية الصدور.

وهنا يبرز تساؤل مهم وهو أن هناك ثمة توافق زمني بين نشوء الافلاطونية الجديدة بالنسبة الى ولادة المسيح، وبين غزو الافكار الاغريقية لمناهج بعض فلاسفة المسلمين. فالافلاطونية الجديدة التي مزجت الديانة المسيحية بالفلسفة الاغريقية، انبثقت ابان القرن الثاني والثالث للميلاد بينما نرى انه في القرن الثاني والثالث الهجري كان نشوء هذا الغزو في أوساط المسلمين. فنشأت افكار الصدور والحلول حيث نجد آثار هذا الغزو والتأثر في رسائل اخوان الصفا، التي تشكل أفكار مجموعة من الفرقة الاسماعيلية الباطنية التي عمدت الى عرض الافلاطونية الجديدة بتعبيرات اسلامية فقالت بأن الصادر الاول هو الولي وبحلول

روح الله في أئمة الاسماعيلية. فالفاصلة الزمنية بين مبعث الرسالة المحمدية وبين هذه الافكار الدخيلة هي نفسها التي بين بعثة عيسى بن مريم والافلاطونية الجديدة. والتساؤل المهم هو :

لماذا هذا التوافق الزمني؟ إن المهم هنا هو فهم هذه المقارنة قبل الدخول في متاهات الفلسفة ومصطلحاتها المعقدة وافكارها المتشابهة.

اننا بالرجوع الى انفسنا، سنجد اننا انما نؤمن بفطرتنا وان جماهير الناس يؤمنون بفطرتهم؛ والانبياء انما جاؤوا بالاسلوب الفطري، وبعثوا في الناس روح الفطرة واعادوهم الى وجدانهم وفطرتهم "ليستأدوهم ميثاق فطرتهم ويثيروا فيهم دفائن العقول" تلك العقول التي غطاها ركام من الخرافات والاساطير والانحرافات الفكرية التي جاء بها الفلاسفة. فإذا جاز ان نشبه العقول بالكنوز التي تختفي تحت الارض، ويأتي من يعرف باماكن وجودها فيثير الارض ليستخرجها ؛ جاز لنا ايضا ان نقول ان الانبياء جاؤوا ليزيلوا تلك الاساطير والخرافات التي غطت العقول وغشيت والابصار.

ان الفلاسفة الذين حاولوا صهر الحكمة الالهية والافكار الشركية الوضعية في بودقة واحدة ليستخرجوا منها سبائك معينة وضمن قوالب ضيقة تتمشى ومآربهم هم الذين قاوموا رسالات الانبياء ووقفوا في صف المتسلطين على رقاب الناس؛ فحينما بعث عيسى بن مريم عليه السلام وخاطب الناس بفطرتهم ؛ وقال اني رسول الله اليكم، اخبركم بما تدخرون في بيوتكم، وأحيي الموتى باذن ربي، وان الله يشفي الامراض العضال على يدي، واني ابرئ الاكمه والابرص باذن الله، وان هذه معجزاتي التي جئت بها، وهذه اخلاقي وهذه رسالتي.. صار الناس

يؤمنون برسالته شيئا فشيئا حتى القرن الثالث من الميلاد وحينما رأى الفلاسفة ان الناس بايمانهم بالمسيح ابتعدوا عنهم وانعتقوا من تسلطهم. حينها عمل بعض الفلاسفة على خط يستقطب الزخم الجماهيري من جهة ويحافظ على جوهر افكارهم الفلسفية من جهة أخرى، فعمدوا الى خلط الافكار الاغريقية الجاهلية الوثنية بتعاليم المسيح فقالوا بالاقانيم الثلاث؛ وقالوا نحن نؤمن بالمسيح، ولكن المسيح ليس بشرا مثلنا، وانما هو إله. ونؤمن بمريم، ولكن مريم ليست كأي انسانة أخرى، وانما هي روح القدس. فعيسى ابن الله، والواسطة هي روح القدس، وبالتالي افرغوا الديانة المسيحية من روح التوحيد.

ثم يعيد التأريخ نفسه في الامة الاسلامية التي آمنت بالرسالة المحمدية، حيث راح الناس يقرؤون القرآن ويفسرونه وفق الروايات وبما يفهمونه من اللغة العربية بتفاسير بسيطة تلتئم مع بساطتهم وفطرتهم. غير أن من تسلط باسم الدين واغتصب الخلافة الشرعية من أهلها، عمدوا الى تشجيع الافكار الفلسفية التي أبعدت الناس عن رسالة الدين في رفض الخنوع والخضوع لاي سلطة غير سلطة الحق والعدل، فكانت الافكار التي أبعدت الناس عن مواجهة المتسلطين.

الثقافة اذن لابد ان تدرس من جذورها، ولابد من تقصي تلك الجذور ومعرفة منابعها واهدافها ؛ سيما ونحن نجد اليوم – ومع الاسف الشديد – ان تيارات من الثقافة الهيلينية قد تسربت الى كثير من الكتابات، بل وحتى بعض الكتب الدينية عبر هؤلاء الفلاسفة، ولكن علينا أن نعرف أن لاعلاقة بين القرآن الكريم وبين هذه الثقافات. إذ لا علاقة بين القرآن والجاهلية، لان القرآن نور الله ؛ لانه كتاب الله، وهذه الثقافات ليست إلاّ مجموعة من خرافات بني البشر ومن وحي الشيطان.

## شيخ الاشراق والثقافات الدخيلة :

البحث في جذور التفكرات الدخيلة في الاسلام يستوعب مجلدات عدة، لكن التركيز على دراسة شخصية روادها الاوائل كالحسن البصري وواصل بن عطاء اللذين استوفينا جانباً من شخصيتهما فيما سبق، يعطينا تصوراً واضحاً عن الارضية التي قامت عليها الافكار الفلسفية في أوساط المسلمين. وهنا نبحث عن مؤسس فكرة الاشراق بين المسلمين ؛ وبالذات في البلاد الشرقية كايران والعراق وسوريا وتركيا وهو شهاب الدين السهروردي، شيخ الاشراق الذي تأثرت به الفرق الصوفية كما تأثر به الفلاسفة الاشراقيون مثل ملا صدرا الشيرازي. (١)

لقد طاف السهروردي البلدان، حيث عاش فترة في زنجان ثم ذهب الى اصفهان ودرس فلسفة ابن سينا، ومن هناك ذهب الى آذربايجان ثم الى حلب حيث القى رحله هناك متقرباً الى حاكمها الملك الظاهر ابن صلاح الدين الايوبي، إلا أنه جوبه بمعارضة من قبل الفقهاء الذين كانوا يحذرون من عودة الحركات الباطنية، فكان نتيجة لتلك المعارضة ان كفّروه للاتهامات التي وجهت اليه من قبيل انه يكفر بختم النبوات بالنبي وبإمكانية ان يبعث الله تعالى نبياً جديداً بعد خاتم النبيين صلى الله عليه وآله. ونحن لا نستبعد ذلك من خلال افكاره، وان كان بعض المؤرخين ينفون عنه هذه التهمة. وبالتالي كانت النتيجه ان قتل السهروردي بامر الملك الظاهر، ومن هنا اطلق عليه لفظ المقتول، واطلق تلاميذه عليه كلمة الشهيد. غير ان شيخ الاشراق هذا الذي قتل في الثلاثينات من عمره كان له الاثر السلبي البالغ في الثقافة الاسلامية، لذلك يجدر بنا ان نقف قليلاً عند افكاره.

---

(١) راجع كتاب رسائل فلسفي ص٥٩.

كان السهروردي متأثرا بثلاث شخصيات هم افلاطون وزرادشت وهرمس الذي يكاد يكون مجهولا لدى الكثير بل لدى المؤرخين ايضا، حيث يقولون ان هرمس هذا كان حكيما كبيرا في التاريخ، بل وبعض المسلمين يدّعون ان هرمس هو النبي ادريس. غير ان هذا الادعاء بعيد عن الحقيقة كل البعد، لان افكار هرمس بعيدة عن افكار النبي ادريس، وهي بالتالي بعيده عن افكار القران الكريم التي هي بدورها تعبير عن افكار كل رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام. وهذا يشبه ادعاء البعض نبوّة افلاطون الذي هو بدوره خطأ كبير، لان افكار افلاطون بعيدة عن الافكار التي جاء بها القرآن الكريم.(١)

وربما تتجلى لنا الافكار التي تأثر بها شيخ الاشراق من خلال بعض عبارات كتاب له حيث يقول: "كانت في ايران القديمة امة تدار من قبل الله، وحكماؤهم الشامخون كانوا يختلفون كليا مع المجوس، واني سجلت الاصول السامية لعقائدهم التي هي أصالة النور، وقد كملتها تجربة أفلاطون الى مرحلة الشهود، وذلك في كتابي المسمى بحكمة الاشراق، ولم يسبقني الى هذا العمل أحد".

فالذي يبدو واضحاً من هذا القول ان هذا الرجل قد تجاوز رسالة الاسلام وارتبط بالفرس القدماء، وهذه الحقيقة يؤكدها الفيلسوف المعروف الملا صدرا الشيرازي حيث يقول: "الرجل - يعني شيخ الاشراق السهروردي - كان متأثراً

---

(١) يبدو أن هرمس شخصيته اسطورية. وإن أصل هذا الاسم عند اليونانيين هو اسم عطارد، وعند المصريين اسم لآله القمر. واليونانيون لما دخلوا مصر وضعوا كتباً كثيرة باسم هرمس فانتقلت الى العربية وأنهم زعموا أن الهرامسة ثلاثة وزعم الشهرستاني أن الهرمس الأكبر هو النبي ادريس. راجع الفلسفة الأخلاقية الافلاطونية ص٩٥-٩٧.

بفلسفة النور عند المحوس".

هذا من جانب، ومن جانب آخر فان هذا الرجل كان منهزماً نفسيا امام الثقافات الاغريقية. فمن خلال تعبيراته نستطيع ان نقف على حقيقة وطبيعة هذا الجانب من شخصية السهروردي الذي يقول: "شاهدت ارسطو وقد ترآى لي شبحاً فسألته ما رأيك في أفلاطون ؟ ويجيبه – شبح ارسطو الذي مات قبل سهروردي بقرون متطاولة – بأن افلاطون هو اكبر فيلسوف واعظم عارف، وبأنه مؤسس الثقافة الانسانية". ويسرد سهروردي عن لسان شبح ارسطو فضائل لا تحصى عن أفلاطون.

ثم ان شيخ الاشراق يسأل أرسطو عن مدى فهم الفلاسفة المسلمين لافلاطون، فيجيب شبح أرسطو – على لسان السهروردي طبعا – ان مدى فهم الفلاسفة المسلمين لافلاطون كنسبة الواحد الى الألف. وهذا النقل المستوحى من شيخ الاشراق، يظهر مدى ذوبان الرجل في الافلاطونية، فيحاول ان يظهر ان افلاطون هو القمة الشامخة في واقع الفلسفة، وانه ليس لدى الفلاسفة المسلمين شيء. فهو ينقل ايحاءً ورؤيا عن ارسطو لتبريرما ينهب اليه، وما حكاه عن أفلاطون ليس وحياً منزلاً عبر شبح أرسطو، بل هو في الواقع تعبير عما يدور في خلد السهروردي. لأنه كان متصاغراً أمام أفلاطون، حتى قيل : ان السهروردي من أكثر فلاسفة المسلمين الذين صرفوا أوقاتهم في تفسير كلمات أفلاطون.

هكذا نعرف مدى تأثرسهروردي بالافكار الاغريقية، تلك الافكار التي لم ينج منها الكثير من الفلاسفة المسلمين. فالفارابي مثلا كان متأثرا وبصورة عميقة بالفلسفة الهيلينية وبالتالي بأفلاطون، فحيث رأى الفوارق الكبيرة والاختلاف

العظيم بين افكار كل من افلاطون وأرسطو، وحيث وجد ان افلاطون يقول بالاشراق وانه يقول بعالم المثل ويقول بالفيض بينما يخالفه ارسطو في كل هذه المقولات وفي غيرها ايضا؛ ولانه كان يقدس الفلاسفة الأغريق جميعاً لم يكن فارابي يتصور وجود مثل هذا الاختلاف في مقولات حكيمين شامخين عظيمين (افلاطون وارسطو) ومن هنا فقد اخذ على عاتقه التوفيق بين أقوالهما وذلك بجمع افكارهما وهكذا ألّف كتاباً يفسر فيه كلمات افلاطون بما يناسب افكار أرسطو، ويفسر كلمات ارسطو بما يناسب أفكار أفلاطون. وسماه "الجمع بين رأيي الحكيمين الالهيين أرسطو وأفلاطون".

لعل هذا غريب، ولكن الاغرب منه انه سماهما بالالهيين، وأرسطو كما هو معروف ليس حكيما إلهيا. ولعل الفارابي انما جنح الى هذه التسمية لاعتماده على كتاب موسوم بكتاب " الالهيات "، لاحد الكتاب في القرن الثالث للميلاد – وليس قبل اربعة آلاف عام – وقع هذا الكتاب في ايدي بعض العرب الذين لم يكونوا يعرفون مؤلفه فنسبوه الى أرسطو، وكان ان اعتمده الفارابي، وكان منه ماكان من الجمع بين النقيضين.

وليس الفارابي وحده الذي انتهج هذا الخط، بل السهروردي عمل به أيضاً. فتلك الخلسة السهروردية –التي رأى عبرها شبح ارسطو!– ليست إلاّ تعبيراً عن هذا المنطق. ولعل البعض يقول –كما يلحظ ذلك من كتاب "اصول الفلسفة الاشراقية " لمؤلفه علي ابو ريان – ان المصدر الاساسي الذي اخذت عنه الاشراقية هو نفس المذهب الذي تاثر به ابن سينا والفارابي من قبل – واعني الافلاطونية الجديدة –وكذلك عن كتابي " اثلوجيا" و" الالهيات" المنسوبين خطأ

الى فلوطين تلميذ أمونيوس مؤسس الافلاطونية الجديدة. (١)

اننا حين نجد أحد المؤلفين المعاصرين يكتب كتاباً عن السهروردي ويسميه الفيلسوف الشهيد ويفصل القول عن شخصيته، فإننا نقف متسائلين حينما نعرف وباعتراف السهروردي نفسه بأنه انما كان يستقي أفكاره من هرمس وزرادشت وافلاطون، نتسائل: كيف يمكن أن يكون هذا شهيداً من أجل الاسلام. بينما شهداء الاسلام الذين سقيت بدمائهم شجرة الاسلام أمثال زيد، ويحيى بن زيد، ومحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم أولاد عبد الله بن الحسن، والحسين شهيد فخ وغيرهم لانجد من يكتب عنهم، فضلاً عمّا يُغمز به هؤلاء الشهداء ويؤخذ عليهم اجتهادهم في سبيل إقامة الحق وطلب الرضا لآل محمد صلى الله عليه وآله.

---

(١) يقرر الدكتور محمد علي أبو ريان وهو أفضل من كتب عن المدرسة الاشراقية وعن شخص سهروردي أن جانباً مشرقاً عميق الجذور في الفكر الاسلامي هو الفرع الأفلاطوني الذي يمثله الفيلسوف الاشراقي شهاب الدين السهروردي المقتول ومدرسته.

ويتأثر السهروردي بالصابئة فيوجه دعوات الى النحوم والكواكب ويحيي هؤلاء الحيارى الذين أسكرهم عشق عالم النور وجلال نور الأنوار والذين يحاكمون في مواجيدهم (السبع الشداد) ويقصد بذلك الكواكب السبع. ويعتبر سهروردي إفلاطون إمام الحكمة ويقول: رئيسنا إفلاطون صاحب الأيد والنور ويعتبر رواد الحكمة هم أغاثا، ذيمون، وهرمس، وأنباد قليس، وفيثاغورس، وسقراط، إفلاطون، كذلك يرجع السهروردي أن منابع الحكمة الشرقية وضعت في أيام حكماء الفرس من الخسروانيين حيث يقول: وكان في الفرس أمة بهدون بالحق وبه يعدلون حكماء فضلاء غير شبهة المجوس قد أحيينا حكمتهم النورية الشريفة التي يشهد بها ذوق إفلاطون. نرى أن السهروردي هو أول من تأثر بأفلاطون ثم يستمر هذا الأثر عند الاشراقيين مثل ملا صدرا الدين الشيرازي (المتوفى/ ١٠٥٠هـ) راجع كتاب الفلسفة الأخلاقية عند إفلاطون ص٣٤٠ وكتاب أصول الفلسفة الأشراقية ص٧٦.

# سمات الفلسفة البشرية

بسبب خطأ الانسان في فهم الخلق وفي معرفة كيفية الخلق ؛ وبسبب دخول بعض النظريات الفلسفية القديمة في الثقافة البشرية، فان الكثير من الناس ذهبوا مذاهب باطلة بعيدة عن الحقيقة. ولكي نتبين صبغة هذه المذاهب، لابد لنا ان نبين سمات الفلسفة البشرية:

## الجمود في فهم الحياة:

تعتقد الفلسفة البشرية أن الحياة جامدة وليست متحركة. وذلك لأن الفلسفة حين لم تكن تؤمن بقدرة الله سبحانه وتعالى اللامتناهية، فانها تعتقد بأن قلم التقدير قد جف ولايستطيع ان يغيّر شيئاً. وهذه النظرة الواهية مخالفة لوجدان الانسان ؛ ولما يصلح الانسان ؛ بل هي نظرة رجعية متخلفة، لان الانسان إذا اعتقد بأن ترتيب الطبيعة وتقديرها قد انتهى، فذلك يعني عدم استطاعته التأثير فيها بأي شيء والاستسلام لمقاديرها. وهذا يعني القدرية، وبتعبير آخر يعني ان على الانسان ان يخضع ويستسلم للحوادث التي تترى عليه شاء ام أبى، وليس له

ان يغير شيئاً فيما يجري عليه.

سمة الجمود هذه هي تفكر يهودي محض ؛ فاليهود يقولون إن الله قد فرغ من الأمر، ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ (المائدة/٦٤) وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وآله يهود هذه الامة، وحين سئل الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله عن يهود هذه الامة قال : القدرية، اي القائلون بأن كل ما جرى ويجري قد قدره الله ولا تغيير فيه. وقد حاول بعض الفلاسفة التحرر من هذه القدرية ولكنهم لم يستطيعوا، وذلك لان القدرية تشكل عمق الفلسفة وجذرها الرئيسي؛ بل إن جوهر الفلسفة جوهر قدري، لانها تدّعي ان الله سبحانه وتعالى على قدرته وعظمته وجلاله وكبريائه اللامتناهي – سبحانه عما يصفون – عاجز عن تغيير الكون، فكيف بالعبد إذن ؟

وعلى سبيل المقابلة لا المقارنة، ولكي نبين عمق مأساة البشرية حينما تترك تعاليم الله سبحانه وتعالى، وتتجه نحو الافكار المتهرئة ؛ لابد لنا ان نشير الى بعض المعالم التقدمية التي جاء بها الاسلام العظيم في مقابل الافكار المتخلفة التي جاءت بها الفلسفة البشرية.

لقد أكد الاسلام على ان الانسان حرّ في تصرّفه، وإن كل مايجري على الانسان من خير او شر فانما هو بما كسبت يداه؛ بمعنى ان الانسان حيث تكسب يداه خيرا فان حياته سوف تكون خيرا، وإن كسبت شرا فشر، وان الناس سيجزون باعمالهم إن خيرا فخير وان شرا فشر. اذ إن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وربنا سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد/١١).

ومن الافكار التي جاء بها الاسلام والتي تبعث روح الاصلاح في الانسان، وتحركه نحو الافضل ؛ وتفتح أمامه أبواب الامل للتخلّص من كل الشرور، والتحرر من القيود ؛ وتنمي فيه روح الثورة على الواقع المتهرئ ؛ الفكرة التي تقول : حتى لو كسبت يداك شرا، وحتى لو تراكمت الذنوب على كاهلك او قيدت يديك الاغلال فلا تيأس من رحمة الله وقدرته بالتوجه إليه سبحانه وتعالى، فهو الذي قال في محكم كتابه الكريم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر/٦٠)

فالاسلام يعطي الانسان كامل الحرية، بينما نجد الفلسفة الاغريقية تسلب عن الانسان الحرية. والاسلام يقول بأن الشرور والسلبيات والسيئات التي تترى على الانسان بامكانه التحرر والتخلص منها بالتوجه إلى ربه سبحانه وتعالى وبالدعاء إليه جل شأنه، في حين تعمل الافكار الاغريقية الجامدة على تثبيط عزيمة الانسان وسلب همته، فتنتفي قدرة الانسان والملائكة وحتى الله جل وعلا على تغيير الامور لأنه قد فرغ من الأمر.

من هنا نجد ان هذه الافكار التثبيطية الاستسلامية كانت ولا تزال موضع قبول وتشجيع الحكومات الطاغوتية، التي تجد فيها تبريراً لتسلطها وطغيانها. فالفلسفة الاغريقية ؛ وأفلاطون وأرسطو بالذات حينما يقولون بأن الله خلق بعض الناس كي يكونوا سادة، وخلق البعض الآخر ليكونوا عبيدا، فلا ريب ان هذا الاعتقاد سيجد القبول من لدن ذوي النزعات التسلطية. لكن الذي ينبغي ان يحاكي فطرة الانسان ويخاطب وجدانه بعد ان يستقرئ ماتطرحه هذه الفلسفة التي تنتج مثل هذه الافكار، ويضع المقاييس لمعرفة مدى تقدميّتها وكم هو نصيبها من الصحة

والسلامة ؛ الذي ينبغي ان يحاكي وجدانه هو الوقوف على ان هذه الفلسفة خاطئة في جوهرها، عليلة من جذورها وإن عزّزت واسندت بملايين الادلة والحجج والبراهين؛ حيث إن وجدان الانسان وفطرته أقوى دليلا واوضح منهجاً.

## انسان بلا مسؤولية :

اما السمة الثانية للفلسفة البشرية ؛ تجاوزها مسألة المسؤولية، فهي تعتبر الانسان غير مسؤول عن افعاله وأعماله، وذلك لان الله هو الذي قدّر الامور فهو سبحانه المسؤول عن تصرفات الانسان . والله جل جلاله يقول في كتابه المجيد ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ (الاحزاب/٧٢). وذلك يعني ان الانسان حمل امانة عظيمة؛ أمانة المسؤولية؛ امانة الحرية؛ امانة الاختيار، لكن الفلسفة تدّعي العكس فترفع عن كاهل الانسان المسؤولية، مادام إن الله قدر الامور وأكملها، وأن اصحاب الجنة في الجنة وأصحاب النار في النار. فهذا ابن ملجم واحد من أصحاب النظرية القدرية؛ حين ضرب الامام علي عليه السلام بالسيف، يسأله الامام فيقول: أبئس الامام كنت لك، حتى جازيتني بهذا الجزاء ؟ (فيجيب ابن ملجم): ياأمير المؤمنين، افأنت تنقذ من في النار. (١) يعني ان الله قدر ان أكون من أصحاب النار.

ولعلنا نتساءل عن النتيجة التي يؤدي إليها هذا الاعتقاد. فنحن لا نرى فيه غير انحلال المجتمع الانساني وتفكك روابطه من جهة، ومن جهة أخرى اضمحلال وانهيار روابط الانسان بخالقه باعتبار عدم مسؤوليته عن أعماله وتصرفاته اتجاه ربه واتجاه الآخرين من بني الانسان.

---

(١) بحار الانوار / ج٤٢ / ص ٢٨٧ / رواية ٥٨.

## العالم.. وتيرة ثابتة :

والسمة الثالثة للفلسفة البشرية هي الاعتقاد الخاطئ بأن ما يجري في هذا العالم انما هو على نسق واحد ثابت لا تغيير فيه. فهي والحال هذه تلجأ الى انكار المعاجز، وتحاول تبريرها بتبريرات مادية محضة، باعتبار ان هناك قوانين طبيعية هي التي تسيّر هذا الكون، وان الله جلّت وعظمت قدرته لا يستطيع ان يخرق هذه القوانين ؛ فكيف يبعث الانبياء ؟ وكيف يقول للنار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ؟ وكيف يحوّل عصى موسى الى ثعبان عظيم ؟ وكيف يشق البحر لبني اسرائيل ؟ وكيف يحيي الموتى على يد عيسى بن مريم ؟ وكيف ينشق القمر على يد نبينا محمد صلى الله عليه وآله ؟ وكيف وكيف.. الى مالا نهاية له من التساؤلات التي تكشف عن انكار فلسفة الوحي وعدم الايمان به، لانها تعتقد ان الوحي خرق للقوانين المادية الطبيعية التي تعتمدها الفلسفة. فهي بالتالي تلجأ الى حصر إمكانيات الفرد ضمن تلك الاطر المادية، وعليه فالانسان - وفق التصورات المادية - يمكنه مثلا ان يصبح نبيا بتنمية عقله كأن يدرس فيصير عملاقا وداهية، اما أن ينزل جبرائيل عليه السلام على أحد من البشر وان ترتبط الارض بربها عبر ملَك مقدس فهي فكرة مرفوضة من وجهة النظر الفلسفية. وهذا بحد ذاته هو الجمود الذي يقود الفلسفة إلى انكار المعاد ؛ إذ لا رجعة في اعتقاد الفلسفة ولا تغيير، وبالتالي لاجنة ولا نار.

نعم يلجأ بعض من الفلاسفة الى اللف والدوران في طرح تصوراته عن المعاد؛ وعن الجنة والنار، وتلك هي التصورات التي تكشف عن النزعات الذاتية، فيصوّر المعاد الحقيقي والجنة والنار على أنها ترتبط بمعرفة أو عدم معرفة الولي. فمعرفة

الولي في نظر هذا البعض هي الجنة، والجهل بالولي هو النار. وليست الجنة أنهار وأشجار وفواكه وحور عين وقصور.. الى آخر ما يصفها القرآن الكريم، بل هي في اعتقاده ان تعرف شخصاً بذاته فتلك هي الجنة وان تنكر ذلك الشخص فتلك هي النار.

ويذهب اكثر الفلاسفة الى انكار المعاد بتأويلات بعيدة، فهم يزعمون ان المعاد هو ان تلتحق روح الانسان بعد موته بالله فتلك هي الجنة او تلتحق بالشيطان فتلك هي النار، اما ان تعاد الاجسام من جديد فذاك في اعتقادهم من المستحيلات، فهم بذلك ينكرون ان الذي يحييها هو الذي أنشأها اول مرة، وهم يتساءلون : ﴿ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ (الاسراء/٤٩)

نعم هذا هو القرآن الكريم يضع الاجابة لكل التساؤلات، ويتصدى لكل الانحرافات الفكرية. فالاسلام منذ البدء يقول إن الله على كل شيء قدير، ونحن إذ نعتقد بالقدرة الالهية الابدية ؛ القدرة المطلقة المتكاملة ؛ القدرة اللامتناهية اللامحدودة ؛ نكون قد وضعنا لكل سؤال جواباً. فحين تتجلى عظمة القرآن الكريم تتضح تفاهة الافكار الفلسفية الانحرافية ؛ إذ الامور انما تعرف بأضدادها، والقرآن المجيد حين ينسب كل شيء الى الله سبحانه وتعالى وبأنه قادر على كل شيء قدير، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، يحيي الموتى، يحيي العظام وهي رميم، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، يرزق من يشاء بغير حساب.. إنما يبطل ادعاءات من ينكر المعاجز الالهية وينسب كل ذلك الى القوانين الطبيعية، ويدحض التصورات المادية الواهية المحضة التي تخرج

كل ذلك عن إرادة الله جلت قدرته.

نعم نحن حين نعتقد ان الله تعالى على كل شيء قدير، إنما نؤمن أيضا بأنه جل وعلا قد جعل إرادته وراء مشيئتنا الحرة. فان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، إذ هو سبحانه وتعالى القائل " ادعوني استجب لكم " فسبحان الله عما يفترون.

## منزلة الانسان :

أما السمة الرابعة للفلسفة البشرية ؛ فهي إنها تحوّل الانسان الى مجرد حيوان ناطق مجرداً عن القدرة ؛ موجود يكتنفه الجمود ليس له أية إرادة او اختيار، بل ليس له من صفات الانسانية إلاّ النطق الذي يتميز به عن الحيوان. في حين نجد الاسلام يرفع الانسان الى مصاف الملائكة، بل وأرفع من ذلك حين يأمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود لآدم، وحين يكرّم الله عز وجل الانسان بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾ (الاسراء/٧٠)، ومن هنا يتضح لنا مدى تأثير الاسلام في تربية الانسان، وتنمية مواهبه، وتفجير طاقاته. فهو حينما يحترم حرية الانسان ويطلق له الارادة والاختيار، يخرجه عن الجمود، ويجعله قادراً على تغيير حياته، بل ويعطيه ملكوت السماوات والارض، شريطة أن يكون الانسان مؤمناً بالله، صادقاً في إيمانه.

هذه جملة من السمات التي إتسمت بها الفلسفة البشرية، والتي تأثر بها الفلاسفة؛ اعترفوا هم بذلك ام لم يعترفوا.

## جوهر الفلسفة الاسلامية :

ولاريب ان القرآن الكريم تصدى لهذه الافكار الفلسفية الخاطئة، ووضع جوهر

الفكر الاسلامي وهو الايمان بالبداء.. الذي يعني الايمان بقدرة الله المطلقة في مقابلة تلك التصورات والانحرافات الفكرية. ومن هنا جاء الحديث عن الامام أبي عبد الله عليه السلام: "ما عظم الله عزوجل بمثل البداء". (١)، والحديث " ما عبد الله بمثل البداء"(٢)، وربما يذهب البعض الى الاعتقاد بان البداء مذهب أهل البيت عليهم السلام، ومن هنا جاء قولهم بان الذي يؤمن بالبداء انما هوعلى مذهب باطل.

ولعل مرورا على بعض احتجاجات الامام الرضا عليه السلام يكشف لنا عن بصائر الاسلام في مواجهة التصورات البشرية الدخيلة على الفكر الاسلامي، إذ من المعروف ان الفلسفة الهندية المانوية والفارسية الزردوشتية والفلسفة الاغريقية (الافلاطونية الجديدة) كلها كانت قد ترجمت الى العربية ايام المأمون العباسي الذي كان يجمع المفكرين وكبار الفلاسفة لمحاورة الامام الرضا عليه السلام. تلك الاحتجاجات التي تعتبر إجابات دقيقة عن تلك الافكار الخرافية التي دخلت بين المسلمين، ومن جملتها احتجاجان ننقلهما هنا: الاول كان مع عمران الصابيء، والآخر مع سليمان المروزي.

كان عمران الصابيء من الصابئة الذين يعبدون النجوم ولهم فلسفتهم الخاصة، سأل الامام الرضا عليه السلام ضمن أسئلة عديدة في إجتماع مطوّل: يا سيدي ألا تخبرني عن الخالق إذا كان واحدا لاشيء غيره ولا شيء معه أليس قد تغير بخلقه الخلق؟

---

(١) بحار الانوار / ج٤ / ص ١٠٧ / رواية ٢٠.

(٢) المصدر / ص١٣٢ / رواية ٧٠.

قال له الامام عليه السلام: قديم لم يتغير عز وجل بخلقه الخلق ولكن الخلق يتغير بتغييره.

قال عمران : فبأي شيء عرفناه ؟ قال الامام عليه السلام : بغيره.

قال : فأي شيء غيره ؟

قال الرضا عليه السلام : مشيئته واسمه وصفته وما أشبه ذلك، وكل ذلك محدث مخلوق مدبر.

قال عمران : ياسيدي فأي شيء هو ؟

قال الرضا عليه السلام : هو نور. بمعنى أنه هاد لخلقه من أهل السماء وأهل الارض، وليس لك عليّ أكثر من توحيدي إياه.

قال عمران : يا سيدي اليس قد كان ساكتا قبل الخلق لا ينطق ثم نطق ؟

قال الرضا عليه السلام : لا يكون السكوت إلا عن نطق قبله، والمثل في ذلك أنه لايقال للسراج هو ساكت لاينطق، ولا يقال : أن السراج ليضيء فيما يريد ان يفعل بنا، لان الضوء من السراج ليس بفعل منه ولا كون، وانما هو ليس شيئا غيره فلما استضاء لنا قلنا : قد أضاء لنا حتى استضئنا به، فبهذا تستبصر أمرك.(١) يوضح الامام عليه السلام ان الله سبحانه وتعالى كان ناطقا منذ الازل وان قدرته على النطق ذاتية.

اما سليمان المروزي فالذي يبدو انه كان من المتأثرين بالفلسفة اليونانية، تراه حين يناقش الامام الرضا عليه السلام في مسألة البداء يبدو متزلزلا غير ذي رأي حيث يسأله الامام عليه السلام عن الارادة يقول : ياسليمان ألا تخبرني عن الارادة

---

(١) عيون أخبار الرضا(ع) /ج ١ /باب ١٢.

فعل هي ام غير فعل ؟ قال : بلى هي فعل.

قال عليه السلام : فهي محدثة، لأن الفعل كله محدث.

هنا بهت سليمان حيث وجد قوة الاحتجاج- وقال: ليست بفعل. فقال الامام عليه السلام: فمعه غيره لم يزل.(١) قال سليمان: الارادة هي الإنشاء.

قال عليه السلام: يا سليمان هذا الذي عبتموه على ضرار وأصحابه من قولهم : إن كل ما خلق الله عز وجل من سماء أو أرض او بحر او بر ؛ من كلب او خنزير او قرد أو انسان او دابة ارادة الله، وان ارادة الله تحيا وتموت وتذهب وتأكل وتشرب وتنكح وتلد وتظلم وتفعل الفواحش وتكفر وتشرك فيبرأ منها ويُعاد بها، وهذا حدها.(٢) وحين أحس سليمان بالخيبة والاضطراب راح يلف ويدور – فقال: أنها كالسمع والبصر والعلم.

قال الرضا عليه السلام : قد رجعت الى هذا ثانية، فأخبرني عن السمع والبصر والعلم أمصنوع ؟ قال سليمان : لا.

قال الامام الرضا عليه السلام : فكيف نفيتموه ؟ فمرة قلتم لم يرد، ومرة قلتم اراد وليست بمفعول له ؟ قال سليمان : انما ذلك كقولنا : مرة علم ومرة لم يعلم.

قال الرضا عليه السلام: ليس ذلك سواء لأن نفي المعلوم ليس بنفي العلم، ونفي المراد نفي الارادة ان تكون..(٣)

فالذي يبدو واضحاً من خلال هذه المحاجة ان سليمان كان يريد ان يقول بأن

---

(١) أي: هل كان معه شيء آخر، هو شيء والارادة شيء.

(٢) يتساءل الامام عليه السلام هنا: ماذا تعني ارادة الله؟ هل تعني كل هذا الذي ذُكر؟.

(٣) عيون أخبار الرضا(ع) / ج ١ / باب ١٣.

الارادة قديمة قدم الله سبحانه وتعالى، لكن الامام عليه السلام احتج عليه بأن الارادة لو كانت قديمة لكان الخلق قديما ايضا ؛ فكيف كان الله سبحانه ؟ أكان مريدا ام لم يكن؟ وحيث كانت اجابة سليمان بانه سبحانه وتعالى لم يكن مريداً ثم اصبح مريدا بعدئذ، قال له الامام عليه السلام: إذاً ذلك يعني ان تغيّرا حدث في ذات الله، وهذا محال. وهنا توقف سليمان. والحديث طويل، غير ان الذي ينبغي الاشارة إليه هنا ان البداء هو حجر الاساس في بصائر القرآن، فالايمان بالبداء إيماناً واقعياً، والاعتقاد بان الله عز وجل يمحو ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب هو جوهر الاعتقاد الذي كان الأئمة عليهم السلام يوجبون على شيعتهم الايمان به.

# الباب الثاني

# مصادر الحكمة

# العلم شعاع العقل

العلم في البصيرة القرآنية هو نور إلهي يقوم بدور الوسيط بين النفس البشرية وبين الموجودات ؛ إذ الموجودات ليست مضيئة ونورانية بذاتها، والانسان كأحد الموجودات ليس نورا بذاته ايضاً. فلو انه كان كذلك، لكان يعلم كل شيء وفي كل وقت، ولما غاب عنه شيء في اي وقت ؛ والاشياء لو كانت نورا بذاتها لكانت هي الأخرى معروفة للانسان في كل وقت، وانما هي مظلمة بذاتها والانسان جاهل بذاته، لولا نور الله جل وعلا الذي يقذفه في قلب من يشاء من عباده.

فنور العلم الذي يهبه الله سبحانه وتعالى للانسان متى شاء وبالقدر الذي يشاء، هو الذي يكشف للانسان الحقائق كشفا مباشرا شهوديا حضوريا. وبتعبير آخر يمكننا القول ان من خصائص العلم وميزاته أنه يكشف الاشياء بصورة مباشرة دونما واسطة ؛ إذ به يستطيع الانسان ان يكتشف الاشياء ويشاهدها، بل وتحضر لديه. من هنا يتبين لنا ان العلم ليس صورة للأشياء في ذهن الانسان كي يتساءل

هل ان هذه الصورة مطابقة لتلك الاشياء ام مخالفة لها ؟ نعم التصور موجود لدى الانسان، فهو يمكنه ان يتصور شيئا ما، او يتوهم او يتخيل شيئا ما، لكن هذا التصور والتوهم ليس هو العلم بذلك الشيء. فالانسان يمكنه مثلا ان يتخيل بحراً من الزئبق يمخر فيه قارب من فضة يقوده إنسان من ياقوت ؛ اوحتى يمكنه ان يرسم هذه الصورة على لوحة أو ينشدها شعرا او انشودة او مسرحية، ولكن هذا الظن ليس علماً بل هو الظن فحسب، والظن لا يغني عن الحق شيئاً.

وكما يمكن للانسان ان يتصور الاشياء، كذلك يمكنه ان يصدق بالاشياء، فالتصور بسيط، والتصديق إنما هو الحكم على أمرين فبأمكان الانسان ان يزعم انه إله مثلاً وانه الرب الاعلى كما زعم فرعون ونمرود، لكن هذا التصديق ليس هو العلم لانه ليس مطابقا للواقع الخارجي. العلم هو أن تكشف الحقائق والأشياء كشفاً ظاهراً وحاضراً. فحين يعرف الانسان ان الوقت الآن مثلا ليل ؛ فذاك ليس تصورا في ذهنه ولا هو تصديق عنده، وانما هو كشف وظهور وحضور للشيء عنده.

هذه النظرية وإن اعترف بها الكثير من الفلاسفة القدماء والجدد – كديكارت مثلاً من الفلاسفة الغربيين المتأخرين – إلاّ أنها قبل ذلك من البصائر الاسلامية التي ما استكملت وما تبلورت إلا بالقرآن الحكيم وأحاديث النبي واهل بيته عليهم الصلاة والسلام. فآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي الاكرم والأئمة من أهل بيته عليهم السلام هي التي ذكّرتنا بحقيقة ان العلم نور يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلب من يشاء من عباده، يقول تعالى: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. (العلق/٥) وانه جلت قدرته ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. (الرحمن/٣-٤) وانه تعالى

قال: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾. (الكهف/٦٥) وقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. (يوسف/٧٦) وانه يدعو عباده لطلب المزيد من العلم منه ﴿ وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ (طه/١١٤) وانه عز وجل هو الذي وهب العلم بالقدر الذي يشاء ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الاسراء/٨٥). فلو تدبّرنا لفظة ﴿أُوتِيتُم ﴾ في الآية الشريفة ووقفنا على معناها، نجد ان العلم ليس شيئاً من الانسان، بل هو مضاف إليه، موهوب له من قبل الله تعالى. ففي اللغة (أتاه، آتاه، يؤتيه وأوتي الشيء اي اعطي له) وهذا يعني ان الله سبحانه هو الذي أعطى العلم، لكن حكمته شاءت ان يعطى الانسان قليلا من العلم، وشاءت ايضاً ان يسلب من الانسان تلك العطية متى أراد الله العزيز العليم.

وهنا يبرز سؤال يقول ؛ هل يستطيع الانسان ان يزعم بعد هذا انه بمرور الزمن يزداد علماً فيصبح اعلم فاعلم ؟ لعل ذلك تصور خاطيء ايضاً؛ اذ الانسان يفقد علمه حين ينام وحين ينسى وحين يغضب، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَن نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾. (يس/٦٨ ) فارادة الله سبحانه ان يجري قدرا يفقد الانسان علمه، وهذا هو امر وجداني يرتبط بفطرة الانسان ووجدانه ولاتستوعبه الاقوال والامثلة، بل موضع استيعابه هو العودة الى الفطرة الانسانية. فالانسان حينما يعلم شيئا كان يجهله من قبل، لابد له ان يسأل نفسه عن كيفية علمه به، وان يستنطق وجدانه عن ماهية هذا النور الذي كشف له عن المجهول.

### من خصائص العلم :

ألا يمكن ان يعلم العلم بالعلم ؟ سؤال ربما يتبادر الى ذهن البعض. وذلك لاننا اسلفنا ان العلم منزّه عن الاحاطة، لانه هو الذي يضيء وهو الذي يكشف، فهل

يمكن ان يكون الكاشف هو المكشوف عنه؟ أجل. يُعلم العلم بالعلم، وبتعبير آخر إن العلم يكشف نفسه.

قال ديكارت : ( انا افكر فانا موجود ). يعني انا اعلم فانا موجود، بل ومعناه انا اعلم بعلمي وجودي. وذلك شيء صحيح منه، اذ الانسان لو لم يكن لديه علم، لم يستطع ان يعلم وجوده. فهو لايستطيع ان يعلم وجوده حال النوم، كما لايستطيع ان يثق بوجوده حال النسيان والجهل والجنون، لكنه حين يفكر يثق بأنه موجود.

وبتعبير آخر: الانسان يعلم. ولانه يعلم فهو يثق بعلمه، فحيث تسأله : من قال انت موجود ؟ يجيبك انا اقول انا موجود. وحين تسأله: ومن أين تعلم ذلك؟ يجيبك : ما دمت أنا أفكر وأنا أعلم، فأنا موجود.

من هنا يتضح لنا ان العلم يكشف الاشياء ويكشف صحة تلك الاشياء، لان من خصائصه ان يجعل الانسان يثق به دون شك ولا ريب. ولذا فالانسان حينما يعلم، لايمكن ان يشكك نفسه بالعلم، والذي ينبغي ان يشار إليه أن الانسان إنما يزداد بعداً عن العلم حينما يحاول ان يعرّف العلم بالمفاهيم والالفاظ وان يصفه بالاوصاف، إذ العلم حين يكشف نفسه ليس ذلك بالتصورات والمفاهيم، بل يكشف نفسه بنفسه فحسب وليس بشيء آخر. وذلك مثله مثل من يحمل مصباحا في نهار مشمس ليلقي بضيائه على الشمس ليكشفها دون ان يدرك ان الشمس تكشف نفسها بنفسها.

ثم إن العلم يرى العلم، بل العلم يكشف العلم ولكن عبر آياته. فالانسان لا يتوقع ان ترى يدُه عينَه، ولا أذُنه او لسانُه يمكن أن يرى عينه، بل العين يمكنها ان

ترى العين ولكن عبر المرآة. فهو حين يقول لم أكن عالما فعلمت او يقول كنت جاهلا فأعطاني الله تعالى العلم شيئاً فشيئاً فتعلمت، إنما يصل الى العلم بالعلم. فالعلم اذاً يكشف نفسه ويتعمق في ذاته ويغور فيها فينكشف بذاته لذاته، وهذه الحقيقة من خصائص العلم، وكل تعريف غير هذا للعلم يعدنا اكثر فأكثر عن العلم نفسه.

## العلم من آيات الله :

ان العلم آية من آيات الله، واسم من أسمائه، وخلق من خلق الله مملوك لله سبحانه وتعالى، يعطيه متى شاء بقدر ما يشاء لمن يشاء. والانسان لا يمكنه معرفة العلم والاحاطة به، بل وحتى لا يمكنه توهم العلم او وصفه إلا ان يشاء الله سبحانه، فانه بطريقة أولى لايستطع ان يحيط علما بالله رب العلم وخالقه.

وقد يتساءل المرء: وهل يمكننا ان نعتقد بشيء لانراه ولا نحيط به علماً؟

لكننا في معرض الاجابة عن هذا التساؤل نقول: إن خصائص العلم هي التي تكشف عن ذات العلم، إذ الانسان حين يعتقد انه عاقل او عالم مثلا، إنما يعترف ويذعن بوجود العقل، والعلم من آياته ومن دلائله، فتراه يتساءل : إذا لم أكن عاقلاً فسوف أقوم بحركات غريبة ملفتة للأنتباه خارجة عن المعقول، وإن لم أكن عالما فكيف اهتدي ؟ وكيف أعرف طريقي ؟ وكيف وكيف؟

اذن فآيات العلم وخصائصه وصفاته تكشف فقط عن ذات العلم بينما تعجز عن أن تكشف كنهه، كذا آيات الله تعالى انما توضح وتكشف للانسان وجوده جل وعلا دون ان يعرف الانسان كنه خالقه او ان يحيط بذات الله الخبير العليم، بل الانسان بما لديه من العلم الموهوب عاجز عن الاحاطة بمخلوقات الله الملك

القدوس، فكيف له الاحاطة بذات الله عز وجل البعيد عن مدى تفكر الانسان، والخارج عن دائرة تفكره. فكل ما يتوهمه الانسان ليس بإله، لأن الله سبحانه وتعالى مقدس عن الاحاطة. ونحن لا نعلم الله وانما نعلم بالله، لان علمنا لا يحيط به لانه سبحانه سبوح قدوس منزه عن الاحاطة، ومنزه عن التوهم.

## العلاقة بين العقل والقرآن:

حين يكشف العلم ذاته ويكشف العقل ذاته ثم يتدبر ذو العلم وذو العقل في آيات القرآن الحكيم ويستقرئ ما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام يقف الانسان على حقيقة ان ذلك النور الذي وهبه الله للانسان هو نفسه موجود في القرآن وفي كلام النبي و الأئمة عليهم السلام، وهذا انما يعني في الواقع ان هناك تطابق بين نور العلم ونور العقل لدى الانسان من جهة وبين ماهو موجود في القرآن الحكيم وماهو موجود في كلام النبي والائمة عليهم السلام من جهة أخرى.

ولا ريب ان كل انسان لديه حجة في نفسه، وهذه الحجة الواقعية حين تطابق الحجة الخارجية تكون دليلا مقنعا للانسان، دافعا لشكوكه وارتيابه في أية مسألة كانت. ومن هنا يمكننا ان نقول ان تلك العلاقة الجذرية المباشرة بين عقل الانسان وبين القرآن إنما هي اكبر حجة واوضح دليل على ان القرآن الكريم من لدن حكيم عليم؛ من الله سبحانه وتعالى، لتطابق الحجة الواقعية المتمثلة بنور العلم الموهوب من الله سبحانه وتعالى مع الحجة الخارجية المتمثلة بالقرآن الحكيم.

إن هذه الحقيقة تكاد تتجلى لدى الكثيرين حينما يقرؤون القرآن فتراهم لايستطيعون الاستمرار في القراءة، بل وحتى يغشى على البعض منهم حين

يتحسس وحدة نور القرآن الحكيم ونور العلم والعقل الذي وهبه الله آياه. ذلك لأن نور القرآن حين يسطع في أعماقه تتفجر نفسه لعظمته، ويشع في ضميره وقلبه، فيتجلى الله تعالى بعظمته وكبريائه من خلال نور القرآن. ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾. (الحشر/٢١)

فالقرآن الحكيم يضرب الامثال ويأتي بما يذكّر الانسان وبما ينفتح به عقله، فيكتشف العقل نفسه وبالتالي يكتشف الانسان أنه يملك نورا في نفسه. ولعلنا نجد ذلك فيما يزيد على ثلاثمئة موقع في القرآن الكريم " أفلا تذكرون.. أفلا تبصرون.. لعلكم تعقلون.. وما يعقلها إلاّ العالمون..." هكذا يخاطب الخالق مخلوقه العاقل ليشع النور في ضميره فيزداد نورا وضياء، وبالتالي تتفتح له آفاق الحياة ويوقن الانسان حينها بتلك البصيرة التي وهبها الله تعالى له بأن هذا القرآن الحكيم من لدن حكيم عليم، فهو من الله سبحانه وتعالى. وهكذا يتحدث القرآن مع الانسان فيثير فيه ذلك العقل المدفون تحت ركام الشهوات والأهواء والغفلة وحب الدنيا والخلود الى الارض.. فيجعله نورا، ويغدو الانسان آنئذ صاحب عقل.. صاحب نور يشع من اعماق ضميره ومن دواخل نفسه وقلبه.

## العقل حجة:

عندما يُحكّم الانسان نور العقل في تصرفاته يجد نفسه –شاء ام أبى– مهتدياً سبيل الحق، مبتعدا عن الباطل، فهو حين يستمع لدعوىً مّا، فإما أن يؤمن بها إن وجدها موافقة لعقله الذي وهبه الله تعالى إياه، وإما ان يرفضها ويجانبها إن وجدها تخالف عقله. إذاً فالعقل يوجب على الانسان ان يستمع الى كل داع يدعو الى

الله لأنه حجة الانسان الواقعية، ونحن حينما نرجع الى كلمات الأئمة وأقوالهم وخطبهم وأحاديثهم، تتنور قلوبنا وتتفتح. فهذا نهج البلاغة يضم بين حناياه آفاق المعرفة بالله سبحانه وتعالى. يقول الامام علي في إحدى خطبه بعد أن يحمد الله: "....الذي ليس لصفته حدٌّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود ولا أجل ممدود. فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتّد بالصخور مَيَدان أرضه.."(١)، ونقرأ أيضاً: "لم يُولد سبحانه فيكون في العز مشارَكاً، ولم يَلِد فيكون موروثاً هالكاً. ولم يتقدّمه وقت ولا زمان، ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان، بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن، والقضاء المبرم". (٢)

إن كلمات امام المتقين، تكاد ترينا الله ببصيرة الايمان وتفتح لنا آفاق المعرفة وتوضح السبيل الى الايمان بالله سبحانه وتعالى، ونحن حينما يحدثنا التأريخ عن همّام وهو يستمع الى إمام المتقين يحدثه عن صفات المتقين، فيصيح صيحة تكون نفسه فيها ويقع ميتا ؛ نعلم كيف يتجلى الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن من خلال كلمات الامام علي عليه السلام.

وهذا السفر العظيم في العرفان الموسوم بـ" عيون أخبار الرضا " يوضح كثيراً من الحقائق وبعبارات بسيطة في أسلوبها تكاد تكون في متناول كل المستويات، عميقة في مفاهيمها ومحتواها، فيقف أمامها المتفكرون عاجزون عن ردها او الايراد عليها، وتلك من خصائص أهل البيت عليهم السلام لانهم الثقل الآخر الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "أني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة رقم ١.

(٢) المصدر / الخطبة رقم١٨٢.

أهل بيتي."

ومما لايخلو عن الفائدة فيما نحن فيه ان نذكّر بما سبقت الاشارة إليه من أن الفلسفة الاغريقية كانت منتشرة في البلاد الاسلامية إبان عصر الامام الرضا عليه السلام، وانه كانت تجتمع لديه الفلاسفة يباحثونه ويحاورونه، ومنهم الصابئي والديصاني اليهودي ويحضر لديه الحبر والمتزندق، ولعل ابن السكيت النحوي المعروف واحد من اولئك الفلاسفة الذين حاوروا الامام عليه السلام فيقول كما جاء في رواية: وإن الله تبارك وتعالى بعث محمداً في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام – وأظنه قال : والشعر – فأتاهم من كتاب الله عز وجل ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم وأثبت الحجة عليهم، فقال ابن السكّيت : تالله ما رأيت مثل اليوم قط، فما الحجة على الخلق اليوم ؟ فقال عليه السلام : العقل تعرف به الصادق على الله فتصدّقه، والكاذب على الله فتكذبه، فقال ابن السكّيت : هذا والله الجواب.(١) فالانسان إذا توجه الى عقله فسيأمره العقل بالخير وينهاه عن الشر ؛ يُحلُّ له الطيبات ويحرم عليه الخبائث. هنا يجد العقل ان نور القرآن يلور النور الموجود عنده، فيذعن الانسان حينئذ ان هذا العقل هو من الله سبحانه وان هذا القرآن ايضا منه جل وعلا.

اما ان يفقد الانسان نور العقل وينجرّ وراء الأوهام والعنت والغرور فلم يكن ليملك الحجة، وعندها يقف ساكتا صامتا لا يعي من أمره شيئا. فهذا ابن أبي العوجاء –لعنه الله – عاش زنديقا ومات زنديقا بين الناس ؛ رجل طبع على قلبه، يجئ فيحاور الامام الصادق عليه السلام، ثم يعجز عن الكلام فيسكت ويسخر

---

(١) بحار الأنوار / ج ١١ /ص ٧١.

منه أصحابه متهكمين بأنه الذي لم يسكته أحد فكيف به الآن امام حجة عظيمة. فيقول لأصحابه : ويحكم كدت ان ارى الله بيني وبينه، كما جاء ذلك في نص الرواية في موسوعة بحار الانوار / ج٣ / ص٤٣ / رواية ١٨. ولكن - وكما قلنا - انما طبع على قلبه وملئ حقدا، ففقد نور العقل وبالتالي فقد الحجة.

## عقال من الجهل :

لعل هناك من يتساءل عن نسبة العلم الى العقل، وما هو العقل وما هو العلم ؟

ان العقل هو النور الذي أعطاه الله تعالى للانسان، وليس العلم إلا شعاع من اشعة ذلك النور ؛ كما أن الايمان شعاع منه ، وكذا الارادة والقدرة. وعليه فليس العلم بعيداً عن العقل، إذ هما شيء واحد. فالنور الذي يقول للانسان ان الظلم قبيح هو العقل، بل ويمكن ان يقال هو العلم بقبح الظلم. كما ان الذي يقول للانسان بأن اجتماع النقيضين محال هو العقل، او يقال : العلم باستحالة اجتماع النقيضين. فالتعبير هنا وان اختلف لكن القصد واحد والفكرة واحدة والنور واحد، ان النور الذي يجنب الانسان الاخطار هو العقل، قال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله : " إن العقل عقال من الجهل". (١)

اما كيف يعلم العقل ؟ او بتعبير آخر كيف يعرف شخص ما بأنه عاقل ام لا ؟ وهل يتم ذلك باستخدام أشعة ليزر مثلا ام باستخدام الوسائل المختبرية من تحليل لدمه وتجزئته وما الى ذلك من العلوم الحديثة ؟

نحن نعتقد ان للعقل أمارات، فحين يكون الانسان صادقا يفي بوعوده يعمل الحسنات ويترك السيئات فهو عاقل، وإلا فغير عاقل. إذن فآيات العقل كاشفة عن

---

(١) بحار الأنوار / ج١ / ص ١١٧ / رواية ١١.

العقل كما ان آيات العلم هي الدليل إليه ولا دليل آخر غيرها، حيث لا يمكننا وصف العلم مجرداً عن آياته كذلك الامر بالنسبة الى العقل. والنبي الاكرم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ذكرونا بالعقل عبر آياته، وعبر دلائله، وأماراته و علاماته، ونحن إذا تعمقنا في آيات العقل، وفي آيات العلم، اكتشفنا العقل واكتشفنا العلم ؛ وإذا اكتشفنا العلم اكتشفنا أشياء كثيرة سنأتي على بيانها بعون الله تعالى.

## شرف العقل :

يتّضح لنا مما سبق ان الانسان لابد له ان يعود الى نفسه ليعرفها وليميّز الصحيح من الخطأ وان لا يتوقع ذلك من الآخرين، وحينها سيجد انه حصل على الجوهر؛ حصل على المصباح، إذ على من يطلب المزيد من الاستضاءة لابدّ له ان يزيد في زيت المصباح ليشع نوره ويعم أرجاء الغرفة بدلا من اللجوء الى تغيير زاوية الضوء او لون جدرانها، بل لابدّ له من ان يزيد نور عقله إذ ما من شيء اكتمل عند الانسان أشرف من العقل. وربما تكون قصة آدم على نبينا وعليه السلام دليلاً على شرف العقل، " إذ هبط عليه جبرئيل فقال : يآدم إني أمرت أن أخيرّك واحدة من ثلاث، فأختر واحدة ودع إثنين، فقال له آدم : وما الثلاث يا جبرئيل ؟ فقال : العقل والحياء والدين، قال آدم : فأني قد إخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين إنصرفا ودعاه فقالا له : يا جبرئيل إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيثما كان، قال : فشأنكما، وعرج ". (١) فالايمان مع العقل، والعلم مع العقل، والتقوى مع العقل، وكل صفات الخير مع العقل.

---

(١) بحار الأنوار / ج ١ / ص ٨٦ / رواية ٨.

وروي عن موسى بن جعفر عن ابيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن ابيه الحسين بن علي عن أبيه أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليهم السلام قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله خلق العقل من نور مخزون مكنون في سابق علمه الذي لم يطّلع عليه نبي مرسل ولا ملك مقرب، فجعل العلم نفسه، والفهم روحه، والزهد رأسه، والحياء عينيه، والحكمة لسانه، والرأفة فمّه، والرحمة قلبه، ثم حشاه وقوّاه بعشرة أشياء : باليقين والايمان والصدق والسكينة والاخلاص والرفق والعطية والقنوع والتسليم والشكر؛ ثم قال عز وجل للعقل : أدبر، فأدبر، ثم قال له : أقبل، فاقبل. ثم قال له : تكلم، فقال : الحمدلله الذي ليس له ضدّ ولا ندّ ولا شبيه ولاكفو ولا عديل ولا مثل، الذي كل شيء لعظمته خاضع ذليل، فقال الرب تبارك وتعالى : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا احسن لي منك ولا اطوع منك ولا أرفع منك ولا أشرف منك ولا أعز منك، بك أُوَحَّد وبك أُعبَد وبك أُدعى وبك أُرتجى وبك أُبتغى وبك أخاف وبك أُحذر، وبك الثواب وبك العقاب. فخر العقل عند ذلك ساجدا، فكان في سجوده ألف عام، فقال الرب تبارك وتعالى : ارفع رأسك وسل تعطى واشفع تشفع. فرفع العقل رأسه فقال : إلهي اسألك أن تشفعني فيمن خلقتني فيه، فقال الله جل جلاله لملائكته : أشهدكم اني قد شفعته فيمن خلقته فيه". (١)

هذا هو العقل وهذا هو شرفه ومكانته وهذه هي آياته، وحيث توافرت هذه الصفات لدى الانسان كان عاقلا، إذ ليس العقل إلا جوهر فوق كل الجواهر.

وفي حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "يعتبر عقل الرجل في ثلاث؛

---

(١) بحار الأنوار / ج ١ / ص ١٠٧ / رواية ٣.

في طول لحيته وفي نقش خاتمه وفي كنيته". (١)

اما طول اللحية فلا ريب انه دلالة على طبيعة عقل الانسان، بل نخص به الرجل. وما نراه اليوم في المجتمعات الغربية خاصة من النماذج المبتذلة في اسلوب حلق اللحية ليس إلا دليلاً على طبيعة عقولهم، لانا اسلفنا ان العقل ليس شيئاً تكشفه بنفسك، بل تكشفه من خلال علاماته كما يقول الامام الصادق عليه السلام.

اما النقش على الخاتم فلا ريب انه دلالة على شخص صاحبه، إذ هناك من يتخذ لنفسه رمزاً خاصاً ينقشه على خاتمه مثلاً، وهذا الرمز في الحقيقة كاشف عن طبيعة صاحبه ضعة ورفعة، فمنهم من يتخذ لنفسه لقباً جميلاً رفيعاً او ينقش على خاتمه مجموعة من السور او الآيات القرآنية، والبعض الآخر يتخذ لنفسه لقباً وضيعاً ينقشه على الخاتم، وهذه كلها إن هي إلاّ تصرفات تنبئ عن ماهية ذلك الانسان وتكشف عن مدى طبيعة عقله وسعة تفكره، ومثلها الالقاب والكنى والاسماء التي يتخذها الانسان لنفسه او التي يكنيه بها الآخرون.

وجاء في حديث آخر : " إذا أردت ان تختبر عقل الرجل في مجلس واحد فحدثه في خلال حديثك بما لا يكون فإن أنكره فهو عاقل وإن صدقه فهو أحمق". (٢) كما قيل : حدث العاقل بما لا يعقل فإن صدق فلا عقل له، إذ يتبين هنا ان جلسة واحدة او مصاحبة واحدة تكفي للوقوف على عقل الانسان من خلال تصرفاته، ومن خلال علائم العقل ودلائله، فالعقل يكشف بدلائله وعلاماته ولا يمكن وصفه وتوهمه.

---

(١) بحار الأنوار / ج ١ / ص ١٠٧ / رواية ٢.

(٢) المصدر / ج ١ / ص ١٣١ / رواية ٢٨.

# العلم يجلي الحقائق

حين يكشف الاسلام وبصائره القرآنية الواضحة لغز العلم، فيكتشفه الانسان بذاته وبوجدانه دونما عناء.. بل حينما يذكّر القرآن البشر بحقيقة أنفسهم، فيثير فيهم دفينة العقل ويلور فيهم فطرة النفس ؛ حينئذ يتملك الانسان العجب من ان الامر الذي اكتشفه كان واضحا معروفا ؛ فلماذا كان يجهله ولم يعرفه؟

يقول الامام الصادق عليه السلام عن العلم: "انما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه". (١)

فالنور هنا لا يعني مثل هذه الاشعة التي تنبعث من المصباح الكهربائي وشبهه، او تلك الاشعة التي تبثها الشمس، بل النور هو ما يكشف شيئا ما. فكما ان المصباح او نور الشمس يسقط على الاشياء المادية المحسوسة فيعكسها للعيان، كذلك العقل والعلم يكشف للانسان الحقائق كشفاً معنوياً.

فالعلم نور يقع في قلب من يريد الله أن يهديه، ما أجملها من عبارة وما اروعها؛

---

(١) بحار الأنوار / ج ١ / ص ٢٢٥.

دقيقة في محتواها، بسيطة سهلة الفهم والادراك، واضحة على عمقها لدى الكثيرين. عبارة عجزت البشرية عن ادراكها منذ خمسة الآف عام، فراحت تتخبط وتدور في حلقة مفرغة دون ان تكتشف هذه الحقيقة البسيطة التي عبّر عنها هذا الحديث، او الحديث الآخر القائل : " ان الله خلق العقل من نورمخزون مكنون في سابق علمه، الذي لم يطلع عليه نبي مرسل ولا ملك مقرب...". (١)

هذه الكلمات البسيطة تكشف آفاقا عجزت صنوف البشر من فلاسفة كبار او عرفاء شامخون عن فهمها وادراك محتواها، ومن هنا تبرز حقيقة معنى قولنا ان علينا ان نلتمس باب الاسلام وان نحاول التذكر بالقرآن الحكيم والسنة النبوية وكلمات أهل البيت عليهم السلام، وهذا هو أيضاً معنى الحديث الذي روي عن أبي عبد الله عليه السلام: "من دان الله بغير سماع من عالم صادق ألزمه الله التيه الى الفناء، ومن ادّعى سماعاً من غير الباب الذي فتحه الله لخلقه فهو مشرك، وذلك الباب هو الأمين المأمون على سرّ الله المكنون". (٢) فحين يعزب الانسان عن ولوج باب اهل البيت عليهم السلام ولا يريد التعلم من باب العلم ولا يأت البيوت من أبوابها، سيبقى في تيه وضلال؛ يدور حول حلقة مفرغة، ويبقى متمحورا حول نفسه لايدرك من اين ينبغي له ان يدخل.

**العلم نور:**

" العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء " انها حقيقة حين لم يعها ولم يعرفها الحكماء والفلاسفة تاهوا وضلوا وضاعوا. حتى قال البعض إن العلم يطرأ على

---

(١) بحار الانوار / ج ١ / ص ١٠٧ / رواية ٣.

(٢) المصدر / ج ٢ / ص ١٠٥ / رواية ٦٨.

نفس الانسان؛ اي بمعنى ان النفس البشرية شبيهة بلوح معدني حساس تنطبع عليه صور الاشياء، كالاشرطة الحساسة والافلام التي تستخدم اليوم في التقاط الصور عبر آلة التصوير. فهي تتحسس النور حال سقوطه عليها فتنطبع الصورة المطلوبة، ومن ثم وعبر مراحل أخرى تجرى عليها تأثيرات كيمياوية بمواد إظهارية تظهر الصورة؛ ثم تعكس على ورق حساس آخر فتبدو للعيان صورة الشيء. هكذا شبهوا نفس الانسان بأنها حساسة تتأثر بالمؤثرات الخارجية فتنطبع عليها الاشياء، وبالتالي يحصل العلم بها. وهذا هو الذي عبروا عنه بالوجود الذهني، اي ان ذهن الانسان فيه وجود من الاشياء، وهنا كان الوقوع في المأزق، فراحوا يدورون في حلقة مفرغة. فهم يتساءلون عن هذا الوجود الذهني هل هو منطبق مع الوجود الخارجي ام لا ؟ فان قيل : لا ؛ فكيف يعلم ما لاينطبق مع معلومه؟ وإن قيل: نعم؛ يواجهون حينها مقولة ان الوجود الذهني من مقولة الكيف والوجودات الخارجية من مقولات شتى بعضها عرض وبعضها جوهر وبعضها زمان وبعضها مكان.. ولعل مثالاً بسيطاً يوضح لنا هذا المعنى الذي لا يخلو عن شيء من التعقيد، فنقول : الماء غير الهواء وهما غير عنصر الاوكسجين، وهذا غير يوم الجمعة، إذ يوم الجمعة من مقولة الزمان والماء من مقولة الجوهر، وبرودة الماء من مقولة العرض وصغر حجم الماء وكبره من مقولة الكيف، وهذه أمور مختلفة شتى. وعلى قول الفلاسفة فأن النفس البشرية من مقولة الكيف، فكيف إذن تجتمع في النفس البشرية مقولة العرض ومقولة الزمان ومقولة المكان ومقولة الجوهر، وهذه كلها مختلفة مع طبيعة النفس ؟ قال الفيلسوف المعروف الملا هادي السبزواري في منظومته الشعرية :

والذات من انحاء الوجود قد حفظ جمع المقابلتين منه قد لحظ

فجوهر مع عرضٍ كيف اجتمع ام كيف تحت الكيف كلٌ قد وقع؟

فهو يتساءل : كيف تجتمع المقولات المختلفة في النفس البشرية ؟

ولكي يجيبوا عن هذا التساؤل، اتجه كلٌ اتجاهاً، ونحا منحى خاصا به ؛ فبعضهم قال : الموجود في الخارج غير الموجود في ذهن الانسان، وبعض قال بتحوّل الموجود في الخارج حينما يدخل في ذهن الانسان، وبعض نفى كلا الاتجاهين وقال : العلم إن هو إلا إشراقة النفس وانبساطها على الموجودات الخارجية، وقالوا : ان النفس البشرية لها امتدادات وتموجات، وحين تتموج النفس وتصل الى الموجودات الخارجية. فذلك يعني العلم.

هذه الاقوال ربما تجر قائلها الى الشرك وتدخله في الكفر، إذ لو كان العلم هو دخول الاشياء في ذهن الانسان فكيف يدخل علم الله ؟ هل يدخل الوجود والموجودات في ذات الله القدوس السبوح المنزّه الذي هو أكبر من أن يوصف. الله الذي يسبح له ما في السماوات والارض، إن من شيء إلا يسبح بحمده، وهل تدخل الموجودات الناقصة المستهجنة في ذات الله ؟ إذن هذا هو الشرك بعينه، وهذا هو الكفر بذاته. لكن الانسان حين يرتفع عن مثل هذا التفكر الحضيض، ويتجنّب السقوط في هاوية الشرك، يدرك ان العلم لا هذا ولا ذاك، وانما هو انكشاف الاشياء للنفس البشرية عبر نور الهي.

هناك من الفلاسفة من يقول بأن النفس البشرية ذاتها علم. ونتساءل: لو قلنا ان النفس البشرية ذاتها علم، فهل يمكن حينئذ القول بان العلم من الله سبحانه ؟ لكنهم مهما قالوا ومهما احتجّوا على ذلك نراهم يضطرون للاعتراف بخطأ هذا

التفكر حين يرجعون الى فطرتهم والى وجدانهم، إذ لوكانت ذات الانسان هي العلم فلماذا يجهل الانسان الاشياء، وبتعبير آخر لكان الانسان يعلم كل شيء. ثم لوكان الحال كما يقولون لماذا ينسى الانسان نفسه بالذات ويجهلها، ذلك لانه بفطرته وبوجدانه يعرف أنه ليس العلم وانه لا يعلم كل شيء ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الاسراء/٨٥)،كما إنه يعرف بوجدانه وفطرته انه ينسى نفسه أحياناً كثيرة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر/١٩)، فهو ينساها حالة النوم وينساها حالة الغفلة، ولو كانت النفس هي العلم لكان من المستحيل ان ينسى الانسان نفسه.

وآخرون يقولون بأن العلم صورة في الذهن، ونحن نتساءل عن الضمانة. بمعنى ان الانسان حين يعلم الاشياء كيف يضمن أنها تنطبق مع الحقائق الخارجية، فلو عرضت عليه صورة شخص ما وقيل له هذه صورة فلان، الذي لم يسبق له رؤيته، اتراه يصدق هذا الادعاء ؟ كلا بالطبع، لانه لا يستطيع تطبيق الصورة المعروضة عليه مع الحقيقة الخارجية، وهو ذلك الانسان الذي لم يره قط.

وهنا نعود فنقول : لوكان العلم صورة في ذهن الانسان او في نفسه دون انكشاف الاشياء بصورة مباشرة ؛ فما هي الضمانة بانطباق وتوافق هذه الصورة مع الحقائق الخارجية ؟ وهذا ما دفع البشر لاستحداث علم سمّوه بالمنطق، ولعل هذا اللغز كان اساس استحداث علم المنطق، وان تنوع فيما بعد فظهر على الساحة بمسمّيات عديدة كمنطق ارسطو الشكلي ومنطق ديكارت ومنطق كونت ومنطق ماركس وغيرها. لكن مع هذا كله لازالت البشرية تخطئ، فهذه

المناهج العلمية لن تنفع إلا القليل، لان الحل يكمن في ان العلم يكشف الاشياء بصورة مباشرة ويظهرها للانسان، وليست صور الاشياء هي التي تنطبع في ذهن الانسان.

## سبيل إكتشاف الحقائق :

حين يعرف الانسان ماهية العلم، وينتبه العقل لذاته من خلال وجدانه ومن خلال آيات العلم ودلائله، يكتشف انه يعلم ان كل معلومة اكتشفها العلم فهي صادقة، وكل معلومة اكتشفها العقل صادقة ؛ ويكتشف ايضا ان كل معلومة عرفها من خلال الظن ومن خلال الأماني والأهواء والشهوات فهي غير صادقة. لذلك فالاسلوب الأهم لإكتشاف الحقائق وعدم الزيغ عنها، أبتداءً من الايمان بالله تعالى وإنتهاءً بأصغر الاشياء هو أن يعرف الانسان العقل؛ ان يعرف العلم. وهذا لا يعني ان يعرف الانسان العقل او العلم عبر التوصيفات والمفاهيم، بل ان يعرف الانسان نور العلم الموجود لديه من خلال آياته ومن خلال بصائره، وحينها سيكون العلم واضحا لديه موثوقا به مطمئنا إليه، وفي غير هذه الصورة تصبح معرفته جهلاً وتيهاً وضلالاً؛ اذ ليست تلك المعرفة إلا مجموعة أوهام وظنون وخرافات وأساطير.

ولعل مثلاً بسيطاً يوضح الغرض، فحين يعلم الانسان بانه يجلس في صالة ذات باب واحد وانه يتوقع دخول شخص ما صديقا كان ام عدوا من تلك الباب، لاريب انه سيتوهمهما حال دخول احدهما لعدم قدرته على التمييز حينها، فربما استقبل العدو ودافع الصديق بسبب ذلك الوهم، كذلك الحال لو كانت الصالة ذات بابين ولم تخصص احداهما للصديق والاخرى للعدو، لكن الحال ستختلف

حتما لو كانت الصالة ذات بابين وخصّصت احداهما للصديق والاخرى للعدو، حيث سيحصل التشخيص والتمييز بين باب العدو وباب الصديق وبالتالي يحصل تشخيص الصديق من العدو.

فالنفس البشرية مثلها مثل الصالة، والعلم والجهل مثلهما مثل الصديق والعدو، والانسان قبل ان يهتدي بهدى القرآن ويعلم العقل ويعرف الخصائص العقلية، مثله مثل ذلك الذي لايميز من اي باب سيدخل الصديق ومن ايتهما سيدخل العدو. إذ القرآن الحكيم و أقوال النبي وأهل البيت عليهم السلام تخاطب الانسان فتعرِّفه على الصديق والعدو وترشده الى الباب الذي يدخل كل منهما منه. وتوضح له ان الجهل يدخل من خلال الظنون والاهواء والشهوات وكلام الفاسقين، وان العلم يدخل من خلال بصائر القرآن والحقائق التي يبينها الرسول وأهل بيته عليهم افضل الصلاة والسلام وكلمات المؤمنين.وعندها يستطيع الانسان ان يميز بين الافكار الصحيحة والافكار الخاطئة.

القرآن الحكيم يقول: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾، ومعناه ان هناك كلمتين، إحداهما (سماع) والأخرى (استماع). والسماع هو ان يسمع الانسان شيئاً دون ان يتوجه إليه ودون ان يركز الانتباه له، بينما يعني الاستماع أن يسمع الانسان شيئاً مع الانتباه والالتفات. فالقرآن الحكيم يشير الى الذين يركزون الانتباه الى الكلام، إلى الذين يقصدون التوجه الى الكلام فيأخذون الصحيح ويتركون غير الصحيح : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُولُواْ الأَلْبَابِ﴾ (الزمر/١٨ ) أي أولئك هم أصحاب العقول.

كما يقول القرآن الحكيم ايضاً : ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ

﴿فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات/٦) فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده التثبّت من الاقوال في انفسهم، لأن اقوال الفساق لا تجرّ الانسان إلاّ الى الندامة، إذ الفاسق ليس إلاّ الباب الذي يدخل منه الجهل.

والقرآن الحكيم يقول كذلك : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (المؤمنون/٦٩) فحين يعرف الانسان الرسول الذي أرسله الله تعالى يعرف لزوم الأخذ عنه، لانه لا ينطق عن الهوى، وما جاء به الرسول فمن الله وهو النور، والنور هو العلم.

تقول الروايات : " عدو علمك الهوى " و" العلم مكسوف بطوع الهوى " إذ الانسان حين ينساق وراء أهوائه ورغباته، انما ينشئ حاجزاً بينه وبين الحقائق.

لكن العقل وفي كثيرمن الاوقات يخالف الهوى، وحين ينجر الانسان وراء هواه تراه يخالف العقل، ولعله ينصت بكل جوارحه حين يتحدث الآخرون عن حسن صفاته ومحاسنه ويكيلون له المدائح والاطراء عليه وإن خالفت الواقع. وعلى العكس من ذلك سينتفض تاركا المكان مرتعد الفرائص منتفخ الأوداج منشدّ الاعصاب لمجرد ذكر معايبه ومساوئه وان هي وافقت الواقع. كل ذلك لان التحدث عن محاسنه مما وافق هواه والتحدث عن مساوئه مما خالف هواه، وهذا الانجرار وراء الأهواء هو الجهل بعينه، هنا تجيء الروايات محذرة من صحبة اصدقاء السوء لانهم الباب الذي يلج منه الجهل، مؤكدة على صحبة المؤمنين باعتبارهم إحدى الابواب التي يرد منها العلم.

## المؤمن ينظر بنور الله تعالى :

توضح آيات القرآن الكريم والاحاديث الشريفة التي تناولت مسألة العلم والعقل

خصائص العلم الذي يحرسه سبعون من جنوده، وتبين عوامل الجهل الذي يحرسه سبعون من جنوده أيضا، وحين يقتل الانسان في ذاته حراس العلم فذاك يعني انتهاء العقل، وحين يتلاشى حراس الجهل في ذات الانسان يتلاشى معها الجهل الى غير رجعة. ويقول الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله : "المؤمن ينظر بنور الله". (١) لأنه يستخدم جنود العقل وحراسه لطرد جنود الجهل. إن مسيرة حياة الانسان اليومية فيها الكثير من الامثلة التي تدلل على أن قلب المؤمن ينبئه بكثير من الاحداث قبل وقوعها وحدوثها، ويخبره بكثير من الاحتمالات والتوقعات. فهو حين يغمض عينيه لا شك ان قلبه يقى بصيرا، وهذا ما يطلق عليه اليوم بالحاسة السادسة. ونحن كثيرا ما نصادف وقوع مثل هذه الاحداث المتوقعة ببصيرة القلب بعد ان نكون أحسسنا بها قبل وقوعها.

وكثيراً ما يحدث حين ينوي الانسان الخروج من البيت مثلاً، أن يحس وكأن أحداً أخذ على يده ليمنعه من الخروج، لكنه حين يظن ذلك وهماً او نوع خرافة، فَيَهُمُّ بالخروج وإذا به يصادف حدثاً سلبياً، كأن يرى شخصا لم يكن يود رؤيته، او ان يقع على الأرض ويحدث له ما يسوؤه، هذه القضايا والأحداث ليست هي بالنسبة للمؤمن صدفة يصادفها، بل هي بالنسبة له نور من الله ينظر به. ولذا فهو حين يريد الخروج من البيت ويبدو له ما يتشاءم منه او يتطير منه تراه يبادر لقراءة آيات من القرآن الحكيم ويعطي الصدقة التي تدفع عنه البلاء، بل وتراه يكون حذرا ببصيرة النور الذي وهبه الله إياه ثم يتوكل على الله ويقدم على الخروج.

فالله سبحانه وتعالى يحذّر الانسان من الخطر القادم، لكن هذا لا يعني الاستسلام

---

(١) بحار الأنوار / ج ٧ / ص ٣٢٣.

للحوادث المتوقعة، بل لابد وبنور العلم والعقل من الاستعداد لوقوع المشكلات والتصدي لها والحذر من مجابهة الخطر. إذ ان أغلب المشكلات سببها شرود الذهن وذهاب الفكر وفقدان البصيرة، والمؤمن حينما ينظر بنور الله ينحصر تفكيره في مجالات الخير فحسب، لذا تراه يدفع عنه المشكلات باختيار سبل الخير من تزكية لأمواله ودفع الصدقات ومساعدة المحتاجين.. الى ما لا نهاية له من سبل الخير. وحينها لا يواجه إلاّ ما يكون له فيه الخير من الله، لان الخير وزير العقل والشر وزير الجهل، وإلا فان الله تعالى مقلب القلوب والاحوال. قال سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر/٧٥) والمتوسم هو المؤمن الذي يرى الاشياء على حقيقتها.

## جنود العقل :

حين نغوص في أعماق أحاديث النبي والائمة عليهم السلام لابد وان نخرج بتلك الجواهر المنتقاة والدرر الثمينة التي ترسم لنا طريق الحياة، وتهيء لنا سبل السعادة، وتبعدنا عما يسبب لنا الشقاء، وتعرفنا على جنود العقل وجنود الجهل، وتسلط الأنوار على الخصال التي يتصف بها العاقل لعلنا نتبعها فنفوز في الدنيا والآخرة، وتضع أمامنا خصال الجاهل لعلنا نتجنبها فننجو من عذاب الدنيا والآخرة.. تلك الكلمات المضيئة التي تكشف الآفاق وتفتح الابواب لنكتشف نحن بدورنا الخير والشر ونميز بينهما فنسارع للخيرات ولكل فضيلة ونعرض عن كل رذيلة، وبالتالي نقتفي آثار من جعلهم الله أئمة يقتدى بهم ونتعلم عنهم إذ العلم حياة للقلوب ونور للأبصار. ولعل الحديث الشريف عن الامام الصادق عليه السلام يوضح ما نحن بصددِه، وهذا الحديث رواه سماعة عنه عليه السلام، حيث

قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده جماعة من مواليه فجرى ذكر العقل والجهل، فقال أبو عبد الله عليه السلام : "إعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا. قال سماعة : فقلت، جعلت فداك لا نعرف إلاّ ما عرفتنا. فقال أبو عبد الله عليه السلام : إن الله جل ثناؤه خلق العقل وهو أول خلق خلقه من الروحانيين عن يمين العرش من نوره، فقال له اقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر. فقال الله تبارك وتعالى : خلقتك خلقا عظيما وكرمتك على جميع خلقي. قال : ثم خلق الجهل من البحر الاجاج ظلمانيا، فقال له أدبر فأدبر، ثم قال له أقبل فلم يقبل، فقال له : استكبرت ؟ فلعنه، ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً، فلما رأى الجهل ما اكرم به العقل وما أعطاه، أضمر له العداوة. فقال الجهل : يا رب هذا خلق مثلي خلقته وكرمته وقويته، وانا ضده ولا قوة لي به فأعطني من الجند مثل ما أعطيته، فقال : نعم ؛ فان عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي، قال: قد رضيت، فاعطاه خمسة وسبعين جنداً، فكان مما أعطى العقل من الخمسة والسبعين الجند: الخير وهو وزير العقل وجعل ضده الشر وهو وزير الجهل، والايمان وضده الكفر، والتصديق وضده الجحود، والرجاء وضده القنوط، والعدل وضده الجور، والرضا وضده السخط، والشكر وضده الكفران، والطمع وضده اليأس، والتوكل وضده الحرص، والرأفة وضدها الغرّة، والرحمة وضدها الغضب، والعلم وضده الجهل، والفهم وضده الحمق، والعفة وضدها التهتك، والزهد وضده الرغبة، والرفق وضده الخرق، والرهبة وضدها الجرأة، والتواضع وضده التكبر، والتؤدة وضدها التسرع، والحلم وضده السفه، والصمت وضده الهذر، والاستسلام وضده الاستكبار، والتسليم وضده التجبر، والعفو

وضده الحقد، والرقة وضدها القسوة، واليقين وضده الشك، والصبر وضده الجزع، والصفح وضده الانتقام، والغنى وضده الفقر، والتفكر وضده السهو، والحفظ وضده النسيان، والتعطف وضده القطيعة، والقنوع وضده الحرص، والمواساة وضدها المنع، والمودة وضدها العداوة، والوفاء وضده الغدر، والطاعة وضدها المعصية، والخضوع وضده التطاول، والسلامة وضدها البلاء، والحب وضده البغض، والصدق وضده الكذب، والحق وضده الباطل، والامانة وضدها الخيانة، والاخلاص وضده الشوب، والشهامة وضدها البلادة، والفهم وضده الغباوة، والمعرفة وضدها الانكار، والمداراة وضدها المكاشفة، وسلامة الغيب وضدها المماكرة، والكتمان وضده الافشاء، والصلاة وضدها الاضاعة، والصوم وضده الافطار، والجهاد وضده النكول، والحج وضده نبذ الميثاق، وصون الحديث وضده النميمة، وبر الوالدين وضده العقوق، والحقيقة وضدها الرياء، والمعروف وضده المنكر، والستر وضده التبرج، والتقية وضدها الاذاعة، والانصاف وضده الحمية، والمهنة وضدها البغي، والنظافة وضدها القذر، والحياء وضده الخلع، والقصد وضده العدوان، والراحة وضدها التعب، والسهولة وضدها الصعوبة، والبركة وضدها المحق، والعافية وضدها البلاء، والقوام وضده المكاثرة، والحكمة وضدها الهوى، والوقار وضده الخفة، والسعادة وضدها الشقاء، والتوبة وضدها الاصرار، والاستغفار وضده الاغترار، والمحافظة وضدها التهاون، والدعاء وضده الاستنكاف، والنشاط وضده الكسل، والفرح وضده الحزن، والألفة وضدها الفرقة، والسخاء وضده البخل.

فلا تجتمع هذه الخصال كلها من أجناد العقل إلا في نبي او وصي نبي او مؤمن

قد امتحن الله قلبه للإيمان... (١) الى آخر الحديث الشريف الذي يضع من خلال شذراته الحلول لكثير من المشاكل الفلسفية، ويرشدنا الى ضرورة التنبه الى بصائر الاسلام كي يتدبّر الانسان طريقه، إن كان خيراً فقد غنم وإن كان شراً فقد خسر، وبالتالي فان في بصائر القرآن وأحاديث النبي والأئمة عليهم السلام هدى للانسان الى الحقيقة.

(١) بحار الأنوار / ج ١ / ص١٠٩ / رواية ٧.

## الفصل الثالث :

# حدود العلم

### العقل ومقاييس التفكير :

بداية؛ ينبغي القول بأن العقل الانساني مخلوق ذو إمكانات جبارة بالنسبة الى سائر المخلوقات والموجودات، ولكنه في الوقت ذاته محكوم بقوانين وسنن ينبغي السير وفقها. وبغير ذلك يكون مخلوقا عديم الأهمية، بل ويمكن أن يكون وبالاً على صاحبه. تماما كتلميذ المدرسة الابتدائية الذي يسعى الى حلّ المسائل الرياضية الخاصة بالمرحلة الجامعية وهو لمّا يتقن مسائل مرحلته بعد، فتراه بالاضافة الى عجزه عن حلها، يضيّع ماكان يحفظه من مسائل أولية تعلمها في المدرسة. أو كذاك الذي باستطاعته حمل ثقل يعادل مائة كيلوغرام مثلاً ولكنه يتعمد القفز على مستواه الجسمي ليحمل خمسمائة كيلوغرام، متغافلا عن أنه يحاول تحقيق المستحيل، وعن أنه سيسبب لنفسه كارثة في عموده الفقري ؛ حيث سيكون عاجزا فيما بعد عن حمل الثقل الاول ذي المائة كيلو غرام.

هكذا الانسان، إذا اراد ان يتكلف علماً لم يبلغه عقله، فانه ليس فقط لايستطيع أن

يحيط بذلك العلم، وانما قد ينسى حتى علومه السابقة، لانه اعتمد مقاييس غير صحيحة على طريق التطور، وهذه المقاييس من شأنها أن تؤثر على مجمل أفكاره وما كان يتمتع به من مستوى.

وعليه فان التطلّع نحو العلم يتطلب توفر مساحة عقلية مناسبة له. فكما أن المحدودية الذهنية تعيق عملية الحصول على العلوم المتطورة، كذلك فإن سعة الافق الفكري والعقلي قد يكون وبالاً على صاحبه اذا لم يستغله في مساحته المناسبة له.

فهناك العديد من الفلاسفة الذين حاولوا بعقولهم المجردة أن يقفزوا على حاجز الغيب، وهم قبل ذلك كانوا قد عجزوا عن حل أبسط المسائل الطبيعية التي يفهمها الناس العاديون، وذلك لان تركيبة عقولهم كانت قد اهتزت وفسدت.

ومن ذلك ؛ ان فلاسفة اليونان كانوا يعتقدون بأنه لا يمكن للسماء ان تتبدل او تتغير، وأن السماء التي نراها هي من عالم فوق عالم المادة. ثم كانوا يقولون أن النجوم والكواكب بمثابة مسامير فضية تثبّت السماء !

وكان أرسطوطاليس يقول بأن الرجل أرفع درجة من المرأة، وذلك لأن عدد أضراسه اكثر من عدد أضراسها. وهذا الاعتقاد يعتبر في عصرنا ضرباً من الجنون.

وهناك الكثير من الاعتقادات والافكار الخرافية تورط فيها علماء فطاحل، بسبب أنهم حاولوا فهم ما لم يؤتوه، وحاولوا القفز على مقاييس التفكير السليم، بالإضافة الى تصورهم الخاطئ بأنهم بلغوا مرحلة من العلم لا يسعهم فيها مراجعة أفكارهم وتحسس مواقع أقدامهم.

## البحث في ذات الله عجز :

لقد كلّف البعض أنفسهم عناء البحث في ذات الله المقدسة، في وقت عجزوا كل العجز عن مجرد إحصاء آيات الله تبارك وتعالى فيما حولهم، فضلّوا وأضلوا كثيرًا من الخلق بتقولاتهم الباطلة؛ التي من جملتها ان الله جاهل وذلك لأنه تجاهل أمر مخلوقاته، حيث تركها وشأنها حتى أصبح جاهلاً بها !!

ثم قالوا إنه عاجز عن عمل شئ بسبب كبريائه وعظمته التي تمنعه من التدخل في أمر المخلوقات بعد أن فرغ من خلقها: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ (المائدة/٦٤).

والبعض الآخر ادّعى بأن الله يعلم الكليات فحسب دون التفاصيل والجزئيات، لأنها لاتليق بعلمه. فهو يعلم أن الخير خير، والشر شر، والحق حق، والباطل باطل، اما التفاصيل التطبيقية للخير والشر والحق والباطل فلا!.

إنهم أرادوا ان يقيسوا ربهم بعقولهم وقابلياتهم المحدودة، ولقد قال الامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام : " ولو أن النملة أرادت أن تصور الله لصورت له قرنين ". علمًا بأن اليهود رسموا صورة الله على هيئة رجل كبير السن ذي لحية بيضاء طويلة كصورة الاحبار والرهبان، وقالوا : هذه صورة الله. لقد ضلوا ضلالاً بعيداً بإقحام أنفسهم في علم مالم يكلّفوا به، ففي الوقت الذي كان عليهم أن يسبروا غور المخلوق فكروا بالخالق.

ولا أشك بأن الدهريين الذين أنكروا وجود الله سبحانه وتعالى، إنما أنكروه لأنهم أرادوا إلهاً يحسونه بأيديهم ويخضعونه لتجاربهم الحسية والعقلية البسيطة. وإذ لم يتسنَّ لهم ذلك قالوا بعدم وجود إله مطلقاً، ولوكان ثم إله لرأيناه ولمسناه...

إنهم أرادوا التعمق في إلههم فضلّوا وتزندقوا.

لقد نهى الاسلام عن التفكر في ذات الله عزّ وجلّ، وكيف يعطي، وكيف يأخذ، وكيف يعلم. فهذه تساؤلات خاطئة حينما تستخدم في مجال الفعل الالهي، إذ هي ترادف بشكل مباشر وفعل المخلوق، اضافة الى إنها عملية تشبيه وتصوير للقدرة الالهية، والتشبيه بدوره يؤدي الى الجحود والانكار. وقد جاء في الحديث إن رجلا قال لأمير المؤمنين عليه السلام : صف لنا ربنا مثلما نراه عياناً لنزداد له حبا وبه معرفة !؟ فغضب أمير المؤمنين وخطب في الناس خطبة مفصّلة جاء فيها: "فانظر أيها السائل: فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضئ بنور هدايته، وما كلّفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضُه، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثرُه، فكِلْ علمه الى الله سبحانه، فان ذلك منتهى حق الله عليك (١)....".

بلى ؛ إن وصف الله لا يمكن لبشر أن يبتدعه من ذاته، إذ يوقعه ذلك في مكائد الشيطان وحبائله، ويعرضه لوساوس النفس وعجز الفكر. إن الاصح في هذا الاطار هو ما بيّنه أمير المؤمنين عليه السلام لسائله حيث أوصاه بأن يأخذ صفات الله من القرآن ولا يتجاوز في ذلك كتاب الله وسنة النبي وائمة الهدى عليهم السلام.

## الرسوخ في العلم :

ثم يضيف الامام عليه السلام : واعلم يا عبد الله إن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن الاقتحام على السدد المضروبة دون الغيوب إقرارا بجهل ما

---

(١) نهج البلاغة - خطبة رقم٩١.

جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فقالوا : آمنا به كل من عند ربنا.(١)

إذاً فهناك أمور غيبية تقف دون الوصول اليها سدود، في حين نرى الانسان العاجز عن إدراك ماهية ذاته يحاول اقتحامها بجهل. وفي ذات الوقت مدح الله تبارك وتعالى اعتراف بعض عباده ( الراسخون في العلم) بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وتركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه. قال ربنا عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران/٧)

وعلى ذلك ؛ يمكن القول بأن الرسوخ في العلم هو التوقف عن البحث في الامور التي يعجز العقل عن بلوغها. وإذا ما سئل أحد الراسخين في العلم عما يجري في السماء السابعة – مثلاً – في الوقت الحاضر، فإنه لا يجد حرجاً في الإجابة بأنه لا يعلم، فهو لا يعلم من هذه الامور إلاّ ما أطلعه القرآن الكريم والرسول المصطفى صلى الله عليه وآله عليه. وهذا يعني ويؤكد أن الراسخين في العلم يعرفون تمام المعرفة أين تقف أقدامهم من مواقع المعرفة، وفي ذلك تعبير عن شموخهم وتفوقهم على غيرهم ممن التبست عليهم الامور فراحوا يصورون لأنفسهم الخيال والخرافة على هيئة الحقيقة. وقد نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : " وانقطع دون الرسوخ في علمه جوامع التفسير.. ". (٢) وعبر

---

(١) بحار الانوار / ج ٣ / ص٢٥٧ / رواية ١.

(٢) المصدر / ج ٤ / ص ٢٦٩ / رواية ١٥.

ذلك يريد أمير المؤمنين عليه السلام القول بأن الراسخ في العلم يعطي للعلم حق قدره.

ولقد سأل أحد الزنادقة الامام الصادق عليه السلام قائلاً : ما هو الله ؟ فأجاب : ... هو شئ بخلاف الاشياء... لا تدركه الاوهام ولا تنقصه الدهور ولا يغيّره الزمان. (١)

وفي رواية أخرى عن ابي جعفر أنه قال لزياد – وهو من أصحابه – : يا زياد إياك والخصومات، فإنها تورث الشك وتحبط العمل وتردي صاحبها، وعسى أن يتكلم الرجل بالشيء لا يغفر له. يا زياد ؛ إنه كان فيما مضى قوم تركوا علم ما وكّلوا به، وطلبوا علم ما كفوه حتى انتهى بهم الكلام الى الله عز وجل فتحيروا، فإن كان الرجل ليدعى من بين يديه فيجيب من خلفه، أو يدعى من خلفه فيجيب من بين يديه. (٢)

فهذا الانسان الذي يعجز عن استيقان ما سيأكله غدا من طعام، كيف يتجرأ على التفكير في ذات الله وهو الذي لا تنقصه الدهور ولا تغيّره الازمان. إن في ذلك لدلالة كبرى على ان المقتحم لمثل هذه الاسوار لا يكنّ في نفسه ذرة إحترام للعلم، وهو جدير بأن يطرد من ساحة العلماء الذين يعرفون ماذا يبحثون من علوم كُلّفوا بالتنقيب عنها. فالله لا يكلف نفسا إلاّ وسعها.

وهذا رجل يكتب الى أبي محمد عليه السلام سنة ٢٥٥ للهجرة : قد اختلف يا سيدي أصحابنا في التوحيد... منهم من يقول [ عن الله ] هو جسم، ومنهم من

---

(١) بحار الأنوار / ج ٣ / ص ٢٩ / رواية ٣.

(٢) المصدر / ج ٣ / ص ٢٥٩ / رواية ٣.

يقول هو صورة، فإن رأيت يا سيدي أن تعلمني من ذلك ما أقف عليه ولا أجوزه؛ فعلتَ متطوّلاً على عبدك. فوقّع بخطّه عليه السلام : سألت عن التوحيد ؛ وهذا عنكم معزول - يكفيك أن تعلم أن - الله واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، خالق وليس بمخلوق، يخلق تبارك وتعالى ما يشاء من الأجسام وغير ذلك، ويصور ما يشاء وليس بمصوَّر، جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، وتعالى عن أن يكون له شبه، هو لا غيره، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير. (١)

**علم الله :**

إن الانسان ينبغي أن لا يورط نفسه في الخوض في علوم لم يكلف بالبحث فيها، بل يكفيه ما جاء عنها في القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وروايات الأئمة عليهم السلام. فإذا كان علمه بالاشياء يتأتى بواسطة النور الذي منحه الله إياه فتتكشف له الأشياء بصورة مشاهدة ومباشرة، فان علم الله بالاشياء هو كشف الاشياء من دون واسطة، وهو علم غير مضاف إليه لأنه هو العلم ومصدره. وهنا لا بد من الاستضاءة ببعض الروايات الواردة في هذا المجال..

عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: قولوا: "- إن الله- نور لا ظلام فيه، وحياة لا موت فيه، وصمد لا مدخل فيه" (٢) فربنا نوري الذات، حي الذات، عالم الذات، صمدي الذات.

ويقول الامام ابو الحسن الرضا عليه السلام : إن الله تعالى هو العالم بالاشياء قبل

---

(١) بحار الأنوار / ج ٣ / ص ٢٦٠ / رواية ١٠.

(٢) المصدر / ج ٤ / ص ٣٠٤ / رواية ٣٣.

كون الاشياء، قال عز وجل " إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون "، وقال لأهل النار" ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون "، فقد علم عز وجل أنه لو ردّهم لعادوا لما نهوا عنه، وقال للملائكة لما قالوا : " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون " فلم يزل علم الله عز وجل علمه سابقًا للاشياء، قديماً قبل أن يخلقها، فتبارك ربنا وتعالى علواً كبيراً. (١)

(١) بحار الأنوار / ج ٤ / ص ٧٨ / رواية ١.

# عقبات في طريق العلم

الذي يتبين ومن خلال مفاهيم الذكر الحكيم والاحاديث النبوية الشريفة وأقوال الأئمة عليهم السلام ؛ أن الانسان إذا أراد ان يكتشف الحقائق وان يتجنب الجهل والضلال فليس عليه إلا ان يعرف العقل وجنوده والجهل وجنوده، إذ كلما أضاء العقل نفسه لنفسه، وتنبّه العلم بذاته لذاته، وتوجه الانسان الى قدرته على كشف الاشياء ومعرفتها، كلما ازداد معرفة بالحقائق، وبالتالي ازداد هدى ويقينا.

ثم ماهي علاقة تلك الصفات الحميدة بما نعهده من العلم والعقل، وبما نعهده من المعرفة والثقافة ؟ بل لماذا يعتبر التكبر مثلا جنوداً من جنود الجهل، ولماذا التواضع رأس العلم ورأس العقل ؟ ولماذا الحلم من العقل والعلم، والتسرع والغضب من الجهل والجهالة ؟ بل لماذا يربط الحديث الشريف السالف الذكر عن الامام الصادق عليه السلام بين صفات الانسان كصفة الكرم والسخاء والتوءدة والعفاف والحياء وبين العلم والعقل والمعرفة والثقافة وما أشبه ذلك ؟

## علاقة العقل بالوحي :

هذه تساؤلات تطرح نفسها على كل لبيب، وللإجابة عنها لابد لنا ان ندخل مدخلاً جديداً في مباحث العلم والعقل، وعلاقة العقل بالوحي فنقول : القرآن والعقل صنوان لا يفترقان.

هناك حقيقة وجدانية معروفة بصغرياتها ومفرداتها، لكنها مجهولة باطارها العام. وبتعبير آخر ؛ إن مفردات وجزئيات هذه الحقيقة معروفة لدى الانسان، فإذا ارتبطت هذه المفردات مع بعضها شكلت إطاراً عاماً او هيكلاً شاملاً للفلسفة الاسلامية ؛ وفي حقل العلم والوحي بالذات.

فالانسان ولكي يصل الى سموه الروحي والتكامل المعنوي، والى تقدمه الحضاري المادي الذي يتطلع إليه ؛ لابد وأنه سيواجه في طريقه الكثير من العقبات. وهو حين يعجز عن تجاوز هذه العقبات. بل والسيطرة عليها لا يمكنه ان يصل الى ذلك السمو وذلك التقدم، سواء كان ذلك في حقل المعنويات ام في حقل الحضارة المادية. وهنا تتجلى الرابطة العميقة والوثيقة بين القرآن الحكيم والعقل، وبأنهما صنوان لا يفترقان، بل هما يتفقان معا على إعطاء الانسان زخماً إرادياً هائلاً لتجاوز تلكم العقبات والسيطرة عليها، بل وليشق الانسان طريقه قدماً الى قمة الكمال النفسي والروحي من جهة، والى قمة التقدم الحضاري المادي من جهة ثانية.

ثم إن قدرة القرآن الحكيم وقدرة العقل على اجتياز تلك العقبات الكأداء وإزالتها من مسيرة الانسان، انما هي الدليل الواضح والحجة البينة والبرهان القاطع على مدى صحة القرآن من جهة، وعلى مدى سلامة العقل من جهة أخرى. وبتعبير آخر، حينما يكون العقل دليلنا الى القرآن ويكون القرآن هو الآخر دليلنا

الى العقل ؛ فإن العقل يهدينا الى أن القرآن من الله سبحانه وتعالى، والقرآن يذكرنا بالعقل فيبلوره في أنفسنا، بل يبلور الفطرة في أنفسنا. فهما يلتقيان عند مصب واحد ويفجران طاقة الانسان.

ان الوصول الى القمة يعني بحد ذاته سلامة الطريق، والانسان حين يصل الى قمة الكمال يعرف ان طريقه للوصول كان سليما، ثم هو حين يسترشد بالآخرين او حين يُخبَر عن شيء ما كان يسعى إليه وتتحقق له بعدئذ صحة ذلك. حينها لا يستطيع ان ينكر بأن ذلك المرشد او المخبر كان مخلصا في توجيهه، صادقا في قوله، أمينا في نقله. وبالتالي كان هاديا مرشدا، بل هوحين يتأكد من صحة تجارب ومعلومات الآخرين وسلامة نتائجها لا يمكنه البتة ان ينكر حقهم او ان يستغني عنها حين تلجئه الحاجة الى الوصول الى تلك النتائج التي يطمح اليها. فهوحين يراجع الطبيب مرة للعلاج ويشفى فعلا من المرض، لابد وانه سيعود إليه ثانية لمرض آخر لأنه اكتشف بعين اليقين صحة علاجه وحذق علمه. والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ (الانعام/١٩)وبعض معاني شهادة الله تعالى على صدق رسالاته، هو ان الانسان إنما يصل الى تطلعاته وطموحاته، بل ويبلغ الكمال عبر القرآن الحكيم وعبر العقل.

وثمة سؤال يجدر ذكره، وهو : ماهي العقبات التي تعترض طريقنا، وكيف يعالج الوحي هذه العقبات ويعطينا القدرة على تجاوزها ؟

## العقبة الأولى : التأطر بحدود الدنيا

من الجهل بمكان ان يحدد الانسان تفكره ضمن حدود هذه الدنيا الفانية، إذ

ان هذا الاطار الضيق من التفكر لا ريب انه يحصر الانسان في زاوية لا يبصر منها إلا ما يتصور أنه يحقق له البقاء دون أدنى نظرة مستقبلية، فينقاد شاء ام أبى الى متاهات لانتيجة لها إلاّ السقوط الى حضيض حب الحياة العاجلة، وبالتالي السقوط والهوي الى الارض.. ولهذا قيل: أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، فالحب يعمي ويصم ومن ثم يحر وراءه الكثير من التصرفات التي تحجر الانسان من انسانيته فلم يعد حينئذ أشرف المخلوقات، ويعجز عندها من ان يدرك انه ما خلق ليحيا هذا السنين المعدودات القصار في عمر الزمن فحسب، ما خلق ليحيا هذه العاجلة فقط، ويعجز ان يفهم ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ (التوبة/٣٨) بل هو أيضاً يغفل عن الآجلة ويعيى عن فهم معنى الخلود وان هناك حياة أخرى هي خير وابقى ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الاَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِنْهَا عَمُونَ﴾ (النمل/٦٦).

ثم ان الانسان حين تنحصر افكاره وتصرفاته في حدود آنية، وحين يتصور ان عصفورا في اليد خير من عشرة على الشجرة ؛ انما تتنامى فيه عادة التقاعس والخمول والاستسلام الذي يفتُّ في عضده ويعيقه عن مواجهة المشكلات وبالتالي عن الوصول الى طموحاته المعنوية والمادية.

وهذا امام المتقين علي عليه السلام يقول: "ولاينال العبد نعمة إلاّ بفراق أخرى".(١)

فما من شك في ان من يريد المستقبل لابد ان يترك بعض لذاته الحاضرة، ويعد نفسه لتجاوز هذه العقبة الكأداء من حب الدنيا والغفلة عن الآخرة. وليس ذلك

---

(١) نهج البلاغة / قصار الحكم / ١٩.

منحصراً في الأفراد بالذات، بل وينعكس على الأمة أيضا. فأي أمة، حين تنحصر توجهاتها ضمن أطر محدودة دون النظر الى المستقبل ودون السعي الى التقدم الحضاري، فسوف لن تبقى متأخرة عن ركب الحضارة فحسب، بل وربما يسوقها هذا التقاعس والاستسلام الى التقهقر، وبالتالي الى الفناء والعدم.

ان العقل هو القادر على تجاوز العقبات، والقرآن الحكيم يزيد نور العقل عبر آياته الكريمة، التي تذكره بأنه ما خُلق عبثاً ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ﴾ (المؤمنون/١١٥) بل خُلق ليبقى، خُلق ليحيا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ (الانعام /٣٢)

ثم هي تنير الطريق امام الانسان ليرقى بتفكره بعيداً عن أفقه المحدود، وتدفعه للتحرر لينطلق بأفكاره وتوجهاته الى آفاق أسمى مما هو فيه من التقوقع والإستكانة؛ دون ان تتكرعليه نصيبه من هذه الدنيا، بل تدعوه للفوز بحياة سامية عالية من خلال هذه الحياة الدنيا ﴿ وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ (القصص/٧٧) إذ القرآن حين يذكر العقل وينوره انما يمد للانسان حبال النجاة لانتشاله من هذا المستوى المتدني من التفكر المحدود بحب الحياة الدنيا، والارتقاء به الى التفكر في الرابطة الوثيقة بين الحياة الدنيا والحياة العليا، بين هذه الحياة التي يحياها الآن، والحياة الآخرة التي تنتظره، حياة السمو والخلود، فيدعوه للانطلاق بتفكيره والتحرر من الحب الاعمى لهذه الدنيا، الى حب سام في معانيه، الى حب الحياة الآخرة " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا "(١) وعندها تزول إحدى العقبات ويبدأ الانسان بالتكامل الصفات.

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤٤ / ص ١٣٩ / رواية ٦.

## العقبة الثانية : التكبر

وحينما يعني التكبر التعالي على الآخرين، فانما يعني في نفس الوقت ان المتكبر يجهل نفسه، ويجهل ذاته فلا يتبادر له من ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (الانعام/٩٨) ولا من: "كلكم لآدم وآدم من تراب" (١)، اي معنى.

ولا ريب ان للتكبر اسباباً وتصحبه نتائج أيضا. إذ لو عاد الإنسان لنفسه لوجد أنه ضعيف بدرجة كبيرة لن يستطيع معها أن يخرق الأرض التي يعيش عليها، ولن يستطيع ان يبلغ الجبال طولا مهما تطاول واستعلى على بني جنسه. يقول الله تعالى: ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ (الاسراء/٣٧) غير أن الجهل بهذا المعنى، وقصور عقل المتكبر عن إدراكه هو الذي يدفعه للتظاهر بما ليس فيه فعلا، ومن ثم يعجز عن استقبال الحقائق فيلجأ الى الصلف والتعنت والمكابرة، فيركن الى التخلف والارتجاع والانتكاس. وهذه سمة المتخلفين الذين يعتزون بتخلفهم ويفتخرون بالمياه الآسنة العفنة التي يتخبطون فيها.

فليس غريباً ان نجد البعض يفتخر بالتخلف ويعتز بالإثم مباشرة او بصورة غير مباشرة، فيغدو قلبه كصخرة صماء بل أشد قسوة ؛ وان من الاحجار ما يتفجر منها الانهار، لكن قلب المتكبر لا ينضح ألا الحقد لاحساسه بالتأخر والتخلف، ويبدو جامد القلب لا يتأثر بصواعق العذاب وألوانه. تقول الآية الكريمة: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ

---

(١) بحار الأنوار / ج ٧٦ / ص ٣٥٠ / رواية ١٣.

مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة/٧٤) وهنا تستحيل نفس المتكبر الى مرتع ترتع فيه جنود الجهل فلا يعي معنى للرأفة بالناس والاهتمام بهم، بل ولا تجد الرحمة طريقا الى قلبه وعليه يكون التكبر عقبة في طريق تقدم الانسان .

ومنار الطريق انما هو القرآن الحكيم، الذي يذكر بالعقل، وبأن الانسان مخلوق ضعيف لكنه شريف رفيع حين يعقل الحقائق ويدركها. يأتي القرآن الكريم لينتزع ما في الصدور من غل ويذكر الانسان بانه جزء من المجتمع الانساني وان عليه ما على الناس وله ما لهم، ويدعوه للتواضع ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان/١٨) ويحذره من التعالي والطغيان ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ (العلق/ ٦-٧ ) وينير له الطريق فتزول عقبة التكبر ويعز الانسان ويكبر.

## العقبة الثالثة : الحسد

تتراكم عوامل عديدة في نفسية الانسان ثم تبدو جلية من خلال سلوكه وتصرفاته. وليس الحسد إلا ظاهرة بذيئة سببها الاول والرئيس هو الطمع، بل هو اليأس من رحمة الله الذي وسعت رحمته كل شيء. وحين ييأس الانسان من رحمة ربه يتهاوى في ظلمات الطمع الذي يجر وراءه حب الذات والحرص والغيرة والأثرة، ثم الانسياق الى الشرور والظلم والجور، وبالتالي الكفران بنعم الله سبحانه وتعالى.

وهل حب الذات إلاّ السخط وعدم الرضا بما وهبه الله تعالى للآخرين، وهل اليأس إلاّ التقاعس والخمول عن السعي وراء رحمة الله، وهل تعني الأثرة

إلاّ الرغبة بالانفراد بالمنافع والاختصاص بها دون الآخرين، كما أن الظلم والجور ليس إلاّ غصب الآخرين آمالهم وأموالهم وليس إلاّ استلابهم حريتهم وتطلعاتهم ؟؟

كل هذه العوامل والصفات حين تتجمع في ذات الانسان تغرس في نفسه الحسد ؛ والحسد شر إذا ساد الامة تفرقت وتمزقت، وراح كل فريق يسعى للإنفراد بما لدى سائر الفرقاء الآخرين والاستئثار به، وبالتالي يسود الامة الشحناء والبغضاء والاختلاف والتناحر، وتتلاشى صفات الخير وتضمحل الكمالات الروحية والمعنوية، وتنهدم الامكانات المادية تبعاً لها.

والقرآن الحكيم بآياته النورانية ينتزع الحسد من قلب الانسان ويذكر العقل بأن ﴿ **الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً** ﴾ (مريم/٧٦)، وأيضاً ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً** ﴾ (الاسراء/٣٠)، ويرشد الانسان بأن يعرض عن التفكير فيما هو بيد الآخرين، لان ما بيد الله سبحانه أوفر وافضل وابقى﴿ **وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** ﴾ (الاسراء/٢٠)، ثم هو يحث الانسان الى التوجه بالطلب من الله فحسب ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً** ﴾ (طه / ١٢٤)، والى ترك الجمود والاستكانة ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى** ﴾ (النجم/٣٩)، ويدعوه للسعي وراء الحصول على رحمة الله والتوكل عليه سبحانه وتعالى ﴿ **وَلَوْلآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً * فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً** ﴾ (الكهف/٣٩-٤٠)

## العقبة الرابعة : اللاعلمية

وتندرج تحت عقبة اللاعلامية او اللاعقلانية ثلاث صفات : طول الأمل، والتمني، والتضني. وكل من هذه الصفات رذيلة بذاتها وتستتبعها صفات رذيلة أخرى.

اما طول الامل فانما يعني الفرار من الحقيقة الى الوهم. يعني الفرار من رحاب الواقع الى كهف الحلم، وهذه هي اللاعلمية. وحينما يعيش الانسان آمال الخلود في هذه الدنيا الفانية، فانما يعيش أحلاما تتناقض مع الحقيقة والواقع. فالحقيقة تقول ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (الانبياء/٣٥)، وهذه قوافل الموتى رسل الله للانسان تنذره بالرحيل الذي لا بد منه. لكنها القلوب المريضة والعيون التي أصابتها الغشاوة لا تعقل هذه الحقيقة ولا تدركها، بل لعل هناك من يزعم بأنه سيخلد أبد الدهر والى مالا نهاية دون أن يصرّح بذلك بلسانه، بل تراه يكشف عن زعمه عبر أفعاله وممارساته. ففارق بين أن يقف الانسان امام الله تعالى متوجها بكل أحاسيسه وجوارحه الى ربه ليصلي صلاة مودع ؛ موقناً بأن إليه سبحانه وتعالى الرجعى ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا﴾ (الحج / ٧) وأنه ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَيَسْتَقْدِمُونَ﴾ (يونس/٤٩) فيؤدي صلاته منقطعاً الى الله عز وجل، إذ قد تكون صلاته هذه التي يقيمها الآن آخر صلاة له في هذه الدنيا، وحينها ستكون بالنسبة إليه معراجاً روحياً حميداً الى الله سبحانه وتعالى ؛ وبين أن يصلي الانسان متوجهاً بوجهه الى القبلة، وجوارحه الى جهات شتى، وأفكاره موزعة لا يدري أثنتين صلى الصبح ام ثمانياً، لأن آماله وأحلامه إنما هي فيما بعد هذه الصلاة بلحظة او بساعة وحتى بألف عام. وهذا

هو الهروب من الحقيقة، وهذا هو الفارق بين العلم والجهل، والنبي صلى الله عليه وآله يخط بين الاجل وبين ابن آدم خطاً ويقول : هذا ابن آدم وهذه آماله، ويخط بينهما خطاً ويقول : وهذا أجله يفصل بينه وبين آماله.

وأما التمني، فيعني ان الانسان اذا أراد شيئاً ما، فلابد ان يقرن إرادته بالفعل. إذ من المعلوم ان الوصول الى الهدف لا يتحقق إلاّ بالسعي والعمل، وحين تتجرد الارادة عن الفعل تصبح تمنيا. وليس التمني إلاّ حالة من الخمول والتقاعس، وليس هو إلاّ الهروب عن الحقيقة. وبالتالي ليس التمني إلاّ اللاعلمية ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَيَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ (البقرة/٧٨)، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج/٥٢)

ثم من يعيش حالة الوهم واللاعلمية لن يبقى متأخرا عن الركب فحسب، بل ويندفع الى الخلف والى الأسوأ والأردء، لانه ينتظر تغييرات وتحولات هائلة في هذا العالم دون ان يكلف نفسه السعي او ان يحرك ساكنا. وحين يحيا الانسان التخلف والانتكاس بدلاً من ان يعيش السمو والرقي والتقدم، فهو لايزداد إلاّ بعداً عن ربه كلما ازداد عمره، ولا يزداد قلبه إلاّ قساوة وبصره إلاّ غشاوة، وبالتالي لا يزداد إلاّ تيهاً وضلالة، فهو في نقصان دائم. والامام علي عليه السلام يقول : " من لم يكن في زيادة كان في نقصان؛ ومن كان في نقصان فالموت أولى به"، لأن حياته بالنسبة إليه لا تعني إلاّ الوهم والتمني، وبالتالي فلا تعني شيئاً بالنسبة الى المجمتع الذي يعيش فيه، فهو كَلٌّ على مولاه، وموته أولى من حياته.

وأما التظني، فيعني إلقاء الكلام على عواهنه دون أدنى روية او تأمل ينبئ عن

قصور في المعرفة والادراك. فحين ينطلق الانسان في كلامه واجاباته من الظن والخيال والحدس – وكلها تتناقض مع العلم – لا ريب ان إجاباته لن تصادف الحقيقة بحال، فلا تقع موقع القبول والتصديق من السامع. ثم إن الانسان حين ينجر للتظاهر بالمعرفة، انما يحاول التمويه والتغطية على عدم علمه بالامور فيستغني بظنونه وأوهامه وخيالاته عن العلم. وهذا ولاشك عقبة كأداء تقف امام الفرد فتعيقه عن التكامل.

## بالقرآن والسنة تتفتح أبواب العلم:

وأكبر العقبات التي تواجه الانسان هي الاسئلة الحائرة عند الانسان عن سر وجوده ؛ من أين أتى، والى اين يسير، من الذي جاء به، لماذا الحياة ولماذا الموت ذلك الحجاب الاعظم والنهاية المخوفة، ثم ماذا بعد الموت، واذا كانت السعادة هي الهدف في الحياة فلماذا الشقاء ولماذا الظلم والطغيان والحروب والفساد ثم لماذا الاضطراب والقلق؟؟

اسئلة حائرة دفعت بكثير من بني البشر للانزواء والأنطواء بعيداً عن التقدم والانكفاء على انفسهم والهرب خارج اطار الحياة الفاعلة.

إن هذه هي مجمل العقبات التي تعترض طريق التكامل الروحي والتقدم المادي للانسان، والعقل هو القادر على تصفية هذه العقبات، والقرآن الحكيم يذكر الانسان بهذا العقل من جهة، ويقوم هو أيضاً بتصفية العقبات اذا ما صغى الانسان الى آياته وتلقفها بكل قلبه وجوانحه، فعندما يتلو الانسان القرآن متجرداً عن التعقيدات، حينما يتلوه بخلوص يجد وكأن القرآن يحاكي فطرته ويناغي ذاته ويناجي قلبه، فيزيل عن بصره كل غشاوة بأنواره البهية الزاهية، ويروح الانسان

يستلهم العلم والمعرفة من ثنايا أحكامه فيتضح له السبيل. وحينئذ يضع الانسان قدمه على الطريق القويم فيدرك ان الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والارض، وانه جلت قدرته سخرها للانسان، وانه خلق ليعبد الله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات/٥٦)، ليتحسس طعم الحرية من خلال عبوديته لله الواحد الاحد ثم ليحضى برحمته، لان الله هو الرحمان الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء. وليدرك أيضاً بان العذاب الدنيوي ليس إلاّ دليل ظلم الانسان نفسه ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم / ٤١)، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (النحل/١١٨) ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت/٤٦). ثم ان ما أوتي الانسان من الخير بكل معانيه، انما هو من الله عز وجل؛ وما أوتي من شر فمن نفسه.

ان كل تلك الاسئلة الحائرة عند الانسان يجيب عنها القرآن إجابات بسيطة بليغة واضحة، واذا ما اتصل الانسان بنوره المضيء فانه يتحرك بسرعة هائلة نحو طموحاته وتطلعاته في التكامل والسمو المعنوي والتقدم الحضاري ويجتاز كل العقبات التي تقف عائقا امام مسيرة حياته.

ثم الاحاديث الشريفة في العقل والعلم هي الأخرى هداية وموعظة للانسان على طريق تكامله وسموه، والحديث الشريف عن الامام الصادق عليه السلام في جواب من قال: ما العقل؟ فقال: "ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان" (١)، وكذلك الحديث المطول حول جنود العقل وجنود الجهل؛ لاشك انه صادق في بيانه بدليل ان العقل نور وهبه الله تعالى للانسان لكي يتكامل به، وطريق التكامل

---

(١) بحار الأنوار / ج ١ / ص١١٦.

انما هو تلك الصفات التي يدعونا اليها الوحي. ثم إن التجارب تثبت صحة ما يدعونا إليه العقل والوحي، وعلينا أن نقرأ هذه الاحاديث بتأمل لتكون مناراً يهتدى به، ثم لتغدو جزءاً من حياتنا وكياننا نعمل بها ولا نمرّ عليها مروراً.

# العقل والقرآن صنوان

حين ينتقي الانسان كتاباً ما ؛ انما يكون لرغبة فيه، او لغرض يبتغيه، او لحاجة في نفسه يسعى لتحقيقها والوصول إليها. ثم إن الحاجة الى الكتاب ستنتفي بانتفاء الغرض وتحققه، وحينئذ يؤول الكتاب الى المكتبة إن لم نقل يهمل ويرمى في سلة المهملات. وبتعبير آخر؛ عندما يستوفي الانسان غرضه من الكتاب قلما يعود لقراءته او مطالعته ثانية وثالثة إلاّ ما ندر، وفي حالات يرافقها ولا شك نوع من الملل وحالة من الاشباع الناشئ من تكرار موضوعاته. لكن هذه الحالة منتفية تماماً حين يتلو الانسان القرآن الكريم، بل وواقع الحال يثبت العكس. فالانسان إضافة الى عدم احساسه بالملل والاشباع حين تلاوة القرآن، نراه وكلما تدبر في آياته يزداد شوقاً ورغبة إلى المزيد، فيروح يتلوه مراراً وتكراراً أياماً وليالي. وهذه الميزة وان كانت من دلائل اعجاز القرآن الكريم، فهي أيضاً تكشف وبكل جلاء حقيقة ان القرآن والعقل صنوان لايفترقان، لان القرآن يحاكي ذات الانسان ويخاطب فطرته؛ فينسجم مع أفكاره ومعانيه، وتتفاعل روحه مع عباراته فتهتز

لبيانه، وتحسس وعده ووعيده فتنهمر دموعه رغبة ورهبة.

## معرفة الرب أعظم نعمة :

وفهم آيات الكتاب الحكيم، والسمو الى مستوى التدبر فيه، واقتباس تجليات الرب عبر القرآن الكريم، يعتمد اعتمادا كليا على طريقة استقبال الانسان لتلك الآيات الكريمة، وذلك لان استقبال ذلك النور الالهي العظيم الذي أودعه الله سبحانه وتعالى في ثنايا آيات القرآن المجيد وعبر تفسير تلك الآيات من كلمات النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام يعتبر قرباً الى الله تعالى. إذ القرب إليه عز وعلا والتزلف إليه والعروج الى معرفته هو معرفة الانسان لربه التي هي أول الدين. ولسنا نعني بالقرب : المسافة ؛ فالله سبحانه وتعالى ليس بعيدا عن عباده بعد المسافة، بل هو قريب قرب العلم والاحاطة ؛ بعيد بعد العظمة والمجد " الذي بَعُدَ فلا يُرى وقرب فشهد النجوى". (١)

لعل أكثر ما يفكر به الانسان المؤمن في خلوصه في أعماله الصالحة هو أن يحضى برضا الله جلت قدرته، وبالتالي الفوز بجنات النعيم. فالله سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه العزيز : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً** ﴾ (الكهف/١٠٧) والذي ينبغي ان يقال إن الجنة التي وعد الله عباده المتقين وعباده المقربين ﴿**تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً**﴾ (مريم/٦٣) ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴾ (الحجر/٤٥) الجنة التي تعني الخلود ؛ السعادة الابدية، والتي تعني رضا الله سبحانه :﴿ **خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ (البينة/٨) والنعيم الذي

---

(١) دعاء الافتتاح / عن كتاب مفاتيح الجنان.

أعده لعباده الابرار ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ (المطففين/٢٢-٢٣) والتي ﴿لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ (الواقعة/١٩) تلك الجنة بما فيها من النعيم ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الاَرَآئِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ (الكهف/٣١) وبما فيها من خيرات ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ (الواقعة /٢٠-٢٣).. كلها تبدو قليلة متواضعة إذا ما قورنت بالنعمة الأعظم، نعمة معرفة الله عز وجل ومناجاته. والمؤمن تتلاشى أمامه كل النعم المادية حينما يرى ببصيرة ايمانه نور الله، ثم إن المؤمن الذي تعود على لقاء ربه، ووصل الى مقام القرب منه ؛ الى مقام المناجاة، مقام التكلم مع الله بقلبه تتضاءل في نفسه كل هذه الدنيا، بل والجنة بما فيها، في مقابل الوصول الى مقام عرفان الله سبحانه وتعالى، فيعبد الله لا خوفا من ناره، ولا طمعا في جنته، بل يجد ان الله أهل للعبادة فيعبده.

## الطهر شرط القرب لله تعالى :

إن السمو إلى مقام معرفة الكتاب الحكيم وادراك مفاهيمه، هو من مراتب القرب الى الله تعالى، لأن القرآن نور الله وكلامه. فآياته هي المعراج الذي يعرج به الانسان الى ربه ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (الزمر/١٨).

والذي يهديه الله تعالى ويوفقه لفهم القرآن انما هو الانسان الطاهر ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (الواقعة/٧٩) بكل ما في الطهارة من معنى النظافة والنقاء

والخلوص والخشوع والتسليم. إذ الانسان الزكي الخالص الصفي هو الذي ينال رتبة القرب الى الله جل جلاله، ذلك المقام الذي لا يمكن ان يناله الانسان الكافر الفاسق، الانسان المتكبر المتجبر، ولا يمكن ان يحلم به من يعيش ظلمات الفسق والكفر والتكبر والتعالي، لانها وغيرها من الصفات البذيئة الرذيلة إنما هي حجب وموانع بين الانسان وبين لقاء الله سبحانه ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ (الاسراء / ٤٥-٤٦).

وعودة قصيرة وجيزة يعود الانسان عبرها لنفسه ويراجع بها ذاته، سيجدها في إحدى حالتين لا ثالثة لهما ؛ فهو سيشعر ولا ريب بنور لقاء الله تعالى وبالقرب منه حين يخشع بكل جوارحه لله تبارك وتعالى، وحين ينتزع من نفسه كل شائبة ونقيصة، وحين يتنزه ويترفع عن الرذائل.. ذلك لان مقام الله جل وعلا مقام مقدس نزيه طاهر نظيف، فلا يستقبل هذا المقام إلاّ الانسان الخالص من كل دنيئة، الطاهر من كل رذيلة. وسيجد الانسان نفسه قريباً من الله حين يخشع، بعيداً عنه حين يتجبر ويتكبر؛ قريباً منه حين يرأف بالناس، بعيداً حين يظلم ويعتدي؛ قريباً حين يكون حليماً، بعيداً حين يكون غضوباً ؛ وبالتالي سيجد نفسه أبعد ما يكون من الله محجوباً عن نوره جل اسمه حينما تتغلب الرذائل على ذاته وتطغى على نفسيته، ذلك لان الغضب والفسق والاستهزاء بالآخرين والغيبة والنميمة والتهمة واللهو ومصاحبة الأشرار.. وغيرها من الصفات الدنيئة والخصال غير الحميدة، كلها ظلمات تحجب الانسان عن نور الله الذي لا يحجبه شيء، إلاّ أن العبد باعماله يحتجب عن نوره تبارك وتعالى، ففي دعاء أبي حمزة الثمالي

" وانك لا تحتجب عن خلقك إلا ان تحجبهم الاعمال دونك ". فالانسان الذي يرتكب الذنوب والخطايا، والذي يمارس المنكرات، والظالم الذي يسحق المحرومين والمستضعفين، والمتجاوز الذي لا يعي معنى للحرمات ؛ لا يمكنه بحال ان يستضئ بنور الايمان، ولا أن يحضى بلقاء الله تعالى، لأن أعماله ستقف سداً وحاجزاً يمنعه من القرب إليه سبحانه، بل ولا ينظر إليه الله يوم القيامة ويميل بوجهه الكريم عن مثل هذا العبد اللئيم.

الايمان بالله سبحانه هو الباعث الذي يحث المؤمن على تلاوة القرآن الكريم للاعتبار به والانعاض بمواعظه والائتمار بأوامره والانتهاء بنواهيه، وبالتالي للاستزادة من نور الله تعالى. وتلك أمور لاتتيسر إلاّ بإدراك مفاهيم القرآن واستيعابها، وهذه بدورها لا تتيسر إلاّ لمن أخلص نيته، وأول الخلوص هو التسليم والاذعان لأوامره ونواهيه. وليس من صفات الانسان المؤمن التكبر والتجبر، إذ الانسان المعاند الجاحد لا يمكنه أن يرتقي إلى فهم آيات القرآن، لأنه ليس في مقام القرب الى الله، وليس في مقام العروج إليه جل شأنه. فلم يكن في مستوى معرفة القرآن، لان قلبه محجوب بالعناد والتكبر، محجوب بالظلم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (المائدة/٥١) محجوب بالفسق ﴿ **وَاللَّهُ لاَيَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ (المائدة/١٠٨)

## حق تلاوة القرآن :

حق تلاوة القرآن أن يتدبر الانسان في آياته حينما يكون هدفه التنوّر بنور الله تعالى، وبالتالي القرب إليه عز وجل ﴿ **الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** ﴾ (البقرة/١٢١). وحين يطهر الانسان نفسه ويعدها لاستقبال

الانوار الالهية سيجد ولا ريب انه على سلم الارتقاء الى معرفة الرب، لانه سيستزيد علماً ومعرفة جديدة ترقى به الى مقام القرب من الله تعالى ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ (الانفال/٢ ).

وهذه النعمة العظمى انما تيسر للذي يتلون القرآن وهوفي حالة من التسليم والخشوع، وفي حالة من الرضا والقبول والانابة إليه جلت قدرته ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ (المائدة/١٦)، ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى/١٣) .

فلا عجب أن نرى المؤمنين – وهم يتلون آيات القرآن الحكيم – ترتعد وترتجف فرائصهم، ولا عجب أن تنساب دموعهم رهبة من عذاب الله تعالى ورغبة في الله واطمئناناً إليه والى رحمته ورضوانه.. لان القلوب التي لا حجاب بينها وبين الله تعالى، وجلة خائفة من عذابه وغضبه، لكنها وفي عين الوقت مطمئنة الى رحمته ورضوانه. ذلك هو الخلوص بعينه، وذلك هو التسليم بذاته بل ذلك هو السمو والتكامل والرقي الى مقام القرب من الله جل وعلا.

وعندما لا يكون الانسان بمستوى التقرب الى الله تعالى، لا يكون بمستوى معرفة آيات القرآن الكريم أيضاً. فلا تتجاوز آياته الشفاه لكثرة الذنوب والمعاصي " رب تال للقرآن والقرآن يلعنه ". إذ التدبر لا ينسجم مع حالة الغفلة عن ذكر الله تعالى ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (ص / ٢٩)، أن الغفلة عن ذكر الله انما تعني الصيرورة الى الضلال، وذلك يستصحب – ولا ريب – الضياع في متاهات الرذائل دون وجل او خوف من ارتكاب المعاصي والاتصاف بالظلم والتكبر والحسود، وما الى ذلك من

الصفات الدنيئة البذيئة. ومثل هذا الانسان لا يبحث عن رضا الله قطعاً ، وانما يبحث عن رضا الطاغوت، لأنه لا ينيب الى الله فيقى حيث هو ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة/٢٥٨).

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تنذر وتتوعد الكافرين والظالمين والفاسقين بعدم الهداية، الذي يعني بدوره خسران الدنيا والآخرة ﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (المنافقون/٩). وليس هو الخسران فحسب، بل هو المزيد من الشقاء والانحطاط ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ (الاسراء/٨٢)، ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ (المائدة/٦٤).

وحالة التسليم والرضا تستوجب من الانسان ان يدفع عنه المعاصي، وتتطلب منه التوبة الى الله والانابة إليه تعالى. وحينها سيجد في القرآن نوراً يبصر به الناس ويرى به الطبيعة، بل ويرى كل ما حوله. ولا غرابة حينئذ إذا ما قرأه على ميت فأحياه الله، ولا عجب إذا ما قرأه على جبل فتحرك أو على أرض فتقطعت. ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرءَاناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ (الرعد / ٣١).

ثم إن حالة الرضا والقبول تتطلب التوجه من العبد بكل جوارحه لكلام ربه، وعدم الانشغال عنها، بل الانصات والاستماع لتوجيهاته جل وعلا، والاعتبار بمواعظه وأحكامه مباشرة ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الاعراف/٢٠٤)

اما لو كان الغرض التلاوة فحسب دونما نزاهة، او ان يكون الهدف عدّ ما يتلى

من الآيات والاحزاب والسور، أو أن يكون همّ القارئ عدّ الصفحات وقضاء الساعات دونما تدبر واتعاظ.. فذاك لا يعني طلب نور الله، فلا يعني - بالنتيجة - القرب إليه تعالى، بل هو اللهو والغفلة ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ (العنكبوت/٤٩).

## القرآن والعقل :

ويبقى القرآن الى جانب العقل في تخطي كل العقبات التي تحول دون سمو الانسان المعنوي والحضاري، كما ويعطيان الانسان فرصة النمو ؛ وحين ينمو الانسان تسمو روحه، وتتزكى نفسه، ويعرج عبر معارج المعنويات الى ربه.

وهذا ما يتجلى في وصية الامام موسى بن جعفر عليه السلام لهشام ابن الحكم، فيقول عليه السلام :

(يا هشام ؛ إن الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُولُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر/ ١٧- ١٨] )، والالباب هي العقول، ومنه يتبين أن الله تعالى خص ذوي العقول بالبشارة.

( يا هشام بن الحكم ؛ إن الله جل وعز اكمل للناس الحجج بالعقول وأفضى إليهم بالبيان ودلهم على ربوبيته بالأدلة ).

وفي هذا إبطال لقول من قال من المسيحيين بعدم إرتباط العقل والعلم بمسألة الايمان، فراحوا يفلسفون تناقضاتهم فيقولون الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، وهذا في فلسفتهم وإن كان لا يتحقق في علم الرياضيات لكنه يتحقق بالايمان فحسب، وعليه - وفي اعتقادهم - أن الايمان يختلف عن العلم، والامام عليه السلام يرد

هذه النظرية في وصيته لهشام فيقول : ( إن الله عز وجل أكمل للناس الحجج بالعقول ). فالعقل هو الذي يدرك الحجة الالهية ويفهمها، ثم أفضى إليهم بالبيان ودلهم على ربوبيته بالأدلة والبراهين إذ الادلة ذات قيمة وذات وزن فقال : ( ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَآ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمآءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة/١٦٣-١٦٤] ). فآيات الله ليست لمن لا يعقل، بل هي للذين يعقلون. وقال : ( ﴿حـم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف/ ١-٣] ).

و﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ تعني أن الحكمة من وراء هذه الآيات هو العقل، إذ العقل مهم فهو الهدف من الآيات القرآنية. وقال : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم / ٢٤). فالقرآن الكريم يخاطب الذين يعقلون وليس العقلاء، إذ من المعلوم أن الله سبحانه وهب للانسان نور العقل فالبعض يستخدم عقله فهو من الذين يعقلون، والذين هم موضع خطاب القرآن. أما البعض الآخر الذي يتقوقع على نفسه فيحد من تفكره ويعمل على تجميد عقله فليس هو المعني وليس هو المخاطب من خلال هذه الآيات.

ويضيف الامام عليه السلام في وصيته لهشام :

( ياهشام ؛ ثم وعظ أهل العقل ورغبهم في الآخرة فقال : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ

﴿ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الانعام/ ٣٢] ).

ومنه يبدو جلياً أن العاقل هو المخاطب، لأنه يستطيع بعقله استيعاب الموعظة والاستفادة منها. وذو العقل هو الذي لا يحصر تفكيره بيومه، بل ينطلق به بعيداً الى آفاق المستقبل. وهذا على العكس في الجاهل الذي لا يرى إلاّ يومه، فهو قاصر في تفكيره لا يتعدى حدود اشباع غرائزه.

( ثم وعظ أهل العقل ورغبهم في الآخرة فقال : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الانعام/٣٢] )، وتلك هي حقيقة الحياة الدنيا، إذا ما قيست بالحياة الآخرة.. إنها قصيرة لا تكاد تذكر، إذا ما قورنت بعمر هذا الكون منذ وجوده والى ما دامت السماوات والارض، إن الانسان يجتاز الحياة وكأنه يؤدي دوراً في مسرحية ذات فصول قصيرة حين لا يستخدم عقله وتفكيره. لكنها ولمن يعقل ليست إلاّ تمهيداً لحياة النعيم الأبدي واستعداداً لحياة الخلود. والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (الانعام/٣٢) فهي ليست خيراً للذين لا يعقلون فيلهون ويلعبون ويوغلون في المآسي والمشاكل والذنوب.

( وقال : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص/٦٠] ).

فالمطلوب إذن أن يستثير الانسان عقله فيزيده نورا ويخرجه عن حالة الركود والجمود، ليدرك أن ما أوتي من خير في هذه الحياة الدنيا انما هو مؤنة الطريق يتمتع به، وإن هو إلاّ زائل لانه زينة تلهيه وتشغله عن نعمة دائمة تعقب هذه الزينة، اعدت لمن أدرك حقيقتها فاتقى وسعى في رضوان الله تعالى.

( يا هشام ؛ ثم خوف الذين لا يعقلون عذابه فقال : ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ [الصافات/١٣٦] ).

الذين تركوا عقولهم جانباً ولم يستخدموها فلم يدركوا حقيقة الحياة الآخرة، وراحوا في متاهات الجهل يلهون ويعبثون ويلعبون متمتعين بحاضرهم دون أدنى نظرة الى المستقبل، فان الله سبحانه وتعالى يتوعدهم بالهلاك والدمار ( ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات/ ١٣٧-١٣٨] ).

( يا هشام ثم بين ان العقل مع العلم فقال: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت/ ٤٣] ).

فعلامة العقل بالعلم، تلك العلامة التي اوضحها الامام لهشام بن الحكم، إذ العقل هو هبة الله لعباده، ولكن كيف يزيده الانسان وينميه ؟ إن هو إلاّ العلم ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾.

( يا هشام ؛ ثم ذمّ الذين لا يعقلون فقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة /١٧٠] ).

فالله سبحانه وتعالى يدعو عباده للتقدم والتطور بتنمية العقل وتطويره بالاستزادة من نور العلم، فليس الجمود والركود على ماكان عليه الآباء والاجداد إلاّ ضرب من الحمق والحمق من الجهل، وليس هو إلاّ الرجعية التي تعد من العقبات الكأداء التي تعيق مسيرة حياة الانسان، ( وقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الانفال/٢٢)، وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

**لاَيَعْلَمُـونَ** ﴾ (لقمان / ٢٥) ثم ذم الكثرة فقـال : ﴿ **وَإِن تُطِـعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ** ﴾ (الانعام / ١١٦) وقال : اكثر النـاس لا يعقلـون وأكثرهم لا يشعرون ). (١)

(١) بحار الانوار / ج ١ / ص ١٣٢.

# مصادر الفلسفة الاسلامية

قبل أن يلتحق رسول الله صلى الله عليه وآله بالرفيق الاعلى، خطب خطبة شهدها أغلب المسلمين وسجلها الرواة بأسانيد مختلفة وتعابير متقاربة ومتشابهة، وكلها تقريباً تدور حول خلافة الرسول والتي تمثلت في شريعة وإمام، فقد روى مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وآله فينا خطيباً.. وذكر خطبة النبي صلى الله عليه وآله ثم قال : أما بعد أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، واني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه النور فخذوا بكتاب الله... إلى أن قال : وأهل بيتي وروى ابن داوود في صحيحه وكذلك الترمذي بأسنادهما المعروف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : إني تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، وهو كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فأنظروا كيف تخلفوني في عترتي ؟

والاحاديث حول هذا المضمون متواترة، لكن السؤال المطروح ماذا يعني وجود الكتاب بين أظهرنا، وماذا تعني خلافة الرسول صلى الله عليه وآله؟ وقبل الاجابة عن هذا السؤال لابد من البحث عمّا هو المهم في حياة الانسان. أهي بصيرته إلى الحياة ورؤيته لما حوله في هذا العالم أم هي مفردات سلوكه ؟ وبتعبير آخر: هل المهم صلاة الانسان وزكاة ماله وصدقه في الحديث ووفائه كمفردات سلوكية، أم عقيدته باليوم الآخر والرسالة وضرورة التقوى كأصول عقائدية؟

**الاصول والفروع :**

لاريب أن الصدق والوفاء والصلاة والزكاة وما شابهها كلها فرع العقائد وفرع بصائر الانسان. إذ أن صلاة بلا قاعدة إيمانية ليست إلا رياضة جسمية. وزكاة بلا خلفية عقائدية ليست إلاّ عطاءً مبتوراً، ثم إن الانسان يفقد صفات الخير من صدق ووفاء وأشباههما حين لا يؤمن بالآخرة ولا يؤمن بالجزاء وحين لا يبني حياته على أساس من المسؤولية والتقوى.

من خلال هذه التساؤلات يتضح أن خلافة الرسول صلى الله عليه وآله من بعده المتمثلة في الكتاب والعترة، والمتجلية في هذين الثقلين العظيمين، لا تعني مجرد إقتباس الاحكام الشرعية منهما فحسب، بل وتعني إستلهام المعارف الالهية والرؤى الكونية، وإستنباط الثقافة السليمة الصحيحة تجاه الحياة. ومن هنا جاء تأكيد الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله على إستمرار نهجه، وعلى إتباع سيرته وأفعاله وممارساته، لانه، صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعو الى الله " وداعياً الى الله بإذنه "، ولانه صلى الله عليه وآله كان " سراجاً منيراً " ليس بالنسبة للصلاة فقط، بل وبالنسبة الى الكون بأكمله أيضاً، ولانه بعث ليتلو آيات الله تعالى

وليزكي النفوس ويعلمهم الكتاب ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ (الجمعة/٢) فتزكية النفوس وتعليم الكتاب هي من أهم مسؤوليات الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم ليخرج الناس من الرؤى المعكوسة للحياة، إذ لو كانت رؤية الانسان للحياة معكوسة، ولا يرى فرقاً بينه وبين الحيوان، أو كان دهرياً لا يرى وراء هذه الدنيا عالماً آخر، وأنها هي نهاية المطاف ونهاية الطبيعة، أو كان الانسان منكراً للحقائق العقائدية، فلا يرى للجزاء وجوداً؛ فلا معنى حينها لصلاته ولا تنفعه زكاة ماله وما أشبهها.

من هنا يتجلى لكل لبيب معنى خلافة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم وتتضح له أبعادها اللامتناهية، وأنها ليست منحصرة في الفروع فقط وإنما هي قبل ذلك في الاصول، كما إن ولاية أهل البيت عليهم صلوات الله لاتعني مجرد اتباعهم في المسائل الفقهية الفرعية فحسب. بل إن الاعتقاد بولاية أهل البيت عليهم السلام يعني الاعتقاد بنهجهم وسيرتهم في الحياة، ويعني موالاتهم في رؤاهم وبصائرهم ، اذ إن توجيهاتهم وأحاديثهم عليهم السلام لم تكن منحصرة في الفروع، تماماً كتوجيهات وأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله، بل الفروع لم تكن تشكل إلاّ جزءً يسيراً من أحاديثهم، أن الغالبية العظمى من كلماتهم عليهم السلام ، إنما كانت تدور حول العقائد.. حول التوجيه الى الله تعالى، وتفسير الخلقة، وبيان الكون، وبيان طبيعة الانسان، ثم بيان الاخلاق الحسنة والتوجيه الى الآخرة وبيان فلسفة الآخرة وبيان حكمة الخلق، الى غير ذلك من البصائر المتجلية في كلام وسيرة الرسول الاعظم والأئمة من أهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين.

## حقيقة الولاء :

لو يسأل الموالي لأهل البيت نفسه عن حقيقة ولائه لهم، سيجد بلا ريب أن موالاته لهم لم يكن لمجرد أنهم أهل بيت النبوة فحسب، بل لعله - وحين يتجرد عن عواطفه ويرجع الى حقيقته - سيجد أنه أنما يواليهم ويحبهم لأنه يجد فيهم مناراً له في حياته، وعنواناً يبحث عنه ليعنون هويته الاسلامية، ومن هنا - وإذا كنّا من موالي أهل البيت عليهم السلام ومن شيعتهم - لا بد وأن نبحث في كلماتهم المضيئة، إذ الولاية لا تتحقق بمجرد الحب لأهل بيت الرسول عليهم السلام ولا تتأتى من دون مطابقة الانسان لحياته مع حياتهم بالعمل بما كانوا يعملون، وإنتهاج ما كانوا ينتهجون، ولعله من الموارد التي تؤخذ على كل من يعتقد بولاية أهل البيت عليهم السلام هو أن يدّعي ولايتهم، لكنه وفي نفس الوقت بعيد عن حياتهم، بعيد عنهم في سلوكياته وممارساته، بل وبعيد عنهم في ثقافته ورؤيته الى الحياة وبصيرته حول الكون، وبالتالي بعيد عنهم في فلسفته.

ثم إنه من العجب أن يخادع الانسان نفسه، ويردد صفات أحد الأئمة عليهم السلام ويخاطبهم: " إن كلامكم نور وأمركم رشد ووصيتكم التقوى وفعلكم الخير "، وهو بعيد غاية البعد عن حقيقة ما يقول. ومن الغريب كل الغرابة أن يدعي الانسان حبه لأهل البيت عليهم السلام فيقول : " أني سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم موالٍ لمن والاكم "، لكن دعواه هذه ليست إلاّ لقلقة لسان لا غير، وذلك لانه يقف عاجزاً متحيراً عن الاجابة حين تسأله عن النهج الذي يؤمن به، وهو بعيد عن فلسفة أهل البيت عليهم السلام ، غريب عن مفاهيمهم بالنسبة الى الكون والحياة والى الانسان نفسه.

ولعل هناك من يدّعي أن ليس في توجيهات وأحاديث أهل البيت عليهم السلام فلسفة ما، ولكن هل يستطيع الانسان أن يؤمن بدين لا فلسفة فيه؟.

**فلسفة القرآن :**

ونحن نقول لمثل هؤلاء : هاهو القرآن الكريم، من بدايته الى نهايته فلسفة، لكن فلسفته تختلف عن فلسفة الاغريق، ففلسفة القرآن ظاهرها أنيق وباطنها عميق، ظاهرها حِكم وباطنها علم، له تخوم ولتخومه تخوم، له بطن الى سبعة أبطن، وقد علم النبي العظيم صلى الله عليه وآله فلسفة القرآن لعلي في اللحظات الاخيرة من حياته، والذي قال عنه الامام عليه السلام : علمني رسول الله باباً من العلم ينفتح لي منه الف باب، وأبواب العلم تلك لم تكن في الصلاة والصيام فقط، وهذا ما يشهد عليه كلامه عليه السلام الماثل أمامنا. فخطبته في صفات الله، وخطبته في الطاووس، وخطبته في النحلة، وفي النخلة وكلماته التي تبين رؤيته الى الحياة تلك الكلمات التي ملأت الآفاق، هي التي علمه إياها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

إن كل الاديان الالهية والثقافات البشرية لابد وأن ترتكز على قاعدة فلسفية مختصة بها، وهذا الذي يدعونا الى الحذر والتبصّر. فقد لايقتنع انسان بالفلسفة الدينية، وهذا لايعني أنه لايؤمن بفلسفة قط، فتفكيره ونظرته الى الحياة، ثم سلوكه فيها، لابد أن يكون مبنياً على رؤية معينة.

إن الولاية لاهل البيت تعني وقبل كل شيء : التخلق بأخلاقهم وأخذ العلوم والمعارف عنهم عليهم السلام، وفي الحديث عن الامام أبي جعفر الباقر عليه السلام انه قال : " من دان الله بغير سماع عن صادق ألزمه الله التيه الى يوم

القيامة ". (١) وليس القصد من علم أهل البيت عليهم السلام هو علوم التكنولوجيا والرياضيات وأمثالها من العلوم المختبرية، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآلهيحث على طلب مثل هذه العلوم من أي شخص، ومن أي مكان، حيث يقول صلى الله عليه وآله وسلّم: " إطلب العلم ولو بالصين" (٢) و: "الحكمة ضالّة المؤمن يأخذها أنى وجدها ". (٣) بل المقصود بالعلم الذي لايؤخذ إلاّ من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله هو : علم التوحيد وعلم العقائد وعلم الثقافة والمعارف الالهية.

إن مجرّد التعبير عن حب أهل البيت، لا يمكن توجيهه بحال، فلا معنى لأن يكون الانسان محباً لهم مؤمنا بهم، بينما نراه يضع حلّ إهتمامه لدراسة كتب هذا وذاك، تراه يقرأ كتباً لبرتراند راسل ولجان جاك روسو، يقرأ لفولتير ولوليام جيمز وديكارت ولكونت ولماركس وماكس فيبر ولآخرين غيرهم، بينما يضع جانباً نهج البلاغة والصحيفة السجادية وسائر الادعية المنقولة عن الأئمة عليهم السلام بما احتوتها من المعارف والبصائر، وبما إنطوت عليه من غزير العلم وعمق البصيرة. فكيف يمكن أن يعتبر الانسان نفسه موالياً لأهل البيت، بينما يأخذ فلسفته من غيرهم ؟!

اننا نقرأ في القرآن كلام الله جلّ شأنه ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ (عبس/٢٤) وفي تفسير هذه الآية يقول الحديث الشريف عن الامام ابي جعفر

---

(١) بحار الأنوار / ج ٢ / ص ٩٣ / رواية ٢٤.

(٢) المصدر / ج ١ / ص ١٧٧.

(٣) المصدر / ج ١ / ص ١٤٨.

عليه السلام عندما سئل عن معنى الطعام قال: "علمه الذي يأخذه ممن يأخذه". فكما تعاف النفس العطشى المياه الآسنة، وتتلهف للارتواء بالمياه الصافية، والاغتذاء بالغذاء السليم الذي هو قوام الجسم، كذلك نفس المؤمن تعاف الانحرافات والخرافات والاساطير، وتصبو الى الفكر السليم الخالي من كل شائبة، هذا الفكر الذي يشكل بدوره طعام الروح، وإلاّ ألزمها الله تعالى التيه الى يوم القيامة. إذ لعل فكرة واحدة تضل الانسان ضلالاً بعيداً بُعد السماء عن الارض.

ونحن حينما نتوجه في صلواتنا الى الله تعالى وندعوه ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّآلِّينَ** ﴾ (الفاتحة/٦-٧) إنما نسأله جلّت قدرته أن يجنبنا التيه والضلال ويعصمنا عن كل زلل، ولاريب أن ذلك يتمثل فيما يتمثل بالاهتداء بنهج الرسول وأهل بيته الكرام.

**الحب المجرد.. لايكفي :**

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نقول : إن ولايتنا لهم عليهم السلام لا تعني مجرّد الحب، كما لا تعني مجرّد إقتباس معالم ديننا منهم في الأمور الفرعية فحسب، وانما تعني قبل ذلك اقتباس ثقافتنا من ثقافتهم، وفلسفتنا من بصائرهم.

صحيح أنه لا تقليد في أصول الدين، ولكن هذا لا يعني العزوب عن منهج الرسول وأهل بيته عليهم السلام بل على المؤمن أن يستمع لهم، وأن يقرأ لهم، وبعدئذٍ هي القناعة لا غير. أما ألاّ يقرأ الانسان لهم، ولا يستمع لأقوالهم، أو أن يقرأ لهم قراءة سطحية دونما تعمق أو تبصّر، فيكون بعيداً عن تلك الثروة الهائلة من معارف الرسول وأهل البيت عليهم السلام، فذاك هو المرفوض.

ومن هذا المنطلق يلزمنا أن نستعرض بعض الاحاديث بخصوص ما نحن فيه، فعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : " إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ".. لكننا نحن المسلمين اليوم ضللنا ذات اليمين وذات اليسار، تبعّضنا الى عشرات من الفرق، لأننا لم نتمسك بهدى الله تعالى، ولم نعتصم بكتاب الله العزيز الذي هو الحبل الممدود بين الانسان وبين ربه، والله تعالى يقول : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً** ﴾ (آل عمران /١٠٣) كما تركنا عترة الرسول صلى الله عليه وآله التي لن تفترق عن الكتاب. ولعل قائل يقول : أنا آخذ بكلام أهل البيت عليهم السلام وأترك القرآن، أو آخذ بكتاب الله دون عترة الرسول وأهل بيته.

لكن الامام أمير المؤمنين يقول : " قال رسول الله صلى الله عليه وآله إنني امرؤ مقبوض وأوشك أن أدعى فأجيب وقد تركت فيكم الثقلين أحدهما أفضل من الآخر كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض" وتلك هي ساعة اللقاء بالرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم عند حوض الكوثر وأكبادهم تلتهب عطشاً يستسقون ذلك الشراب الطهور من الرسول صلى الله عليه وآله والرسول يسقي بعضهم ويذود آخرين عن الحوض لأنهم خالفوا تعاليمه.

وعن زيد بن أرقم : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ".

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلو بعدي : كتاب الله عز وجل وعترتي أهل

بيتي " ثم قال : " اللهم إشهد اللهم إشهد " فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم عمل المستحيل مدّة ثلاث وعشرين سنة من التبليغ، لكي يخلف بعده منهجاً متكاملاً كي لايضل المسلمون من بعده، ويشهد الله تبارك وتعالى ثلاث مرات، فمن قبل فذاك هو المطلوب، ومن لم يقبل فعليه وزره .

وعن جابر الانصاري الصحابي أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " يا أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين، الثقل الأكبر والأصغر ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا، ولا تبدّلوا وإني سألت اللطيف الخبير ألاّ يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فأعطيت ذلك، قيل : وما الثقل الاكبر والاصغر ؟ قال : الأكبر كتاب الله سبب - أي حبل - طرفه بيد الله وسبب طرفه بأيديكم، والثقل الاصغر عترتي أهل بيتي.

والامام الكاظم سلام الله عليه يفسّر كلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عند قول : " إني تارك فيكم الثقلين فتمسكوا بهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، ويعني عليه السلام ان كتاب الله تعالى مجمل يحتاج الى تفسيروتأويل، والتأويل إن هو إلاّ عند أهل البيت صلوات الله عليهم.

والروايات بهذا الصدد كثيرة جداً، ولعل ما ذكر منها يفي بالغرض، إذ الجوهر واحد، والتعابير متقاربة فيما يربو على مئتي رواية مسندة من كبار صحابة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم والتابعين وتابعي التابعين، فهي سلسلة ذهبية صحيحة أجمع عليها كل المسلمين ومن كل الفرق، يجدر بالمفكرين الاسلاميين الذين أهملوا طويلاً هذا المخزون العلمي العظيم المتمثل بالاحاديث والادعية أن يعودوا إليه ويستنبطوا منه رؤىً وبصائر ومعارف إلهية.

# الباب الثالث

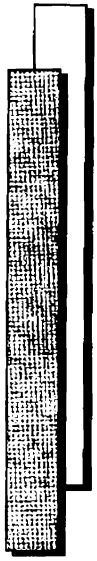

# مبادئ الحكمة

# في رحاب معرفة الله

بأية وسيلة يعرف العبد ربه ؟ لا سيما وأننا نعلم بأن الحواس عاجزة عن إدراك الرب، فهو لا يُحس و لا يُجس. فيا ترى هل العقل أو العلم هو الوسيلة الى معرفة الرب أم هناك شيء آخر ؟

## اقسام المعرفة :

وقبل الاجابة عن هذا السؤال، لابد لنا من أن نقسم المعرفة الى قسمين :

الأول ؛ هو الإذعان والتسليم بأن لهذا الكون مديراً مدبراً وصانعاً مهيمناً عليه، ثم العلم بأن كل محتاج لا يمكن أن يكون غنيا بالذات، فالذي يحتاج الى الطعام والشراب والصحة والأمان، هو بحاجة ملحة الى المكان والزمان والى الآخرين. وإن من كانت هذه حاله لا يمكن أن يكون إلهاً، إذ المفترض بالإله أن يكون غنيا عن كل افتقار. إن هذه الحقائق البسيطة وغيرها إنما نعرفها بالعقل الذي أودعه الله سبحانه وتعالى فينا، حيث العقل مفطور على الاعتقاد بان لكل شئ حادث سبباً، وأن لكل معلول علة. وهذا المقدار من المعرفة قد تكفل العقل بإدراكه.

الثاني؛ هو الذي يحقق لنا الشهود والحضور، او اليقين حسب التعبير القرآني ؛ المعرفة التي تحقق الايمان وتكرسه في ضمير الانسان ووجدانه، هذه المعرفة هي التي نتساءل عن مصدرها وعن الأداة والوسيلة التي تتأتى عبرها. فهل العقل هو الذي يحملنا الى الكون في رحاب الله تبارك وتعالى لنعيش في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، لنخاف مقامه ونشعر بوجوده ونلتذ بمناجاته ؟ هل العلم هو الذي يستطيع أن يوّضح لنا ربنا. أم شئ آخر ؟

كلا.. فالاشياء مظلمة بذاتها، ونحن نحتاج لرؤيتها الى من يضيئها وينوّرها، والشئ النورانّي الوحيد والأوحد هو الله تبارك وتعالى. فهو نور بذاته غير مظلم، وما العقل الذي نتمتع به الا اسم من أسماء الله ونور من أنواره. فالذي خلق العقل والغنى والنور لا يمكن أن يكون جاهلا أو فقيرا أو مظلما. فهو هو، قد دل بذاته على ذاته. فالله اكبر وأعظم من أن يكون العقل هو الهادي إليه ؛ لأنه هو الذي أعطى العقل قابلية الادراك، فنور الله اكثر إشراقاً - بما لا يحصى - من نور العقل.

وفي هذا المجال لا بد لنا من التدبر فيما جاء من أدعية ومناجاة على لسان أئمة أهل البيت عليهم السلام لتتضح لنا الصورة أكثر فأكثر، من قبيل ما جاء في دعاء عرفة للامام الحسين عليه السلام حيث يقول : " أو يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو الشاهد عليك والدليل إليك ".

هل يمكن ان تكون الشمعة دليلاً الى الشمس ؟! كلا ؛ فأين الشمعة من الشمس..

إذاً فنحن إنما نعرف ربنا بتعريفه إيانا، حيث نحن عديمو القدرة على الوصول

إليه، ولكن الله هو الذي يتفضل على عباده فيخرق حجب الظلمات ويبلغنا معرفته، ونحن نقرأ دوما : " الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله". وهذا اعتراف بالحقيقة المتقدمة الذكر بأن الله وحده مصدر الهداية والمعرفة إليه دون سواه.

## هو الوسيلة الى ذاته :

وهناك الكثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والروايات تدل على الحقيقة القائلة بأن الله لا تعوزه وسيلة ولا يعجزه دليل الى التعريف به، بل هو الوسيلة الى ذاته والدليل على وجوده. وهذا الاعتقاد بحد ذاته بمثابة التنزيه ونفي الشريك لله تعالى على أتم الوجوه.

ومن تلكم الآيات قول الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (المؤمنون/٩١-٩٢) فوصف الانسان بقابلياته المحدودة مهما يكن فهو وصف ناقص.

وفي آية كريمة أخرى يقول ربنا سبحانه : ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِروحٍ مِنْهُ ﴾. (المجادلة/٢٢) فالله جل جلاله هو الذي أودع الايمان في قلوب أحبائه وثبته في وجدانهم وأيدهم بروح منه.

وثمة آية مباركة تقول : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الفتح/٤)، ولا يخفى أن كلمة ﴿هُوَ﴾ اسم للذات الالهية المقدسة، وذات الله هي التي تحاور قلب ووجدان الانسان المؤمن وتزوده بالسكينة واليقين الذي هو

أرفع درجات المعرفة.

ثم يقول ربنا عز وجل في آيـة أخرى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لا تَمُنُّوا عَلَـيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَـانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِـينَ ﴾ (الحجرات/١٧) فمن كان يدعي الإخلاص في نفسه فلا بد له من الاعتقاد بأن الايمان الذي هو بمثابة المقدمة للاخلاص إنما كان مصدره الله سبحانه وتعالى.

وتتحدث الينا آية شريفة أخرى بالقول : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحجرات/٧-٨) وفي هذا السياق المبارك إشارات لا لبس فيها بأن فضل الله تعالى قد فاض على حدود المعرفة والعلم ليشمل العواطف التي هي قسيم العلم؛ وكل ذلك رحمة من الله ومنة ليزداد العارف معرفة والمؤمن إيماناً.." اللهم أذنت لي بدعائك ومسألتك فأسمع يا سميع مدحتي وأجب يا رحيم دعوتي وأقل يا غفور عثرتي"(١) فالانسان؛ هذا العبد الضعيف الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، إنما هو ذرة متناهية في الصغر لا قيمة له أمام جبار السماوات والارض حتى يكون أساس معرفته بربه نابعاً منه.

وآية أخرى تشير الى إن : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (البقرة/ ٢٥٧) فإذا كانت الذنوب بمثابة الظلمات فالجهل والنقص أخرى بأن يوصفا بالظلمات، لا سيما وأنهما أساس الذنوب والخطايا. والله جل ثناؤه هو المتفضل على الانسان بأن عرفه نفسه ليعطي هذا العبد الضعيف شوقاً الى

---

(١) دعاء الافتتاح عن مفاتيح الجنان.

مصدر العلم والكمال، وليحاول الاتصال بالساحة القدسية منفكا عن الذنوب والخطايا.

وقد سأل سائل الامام أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن المعرفة، هل هي من صنع الله وليس للعباد فيها صنع؟ فأجاب الامام : فاعلم رحمك الله ان المعرفة من صنع الله عز وجل في القلب مخلوقة.(١) فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء.

وسائل آخر يقول للامام عليه السلام : أصلحك الله !. هل جعل في الناس أداة ينالون بها المعرفة ؟ قال عليه السلام لا. قلت : فهل كلفوا المعرفة ؟ قال عليه السلام : لا ؛ إن على الله البيان، لا يكلف الله العباد إلا وسعها ولا يكلف نفساً إلا ما آتاها. (٢)

وفي رواية أخرى يسأل الراوي الامام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام : هل في الناس استطاعة يتعاطون بها المعرفة ؟ قال : " لا ؛ إنما هو تطول من الله ". قلت : أفلهم على المعرفة ثواب إذا كان ليس فيهم ما يتعاطونه بمنزلة الركوع والسجود الذي أمروا به ففعلوه ؟ قال عليه السلام : " لا إنما هو تطول من الله عليهم وتطول بالثواب ". إذاً فالله يتفضل علينا بالمعرفة ويتفضل علينا بالثواب ولا يزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً.

ويقول الامام جعفر الصادق عليه السلام : ستة أشياء ليس للعباد فيها صنع : المعرفة والجهل والرضا والغضب والنوم واليقظة. (٣)

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٣٠ / رواية ٣٩.

(٢) المصدر / ج ٥ / ص ٣٠٢ / رواية ١٠.

(٣) المصدر / ج ٥ / ص ٢٢١ / الرواية ٢.

وحول تفسير آية الذرّ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ (الاعراف/١٧) يقول الامام الصادق عليه السلام : كان ذلك معاينة الله فأنساهم المعاينة وأثبت الإقرار في صدورهم ؛ ولولا ذلك ما عرف أحد خالقه ولارازقه وهو قول الله " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ". (١) وفي رواية أخرى : ليس لله على خلقه أن يعرفوه وللخلق على الله أن يعرفهم، ولله على الخلق إذا عرفهم أن يقبلوا.

وفي رواية مضمرة عن عبد الملك بن أعين يسأل فيها عن المعرفة والجحود أهما مخلوقتان ؟ فكتب عليه السلام : سألت عن المعرفة ما هي ؟ فاعلم رحمك الله إن المعرفة من صنع الله عز وجل في القلب مخلوقة والجحود صنع الله في القلب مخلوق وليس للعباد فيهما من صنع ولهم فيها الاختيار من الاكتساب، فبشهوتهم الايمان اختاروا المعرفة فكانوا بذلك مؤمنين عارفين وبشهوتهم الكفر اختاروا الجحود فكانوا بذلك كافرين جاحدين ضُلالا، وذلك بتوفيق الله لهم وخذلان من خذله الله، فبالاختيار والاكتساب عاقبهم الله وأثابهم.

وفي هذه الرواية إجابة شافية عما يمكن أن يدور في خلدك، بخصوص السبب في أن الله يعطي البعض المعرفة وأسبابها في حين يمنعها آخرين، حيث اكد الامام وأطلق القول بأن عطاء الله غير منقوص والناس سواسية فيه، ولا يبقى على الانسان المحب للمعرفة والايمان إلا أن يقول : اللهم أهدني من عندك.. اللهم عرفني نفسك.. إهدنا الصراط المستقيم.. أما الجاحد المكب على الجهل، فلا تراه يقول إلاّ : سمعنا وعصينا، فختم الله على قلوبهم، ويبعثون يوم القيامة وقد كتب على

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٢٢٣ / رواية ١٣.

جباههم آيسون من رحمة الله...

وسأل الحاثليق- ولعله أحد أحبار اليهود - أمير المؤمنين عليه السلام عدة أسئلة من جملتها : أخبرني عرفت الله بمحمد أم عرفت محمداً بالله ؟ فقال علي بن ابي طالب عليه السلام : ماعرفت الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وآله ولكن عرفت محمداً بالله عز وجل، حين خلقه وأحدث فيه الحدود من طول وعرض فعرفت أنه مدبر مصنوع. ثم يستدل أمير المؤمنين على ذلك فيقول : كما ألهم الملائكة طاعته وعرفهم نفسه بلا شبه ولا كيف. (١)

وعن كيفية معرفته ربه يُسأل أمير المؤمنين عليه السلام قيل : بم عرفت ربك ؟ فقال : بما عرّفني نفسه. قيل: وكيف عرّفك نفسه ؟ فقال : لا تشبهه صورة، ولا يحسّ بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب في بعده بعيد في قربه، فوق كل شئ ولا يقال : شيء فوقه، أمام كل شيء ولا يقال : له أمام، داخل في الاشياء لا كشيء في شيء داخل، وخارج من الاشياء لاكشيء من شيء خارج، سبحان من هو هكذا ولاهكذا غيره !... (٢)

إذاً لا بد أن نعرف الله بالله، وأن نعتمد على الله الذي هو وحده القادر على أن يعرفنا نفسه، وندعوه بالقول: اللهم عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك اللهم عرفني رسولك فانك إن لم تعرفني رسولك لم اعرف حجتك... (٣)

---

(١) بحار الأنوار / ج ٣ / ص ٢٧٢ / رواية ٩.

(٢) المصدر / ج ٣ / ص ٢٧٠ / رواية ٨.

(٣) المصدر / ج ٩٥ / ص ٣٢٦ / رواية ٢.

## سبيل المعرفة :

ونتساءل : ماذا نصنع حتى يعرفنا الله سبحانه وتعالى نفسه ؟

والجواب بإختصار بالغ يكمن في طريقين :

الأول : العمل الصالح.

الثاني : التفكر في آيات الله سبحانه وتعالى.

فالعمل الصالح هو السير وفق المنهج الذي رسمه الله لنا، دون البدع والضلالات، وإن أخذت في ظاهرها صوراً صالحة ؛ كما كان الصوفية ولا يزالون يعمدون الى ممارسات عبادية ما أنزل الله بها من سلطان، حتى قال أحدهم أنه جلس في محرابه يذكر كلمة الله مدة عشر سنوات كاملة دون إقامة الصلاة وإتيان بقية الفرائض الدينية. وكأنه بهذا العمل يريد القول بأنه لم ير في تعاليم القرآن منجى له من عذاب النار !! أو كذلك الذي يصعد شجرة قرب منزله ويتدلى منها رأسا على عقب فيختم القرآن؛ حتى قيل إن عينيه قد أدميتا من شدة الألم!!

إن المأثور عن التعاليم الدينية هو أن " دين الله لا يقاس بالعقول " وليس ثم لأحد من الناس حق التشريع، بل هو حق لله وحده العارف بما يحتاجه الخلق، ومن يدعي غير ذلك فأنه ينسب النقص والفقر الى القرآن ؛ الكتاب الذي فيه حتى الأرش في الخدش كما يقول الامامان المعصومان الباقر والصادق عليهما السلام.

إن التقوى والاجتهاد في ممارسة العمل الصالح المرسوم في القرآن الكريم وروايات المعصومين (عليهم السلام) هو الذي يهيء لنا معرفة الله، وهو الذي يجعلنا ممن يحبب الله اليهم الايمان ويزينه في قلوبهم.

أما التفكر في آيات الله جل ثناؤه فهو أمر ينتهي بنا – بلا شك – الى الايمان بالله والتقدم على طريق توحيده. ولقد كان النبي الاعظم محمد صلى الله عليه وآله يقوم في الليل ليصلي ثم ينام هنيهة، ثم يقوم لصلاة أخرى، وهكذا الى الثلث الاخير حيث لم يكن ينام فيه. ثم يخرج المرة بعد الاخرى وينظر الى السماء والنجوم ويقرأ : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هـذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران/١٩١)

إن التفكر في النجوم يهديك الى معرفة الله، كذلك التفكر في الافلاك والشمس والقمر، وفي حياة الناس والخلائق، وحتى في معيشة النملة الصغيرة كيف تتحرك وكيف تستطيع أن تحمل ما يفوق وزنها سبع مرات، وفي معيشة النحلة وكيف ألهمها الله جل جلاله أن تصنع خليتها الجميلة والدقيقة وأن تخزن العسل لها ولغيرها؛ تفكّر في الورود وتفكر في طبيعة الانسجام بين أعضاء الطبيعة ؛ تفكر في خلقك، في عينيك ويديك وصحتك وفي ألوان وأقسام النعم التي تحيط بك ؛ تفكر في حزنك وفرحك.. أنظر الى اختلاف الالوان والالسن وانسجام الامور، كل شئ يهديك الى ربك. فإذا تدبرت بفكرة البصير لا شك أن الله سيزيدك من عنده معرفة وايماناً. وهذا هو العرفان الاسلامي الذي لا يحتاج منك أن تذهب يميناً وشمالاً، كما تنقل القصص عن رابعة العدوية – وهي من المتصوفين المعروفين – حيث كانت جالسة في غرفتها الحالكة الظلام وكان اليوم ربيعياً مشرقاً فدعاها خادمها الى ان تمتع ناظريها بمنظر الورد والاشجار والجمال الخلاب على ضفاف نهر دجلة، فأجابته وهي مغمضة العينين من داخل غرفتها

الضيقة : أن أدخل عندي حتى تنظر الى الخـالق دون المخلـوق !! وكـأن الخـالق في الظـلام، أو أنهـا في غنى عمـا خلـق الله وسـخره للنـاس ودعـاهم الى أخـذ العبـرة منـه !!

# البداء تجلي إرادة الله

يواجه الانسان في طريق المعرفة مشكلة كبيرة، تتمثل في عدم معرفته وإدراكه للعلاقة بين الخالق والمخلوق؛ وبتعبير فلسفي : العلاقة بين القديم والحادث، الوجود والعدم، الثابت والمتغير، النور والظلمة.. بين الجوانب الايجابية في الحياة وبين الجوانب السلبية. ومن جراء ذلك أثبت الانسان عجزه، فكانت الحاجة ملحة للغاية الى هدى الله ورسالاته وأنبيائه وحججه القائمين بالحق في الأرض.

لقد عجزت البشرية عن أدراك نوعية العلاقة بين هذين البعدين، كما انها عجزت عن اكتشاف الحل المناسب ؛ فمن جهة يرى الانسان في الطبيعة الخير والنور والعلم والعدالة والحكمة والنظام الدقيق، لكنه يرى في الجانب الآخر الشر والظلام والجهل والظلم والتعدي والطغيان، فيا ترى هل أن خالق النور هو خالق الظلام ؟ وهل أن موجد الخير هو نفسه موجد الشر ؟ وهل الذي يسبغ علينا نعماءه ظاهرة وباطنة هو ذاته الذي يبتلينا بالبلاء العظيم ؟ وهل هو الذي يقدر الحروب والمآسي والزلازل والكوارث.. أم هو غيره ؟ !

وهذه التساؤلات ومثيلاتها هي التي حدت بالعقل البشري الى الانحراف عن الصراط المستقيم. فتصورت نظرية فلاسفة الفرس القدماء أن في الكون الهين إثنين: إله الخير (أهورامزدا) وإله الشر (أهريمن). فقال بعضهم بوجوب عبادة إله الخير لأنه مصدر الخير والنور، فلذلك هم يعبدون النار لانها تصوير مباشر للنور. وذهب بعض منهم الى لزوم عبادة إله الشر لكسب وده على الأقل ! ولأن إله الخير إله رؤوف بالناس ولا يحتمل صدور عقوبة منه تجاههم ؛ ثم إنه في غنى عن عبادتهم.. وعليه فقد عبد هؤلاء الشيطان لأنه رمز الشر ؛ وقد مثلوه بالطاووس.

أما أصحاب مذهب المانوية فقد اعتقدوا بثنائية الإله ؛ فمنهم من قال بأن الخالق والمخلوق ليسا في الحقيقة إلا شيئا واحدا، وفي ذلك اتحاد (الواجب) و(الممكن) اتحاد وجود ؛ مؤكدين بأن الوجود ليس أجزاء متفرقة، بل هو وحدة واحدة، تنقسم قسمين: إله وعبد للاله. وعبد الإله ليس إلا إلهاً، ولكن بدرجة متفاوتة. وأكدوا أيضاً بأن قضية الاتحاد هذه تشبه تماما أصل الماء وروافده وسواقيه أو البحر وأنهاره ؛ حيث تبخر أشعة الشمس بعض ماء البحر فيتحول الى غيوم ممطرة ثم يملأ المطر السفوح والوديان فيتجمع على هيئة أنهار تصب في نهاية المطاف في البحر وهكذا.. وقد أدخلت هذه الفكرة - بهتاناً - في الديانة المسيحية حتى ادعى المسيحيون أن المسيح ابن الله، ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الانعام/١٠٠). وتبعا لذلك فإن البعض يعزو الصراع بين النبي موسى بن عمران عليه السلام وفرعون الى أسباب غير الاسباب المعروفة، ويعتقد بأن موسى كان يؤيد بأن فرعون إله ولكنه ليس الإله الوحيد ؛ وإن كل الناس آلهة.

وقد تسربت هذه الفكرة الى بعض الصوفية ممن كان يصر على إن الانسان سواء توجه الى الكعبة أو الى بيت الأصنام فانه في الواقع لا يعبد سوى إله واحد ؛ فالمقصود هو المقصود !!!

وتوجه قسم ثالث من الفلاسفة – لحل هذا الاشكال – الى إنكار الخالق أو إنكار المخلوق، وقالوا بأن الكون عبارة عن شعلة أزلية متوهجة كانت ولا تزال، وهذه مقولة الماركسيين الماديين. او أن بعضهم أعترف بوجود الخالق ولكنه أنكر وجود المخلوق، مؤكداً بأن الكون بعظمته ليس إلاّ خيالاً ومن نسج الاحلام، وهذه مقولة السفسطائيين وهم لا يزالون موجودين.

ثم اعتقد أناس آخرون – ممن تطوع لحل الاشكال المتقدم الذكر – بأن الله كان وكان معه المخلوق أبدا منذ القدم، وقد تاه هؤلاء في بحر الاسئلة والاشكالات التي تعرضت له نظريتهم الجوفاء هذه.

لقد دخلت الفلسفة البشرية الوضعية في متاهات عجيبة، لأنها لم تعرف سر الخلق، والعلاقة بين الخالق والمخلوق. ومن معجزة الاسلام والرسالات السماوية الأخرى أنها حلت هذا الاشكال لدى البشرية. وهذا ليس بالأمر الهين بالنسبة الى العقلية البشرية، رغم ما يبدو من بساطتها ويسرها. فالأمر كان بحاجة الى خطوة أولى – إن صح التعبير –، هذه الخطوة كانت بحاجة الى علم وإحاطة مسبقة بسر التكوين؛ الامر الذي يفتقر اليه الانسان، لأنهم خلقوا ووجدوا بعد وجود الكون أولاً، ولأن فطرتهم قد فسدت الى حد كبير بفعل الجهل والتربية الفاسدة والرغبة في الجحود. إن الرسالات الالهية تعيد الانسان الى فطرته لحل اشكالية العلاقة بين الخالق والمخلوق.

**مراحل العلم :**

ولكي نكتشف سر الخلق علينا أن نذكر مقدمتين:

أولاً: إن العلم قد يسبق العمل. كما قد يسبق الوجود في كثير من الاحيان، فالمرء يعلم أن الشمس ستشرق غدا في ساعة كذا من دون أدنى شك، وهو متيقن بأن النار لو سلطت على النبات – مثلا – فانها ستحرقه. فالعلم هنا سبق المعلوم، فعلاً كان أم وجوداً مجرداً. وقد يكون العكس هو الصحيح، كأن يقع الحدث ثم يعقبه العلم. وفي بعض الاحيان يتقارن معه، وقد يتوقف عنده في أحايين أخرى دون أدنى تفاوت. فالعلم هو العلم، والله سبحانه وتعالى – كما بينا فيما سلف – كان عالما غير معلوم ؛ كان يعلم بوجود الكون وماذا سيخلق، كان يعلم سبحانه أن السماوات والارض لو كان فيهما آلهة إلا هو لفسدتا، وكان يعلم أن بعض الناس لوردوا الى الأرض بعد يوم القيامة لعادوا الى ما نهوا عنه... إنه يعلم ذلك بالرغم من أنه لم يحدث ولن يحدث. فالأرض والسماوات لم يكن فيهما إله غير الله، وأن بعض الناس لم يردوا من النار الى الدنيا، ولكن علمه سبحانه سابق ومقارن ولاحق، وعلمنا نحن بني البشر قد يكون كذلك. ولكن الفرق بين الحالتين أن علمنا مكتسب وعلم الله أزلي، بل العلم هو ذات الله.

**بين القدرة والارادة :**

ثانياً: لابد من التمييز بين القدرة والعلم من جهة وبين الارادة، فقد يعلم الانسان قانوناً ولكنه يحجم عن تطبيقه لانه لايريد ذلك، وقد يريد شيئاً ولكن لايعلم به. فالمرء يعلم أن الموت حق ولكنه لا يريده، وقد يريد الموت ولكنه يجهل أين هو. ثم إنه ليس هناك تلازم حتمي بين القدرة والارادة. فقد يريد الانسان شيئاً إلا

أنه لايقدر على انجازه، وقد يكون قادراً على شيء إلا أنه لايريد القيام به.

أن الارادة هي تلك الشعلة والومضة التي يبدعها الانسان ويحقق بها الاشياء.

اذن، فالسؤال المهم والمصيري في بحثنا هو: هل أن الله سبحانه وتعالى كان منذ القدم عالما بما سيخلقه وبما سيؤول إليه أمر الخلق من موت وجنة ونار؟ أم كان جاهلاً ؟!

والجواب: كان عالما بلا شك. فلو كان جاهلا به لاستلزم أن يكون محتاجاً لغيره لتحصيل العلم به. وهذا يعني أن علم الله لا يحتاج الى علة، إذ علم الله قديم، وهو عين ذاته القدسية وهو علة سائر العلل.

والأمر كذلك بالنسبة الى قدرته الجبارة، لأنه حينما شاء أن يخلق، خلق الاشياء من دون استشارة أحد ومن دون مساعدة أحد ومن دون تعب "لا تأخذه سنة ولا نوم"، وقد جاء في الحديث القدسي: "كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق..." (١)

فهل كان الله يريد أن يخلق الخلق منذ القدم ؟

كلا ؛ لأنه لو كان كذلك لخلقه منذ القدم، إذ الارادة تعني التنفيذ والقوة التي تصنع الاشياء، وهي من مخلوقات الله، فالله قد يريد، أي يخلق الارادة والمشيئة فتتعلق بشيء. إن الله تبارك وتعالى لم يقل كلمة " كن " منذ القدم، لأنه لو كان قالها منذ القدم، لكان الخلق قديما كذلك، ولخلق الخلق مباشرة.

إذا ؛ فالله عالم بصير قدير منذ القدم، ولكن من قال إن الله مريد منذ القدم ؟

بلى ؛ إن الارادة حادثة حيثما وكيفما ومتى ما يشاء رب العزة والجبروت.

---

(١) بحار الانوار / ج ٨٤ / ص ١٩٩ / رواية ٦.

إن علم الله جل جلاله قديم وقدرته قديمة، ولكن إرادته ومشيئته حادثة ومخلوقة له سبحانه، يقول " كن فيكون ". فهو قد خلق الارادة ثم خلق الاشياء بتلك الارادة، لا لنقص وإنما لحكمة فذة.

**إرادة الله كلمة :**

والقرآن الكريم يشير بوضوح الى هذه الحقيقة ؛ والى أن فعل الله ماهو إلاّ خلق من خلقه، فهو يبين بأن إرادته كلمة و أمر حيث قال : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلقاها الى مَرْيَم... ﴾ (النساء/١٧١) وقال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صدقاً وعدلاً... ﴾ (الانعام/١١٥) وقال أيضاً : ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ (التوبة/٤٠) وأكد أيضاً : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى/ ٢١) وجاء أيضاً : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ( البقرة/١١٧) ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (البقرة/١٠٩)

وثمة ملاحظة جديرة بالبحث هنا، وهي إن لفظة الإرادة - من حيث الاستخدام اللغوي - تعني الرغبة والتصميم. فهي بالنسبة الى الحادث قضية طبيعية، إذ قد تتفق مع فعله التالي لها وقد لا تتفق، فهذا أمر مرهون بتقلب الاحداث ووجود العقبات واستمرار التصميم. ومن ذلك أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لما قيل له : كيف عرفت الله ؟ قال : " عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم وحل العقود ".(١) وهذا يعني أن ثمة إرادة خارجية أقوى تشرف على تصرفات المخلوقات ككل، وأن ثمة فاصلة طبيعية تعزل الارادة عن الفعل في

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ١٩٧ / رواية ١٠.

البشر، وأن صاحب الارادة المعزولة لا بد وان يكون متأثرا بصاحب إرادة مغايرة، ولو لم يكن الأمر كذلك لوقع المستحيل في معرفة وتمييز الارادات وتمييز القوي منها عن الضعيف.

ولكن مصطلح الارادة حينما يستخدم للتعبير عن أمر الله وكلمته إنما يعني الفعل مباشرة، إذ إن علمه مطلق (ولا حدود له) كما قدرته وحكمته؛ وليس من المتصور أبدا أن يحجز الله أمر من الامور دون إرادته وفعله، وليس من المتصور أن يحجز فعل الارادة الالهية ندم أو إعادة حسابات، لأن ذلك يستدعي افتراض طرف محدد – كإله ثان مثلاً – يعيق تصرفات الاله أو يشوش عليه علمه وفكره، ويستدعي – أيضاً – حصول فوضى ووقوع ضحايا حسب رغبة الاله النابعة عن عدم مطلقية العلم والقدرة والعدالة في ذات الخالق. والله جل جلاله يقول في هذا الاطار : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (الانبياء/٢٢ –٢٣)ويقول تبارك وتعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم/٤١)

وفي هذه الآيات إشارة واضحة إلى أن تعدد الآلهة يوجب الفوضى، والله كان قبل ذلك قد بين لنا في آياته الكريمة صفات الاله وما ينبغي أن يكون عليه من أحدية ووحدانية. ثم يشير الله أيضا الى أن مظاهر الفساد المشاهد من قبل الناس انما وقع من جانبهم هم، لأنهم ليسوا متصفين بصفات الإله التي تشمل العدل والحكمة.

إن الله جل ثناؤه قدر في اللوح المحفوظ مصير الانسان، في أية لحظة يولد، ومن أي والدين، وفي أي أرض، وبأية حالة، شقي أم سعيد، غني أم فقير، عالم أم

جاهل، كيف يعيش، ومتى يموت، وبأي سبب، وفي أية أرض ، ثم قدر صورة عاقبته.. هذه الأحوال كلها مكتوبة في لوح الله المحفوظ، ولكنها لا تعبر عن الارادة، بل هي مجرد تخطيط شامل لكافة جزئيات الحياة.

وكما تقدم، فان الله إذا قدر شيئا لا يعني العجز عن تغيير ما قدر، وهو قادر أيضا على ان يسلب العبد ما أعطاه وأن يعطيه مامنعه من قبل. وقد بحثنا مفهوم الآية الكريمة التي تقول : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (المائدة/٦٤) فلو كانت إرادته بالانفاق قديمة لقضي الأمر ولم يكن بالله من حاجة الى التأكيد بأن يديه لا تزالان مبسوطتين ؛ مع ملاحظة استخدام صيغة المضارع في كلمة الانفاق حيث قال: ينفق ولم يقل أنفق.

**الله أعظم من أن يوصف :**

وقد يسأل الانسان عن كيفية وماهية الارادة الالهية، وكيف يخلق الله تعالى فعله، وماهو لون الارادة وصورتها ؟؟

في معرض الاجابة على ذلك، اكتفي بالحديث عن المخلوق وعدم التحدث عن الخالق بهذا الخصوص. فالله سبحانه لا يقال له كيف وبأية صورة، إذ هو المصور وليس المتصور. ومن يتوهم ويتخيل أن بإمكانه تحديد الذات الالهية وأفعالها فهو في ضلال بعيد، وهذا التوهم في التعمق سيدفعه الى الكفر. وكنت قد أكدت من قبل أن أفضل الاذكار هو قول " سبحان الله " أي الاعتراف بعجز الذاكر عن معرفة ذات الله، وفي لحظة الاعتراف يشرق الرب سبحانه وتعالى لعبده من أنواره المقدسة ما يعرفه بنفسه. فمن يتوهم الله يتحدى كبرياءه وعظمته،

والله لا يعرف نفسه من يضمر في نفسه التحدي. أما ذو الحظ العظيم الذي يتلقى هذه المعرفة ويغمر الله قلبه بنور الايمان فهو من يخضع لله ويخشع أمام كبريائه وجبروته ولا يفكر بالسمو الى درجة الله ومبارزته في كبريائه وقدسه، والله قدوس سبوح منزّه، وهو أعظم من أن يوصف.

**البداء(١) تجلي إرادة الرب :**

من وجهة النظر اللغوية تعني كلمة (البداء): (الانشاء) وليس الظهور، فهو إنشاء بعد إنشاء وإرادة بعد إرادة. أي إن الله سبحانه وتعالى يعلق وقوع حدث معين على شروط معينة وظروف خاصة، كما الحاصل في نسخ بعض الآيات الكريمة التي كان أنزلها على الرسول صلى الله عليه وآله لواقع معين فبدلها بعد تغير هذا الواقع، وقد قال ربنا : ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ (البقرة/١٠٦) أي ننزل خيراً من، أو مثل ما يلائم واقعكم تبعا لشروط خاصة. وقال كذلك : ﴿ **يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾ (الرعد/٣٩) و ﴿ **لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ** ﴾ (الروم/٤) وقد جاء في الروايات: " صلة الرحم تزيد في العمر ". (٢) بمعنى أن الله يقدر للانسان من العمر أربعين عاماً –مثلاً– ولكنه يصل رحمه فيكتب الله له مرة أخرى مدة جديدة وأطول.. حسب حكمته البالغة.

---

(١) البداء في اللغة بمعنى الظهور و(النشأة) ففي القاموس بدا له في الأمر بدُوّاً وبداءة: نشأ له فيه رأي، وفي المنجد: بدا له في أمر خطر له فيه رأي (تنبيهات في المبدء والمعاد لأية الله مرواريد ص١٩٠)

(٢) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ١٣٨ .

وقصة النبي يونس عليه السلام تشير الى هذه الحقيقة وهي قدرة الله على الفعل والارادة متى يشاء وكيف يشاء، إذ أمره الله تعالى بمغادرة المدينة لان العذاب سينزل على قومه، فامتثل الرسول لهذا الامر، ولما عاد بعد مدة وجد المدينة والقوم على ما تركهم عليه، فلا عذاب نزل ولا قوم هلكوا. فسال ربه متعجبا عن سر ذلك، فانبأه الله بأن قومه قد آمنوا قبيل وقوع العذاب، فانتفت حكمة العقاب. فقال سبحانه : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ (يونس/٩٨).

ومعنى البداء أن الخالق قدر لك – مثلاً – أن تكون شقياً بسبب شقاء أبويك، أو بسبب جريمة ارتكبتها، أو بسبب الظروف المحيطة بك، ولكنه قد يمحو سيئاتك ويكتب – مرة أخرى – لك السعادة بقدرته اللا متناهية بعد أن تضرعتَ إليه بالعمل الصالح والبكاء والتودد والتوسل في إحدى الليالي العظمية كليلة القدر المباركة –مثلاً–.

وإن الاعتقاد والايمان بهذا الواقع لا يناقض الفطرة أبدا، بل هو أقرب ما يكون إليها...

وإذا كان الواقع غير ما نذهب اليه فإن ذلك يعني أن الله سبحانه وتعالى قد كتب على جميع الناس أن يعبدوه وأن يعملوا صالحا، في حين أنه قد قدر لهم مقاديرهم ومصائرهم المتعددة والمختلفة، وهذا عين التناقض. فلو كان قد قدر لنا أن نكون سعداء أو أشقياء ونحن في بطون أمهاتنا –ولا محيص عن تغيير ذلك– فما معنى أن يأمرنا جميعا بالسعي نحو السعادة والخير، ونهانا ان نقع في مهاوي

الشقاء ؟! بل وما معنى أمره بأن ندعوه وأنه قريب مجيب ؟ فنحن إذا نفينا الاعتقاد بمبدأ البداء وتملصنا عنه يكون لزاما علينا أن نترك العبادة والعمل الصالح ونقف مكتوفي الايدي بإنتظار مصيرنا، بل يكون الأحرى بنا أن نطلق العنان لأنفسنا ونتنعم بملذات الدنيا - حلالها وحرامها - لنكون قد ضمنا إحراز واحدة من اثنتين - على الأقل - لذات الدنيا لا سيما وأننا نجهل مصيرنا في الآخرة!!

إذا عدنا الى قصة النبي يونس عليه السلام مرة اخرى نكتشف الكثير من الحقائق، وذلك لمعالجتها قضية شديدة الأهمية بالنسبة للعقيدة الاسلامية. فهذا النبي العظيم كان قد دعا الله على قومه بان يذيقهم العذاب بكفرهم فاستجاب الله له وأنبأه بأن العذاب واقع في الساعة الفلانية، و لما حلت ساعة المصير غادر النبي المدينة وكان على يقين بأن العذاب واقع بهم، وحينما أراد العودة سأل بعض الناس عن الخبر فقيل له إن قومه يعيشون على ما يرام ولم يمسهم عذاب. فذهب مغاضباً وركب إحدى السفن لا لوجهة معينة، فأعترض أهل السفينة حوت عملاق، فاقترعوا فكانت القرعة على النبي يونس بالذات رغم تكرار الاقتراع عدة مرات فأخذوه ورموه الى فم الحوت وابتلعه، فبقي مدة في بطن الحوت سجيناً. وقد يكون هذا جزاء لإحتمالات عديدة : لأنه دعا على قومه في عجل أو أنه لم يتوغل في نفوس قومه ليعرف ما تبقى فيها من أمل بالله العلي الكبير، أو يكون لعدم سؤاله من الله عن السبب في رفع العذاب عنهم...

فكان جزاؤه أن يبقى في بطن الحوت الى يوم يبعثون، لكنه دعا الله مرة أخرى، يملأه الاعتقاد بأن من السهل اليسير على الله أن يغير في مصيره المقدر. فاستجاب له الله ونجاه من الغم، وكذلك ينجي المؤمنين من الحوادث والمقادير...

لقد آمنت قرية يونس عليه السلام في الوقت المناسب، وذلك حينما هرعت الى عالم رباني لها تسأله عن خروج يونس وتهديده لهم بالعذاب، فأمرهم هذا العالم بالخروج جميعا الى الصحراء والتذلل الى الله، ففعلوا بكل إخلاص ما أمروا به، فرفع الله عنهم العذاب بعد أن كاد يمس رؤوسهم من قربه منهم.. وهكذا نفعهم دعاؤهم وبدالله في شأنهم، ودعا يونس الى ربه أن ينقذه من بطن الحوت ففعل وهذا هو البداء.

## آيات في البداء :

وآية أخرى تؤكد بأن الله ﴿ فعّال لما يريد ﴾ أي مطلق وجوه وكيفيات الفعل، لا يعجزه شئ ؛ وأخرى : ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً ﴾ (الكهف/٢٣-٢٤) وفي آية أخرى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة/١٨٦). إن الله يستجيب لكل مؤمن إذا أزاح عن نفسه حجب الذنوب والاعتقادات الباطلة، والمؤمن إذا ما دعا الله فإنه يدعوه بأمل عظيم وهو معتقد بأن ربه سيستجيب له، كما قال النبي يوسف عليه السلام لإخوته : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم ﴾ (يوسف/٩٨)

## احاديث في البداء :

أما الروايات الشريفة المأثورة عن النبي وأهل بيته فقد وصفت عقيدة البداء أعظم وصف، حتى كان منها : " ما عبد الله بمثل البداء.(١) فمن يعبد إلها ميتاً

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤ / ص ١٣٢ / رواية ٧٠.

وعاجزاً ومحدوداً ومغلول اليدين، فهو عاجز عن عبادة الله حقاً. ومن اعتقد بأن الله فعال لما يشاء فقد اعتقد بصفة القدرة الألهية ومارس دوره في اطار هذه الصفة بالدعاء والفعالية فهو قد عبد الله بأحسن ما يكون.

وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام : " ما بعث الله نبيا قط حتى يأخذ عليه ثلاثاً ؛ الإقرار لله بالعبودية وخلع الانداد وأن الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ".(١)

وقال أيضاً : " ما تنبأ نبي قط حتى يقر لله تعالى بخمس ؛ بالبداء والمشيئة والسجود والعبودية والطاعة ". (٢)

وفي رواية أخرى ؛ قال أبو جعفر الباقر عليه السلام في العشية التي اعتل فيها علة الموت : " ما أرسل الله نبيا من أنبيائه إلى أحد حتى يأخذ عليه ثلاثة أشياء. قلت : وأي شئ هي ياسيدي ؟ قال : الاقرار لله بالعبودية والوحدانية، وأن الله يقدّم ما يشاء، ونحن قوم – أو نحن معشر – إذا لم يرض الله لأحدنا الدنيا نقلنا إليه. (٣)

وفي رواية أخرى عن الامام الصادق عليه السلام : " لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه". (٤)

وفي نهاية هذا البحث نؤكد بأن مشكلة الانسان الكبرى على الارض تكمن

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤ / ص ١٠٨ / رواية ٢٤.

(٢) المصدر / ج ٤/ ص ١٠٨ / رواية ٢٣.

(٣) المصدر / ج ٢٧ / ص ٢٨٦ / رواية ٣.

(٤) المصدر / ج ٤ / ص ١٣٣ / رواية ٧٠.

في أنه قليلاً ما يؤمن بأن الله يفعل ما يشاء ؛ وبكلمة ثانية: إن القنوط هو العامل المسبب في جمود حركة البشرية نحو الله، وبالتالي وقوعها في مطبات دنيوية خطيرة، فضلاً عن مصيرها الاخروي المعلوم.

# سمات منكري البداء

بسبب خطأ الانسان في فهم سر الخلق، وبسبب دخول بعض النظريات الفلسفية القديمة في جوهر الثقافة البشرية ؛ بسبب ذلك اتخذ الناس مذاهب باطلة وبعيدة للغاية عن الحقيقة، وصبغت هذه المذاهب حركة البشرية ككل بصبغة لا تتناسب مع الغاية من وجوده.

وتعتبر عقيدة "البداء" من جملة العقائد التي احيطت بالنظريات البشرية الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وكانت هذه النظريات ولا تزال تتسم بسمات عديدة، منها :

## ١. وجف قلم التقدير!

أولاً : الجمود المطبق والكامل في فهم الحياة ؛ حيث تعتقد الفلسفة المناهضة لعقيدة البداء بأن الحياة البشرية حياة جامدة غير متحركة، ذلك لأنها حينما لم تؤمن بقدرة الله اللامتناهية، ادى بها هذا الأمر الى القول بان قلم التقدير الالهي قد جف نهائياً، وهو عاجز عن التغيير أساساً...

وبطبيعة الحال فإن هذا الاعتقاد هو اعتقاد مخالف لوجدان الانسان، فالمرء إذا اعتقد بأن تطور الطبيعة قد توقف وانتهى تقديرها، فإنه سيكف يده عن التأثير فيها بأي شكل من الاشكال، وهذا ما نطلق عليه بالقدرية. وبتعبير آخر: إن على الانسان - حسب هذه النظرية - الخضوع للحوادث الطارئة عليه ؛ شاء ام أبى، وليس عليه أن يغير شيئا مما يجري حوله. ولا شك إن وراء نشر مثل هذا الاعتقاد أياد يهمها أن لايكون بنو البشر سوى موجودات جامدة ومجرد جثث متحركة... ولا شك أيضا أن الطواغيت وجبابرة البشر هم الذين أكدوا على مثل هذه المقولة الباطلة، إذ قالوا للناس: بان السلطات الحاكمة -أية سلطات- إنما تعبّر عن ارادة الله ولا يجوز مقاومتها، ذلك لأنهم يتساطون بان حكم هذه السلطات هل جاء بتقدير من الله أم من دون تقدير الهي ؟ فإذا كان بتقدير الله فكيف يستطيع المخلوق تغيير ما رسمه الخالق في الأزل ؟ واذا لم يكن بتقدير الهي فكيف يجري في الكون ما لم يقدّره الله ؟!

هذه هي السمة الاولى التي اتسمت بها الفلسفة في العمق، ولم تستطع الفلسفة البشرية التخلص منها حتى الآن، لأن جوهرها وجذرها التأريخي ضارب في القدم، إضافة الى ما تتركه الوجهة الثانية من تكوين غرائز الانسان وطبيعته الراغبة في الجمود والتثاقل الى الارض وتبرير الذنوب وعدم التطور، والى ما تخلفه الظروف المؤاتية لا ستمرار الجهل من قبيل استمرار الجبابرة والطواغيت في إغفال الناس.

## لا.. للمسؤولية..

ثانياً : إن الفلسفة القائمة على فكرة عجز الله عن التغيير والتبديل، توحي بشكل مباشر بتهميش فكرة مسؤولية الانسان، وأنه خليفة الله بانتخاب الله ذاته. في

حين إن الله تعالى يقول بكل صراحة في قرآنه الكريم : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ﴾ (الاحزاب/٧٢) بمعنى إن الانسان قد قبل تحمل المسؤولية الكبرى في هذا الكون، فاستحق أن يكون الخليفة في الارض، لأن طبيعة خلقته التي وضعها الله فيه تتطابق كل التطابق مع بنود هذه المسؤولية الكبيرة.

ولقد كان ضمن الشرائح التي آمنت بالقدر إيماناً مطلقاً - بعد اليهود والاغريق و مجموعة الطواغيت - الخوارج ؛ الذين كانوا يعرفون بالقرّاء في مجتمع الكوفة في ظل إمامة أميرالمؤمنين عليه السلام، فهذا عبد الرحمن بن ملجم - لعنه الله - حينما سيق الى الامام بعد محاولة الاغتيال الآثمة قال له أمير المؤمنين : " أبئس الامام كنت لك حتى جازيتني بهذا الجزاء ؟ " فأجابه المجرم : يا أمير المؤمنين أفأنت تنقذ من في النار ؟! (١) أي إن اسمي مكتوب في سجل أهل النار قبل أن اصيبك بهذا المقتل، فلماذا تحاول توبيخي وتأنيبي على فعلتي ؟!

وبكلمة : إن جواب ابن ملجم يوحي بأنه ليس مسؤولا عن جريمته، وإنما القدر هو الذي قتل الامام عليه السلام... !

إن المناهضين لعقيدة البداء يؤكدون - بكل جهل - أن الله قد أكمل الامور، وأن أصحاب الجنة معيّنون ومنتخبون، وأن أصحاب النار معيّنون ومنتخبون كذلك.

## لاتفيير في الحياة :

ثالثاً : إن فلسفة إنكار البداء تضطر الى إنكار المعاجز والنبوة وحتى المعاد. فهي تفسر الاعجاز تفسيرات مادية بحتة، وتعزوها الى قوانين طبيعية لم يتوصل

---

(١) بحار الانوار / ج ٤٢ / ص ٢٨٧ / رواية ٥٨.

الانسان الى كشفها بعد. إذ لا البشر باستطاعتهم تغيير القانون، ولا المادة لديها قابلية تغيير ذاتها، ولا الله نفسه بقادر على تجاوز ما وضعه من قوانين.

واما بالنسبة الى النبوة فإن جوهر هذه الفلسفة يخالفها ويتناقض معها، لأنها خرق لقوانين الطبيعة. وفلاسفة هذه المدرسة يعتقدون بأن من يدّعي النبوة إنما هو إنسان ينمو عقله عبر الدراسة واكتساب التجارب فيصبح عملاقا فكريا فيسميه الناس نبياً. وقد جوبه النبي عيسى عليه السلام بذلك فعلا، حيث قال له بعضهم لما دعاهم الى الله جل وعلا : إنك نبي العقول الدنيا فقط، أما نحن ففي غنىً عنك، باعتبار أنهم من حيث الدراسة والفكر يقفون وإياه في مستوى واحد !!

وبخصوص موقفهم من المعاد والرجوع الى الله ووجود الجنة والنار التي يتحدث عنها القرآن الكريم ويأمرنا بالايمان به، فهم يؤلونه مختلف التأويلات، ولقد كان ( الحلاج ) يعتقد بأن الجنة الحقيقية هي معرفة الولي، وأن النار الحقيقية هي الجهل بالولي. وباعتقاده أن من الممكن للولي أن يضع الامور في غير قالبها، وهو يقول بأن من المستحيل أن يرجع هذا الجسم الى هيئته بعد الممات..

أما النظرية الاسلامية فهي تؤكد على حرية الانسان في تصرفاته، وأن كل ما يجري عليه من خير وشر فبما كسبت يداه، وهو بما كسب رهين، وأنه مهما تكاثرت على الانسان الذنوب فإن له أملا في التخلص منها عبر التوجه الى الله سبحانه وتعالى والانابة إليه.

فالنظرية القرآنية تتقدم - من دون شك - على بقية النظريات، وهي تحدد قابليات الانسان ومسيره ومصيره عبر أفكار ثلاث :

١/ كونه حرا مختارا فيما يقوم به من أعمال.

٢/ كونه مرتبطا ارتباطا مباشرا بما يحيط به من حوادث ؛ سواء تلك التي تخصه، أو تلك التي تخص الطبيعة.

٣/ كونه قادرا على التخلص من أعمال الشر التي قام بها، والتي من شأنها أن تؤدي به الى السقوط ؛ أي قادر على خلق مصيره، وقادر على تغييره.

أما الفكر الفلسفي الحامد فيقول : ان الانسان والمجتمع والطبيعة والملائكة والله سبحانه عاجزون عن تغيير الموجود، وأن الأمر قد انتهى منذ أن خلق الله الكون. وهذا المنطق كما هو ظاهر يناسب الرغبات الانتهازية الكامنة في نفوس الطامعين من الحكام والجبابرة الذين يتخذون منه وسيلة لكبت حركة البشرية باتجاه التحرر والتقدم والرغبة في تحمل المسؤولية الحقّة.

ومن هنا تثبت رجعية هذه الفلسفة وعدم تقدميتها وسلامتها؛ لأنها تتناقض مع الوجدان والفطرة. فهي خاطئة وإن تراكمت ملايين الحجج والبراهين على جدوائيتها، لأن وجدان الانسان أقوى دليلاً وأوضح برهاناً ومنهجاً.

## الانسان.. حيوان متكلم :

رابعاً : إن هذه الفلسفة تحول الانسان الى حيوان متكلم ؛ ليس له من صفات الانسانية إلاّ قابلية التكلم، وحتى هذه القابلية لا تسمن ولا تغني... ما دامت إرادة الانسان معطلة. بينما النظرية الاسلامية ترفع الانسان وتضعه في مصاف الملائكة، بل وأعلى منهم.

فحينما يخاطب الدين الاسلامي الناس ويؤكد لهم بأن إرادتهم وقرارهم واختيارهم يغير الكون ؛ فضلا عن تغييره لأنفسهم، فهو يمنحهم ملكوت

السماوات والارض، وذلك بعد ان يشترط عليهم الاتصاف بالايمان والصدق. ولا يخفى هنا أن هذه الفلسفة الاسلامية لها الأثر الايجابي الاول والاكبر في تربية الناس وتنمية مواهبهم وتفجير طاقاتهم وإصلاح أمورهم، وذلك لأنه أعطاهم الأمل بالتقدم وحثهم على الكدح نحو المطلق جل جلاله .

ومن يقرأ القرآن الكريم ويتدبر في آياته يلحظ بوضوح أن الله تعالى ينسب كل الوجود والمجودات الى قدرته وليس الى قدرة أخرى، باستثناء أمر واحد فقط وهو عمل الانسان ؛ بمعنى أن الله قادر على كل شيء، ومن آيات قدرته أنه أوكل مسير الانسان ومصيره الى الانسان نفسه، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد/١١) وقال كذلك : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (الزلزلة/٧-٨) أي ان المقياس الأول لمستوى حركة البشر ونوعية مصيرهم هو عملهم في الحياة، وليس هناك من تقدير إلهي جامد يحدد مصائرهم.

ولإضفاء المزيد من الايضاح على هذه الفكرة الاسلامية الاساسية لابد من الرجوع الى أحاديث الائمة عليهم السلام واحتجاجاتهم مع خصومهم وتوضيحاتهم لتلامذتهم. ومن ذلك احتجاجات الامام أبي الحسن الرضا عليه السلام الذي عاش في عهد المأمون وعاصر فترة الترجمة والانتشار الفلسفي للمدارس الهندية والاغريقية والفارسية والمانوية والزرادشتية والافلاطونية الجديدة ؛ هذه الفلسفات التي هاجمت المجتمع الاسلامي بفعل التخطيط الفاشل في كيفية استيرادها، أو بفعل السياسة المتعمدة للمأمون الذي كان يريد مشاغلة المجتمع المسلم بقضايا هم في غنىً عنها، ليتمكن من توطيد أركان سلطته والقضاء على

خصومه السياسيين تحت غطاء تُهَم الانحراف الفكري، او بفعل الحريات الواسعة التي اتيحت لليهود والنصارى والمجوس لنشر أفكارهم ومعتقداتهم في ظل كبت الأصوات الاسلامية الاصيلة التي كان يطلقها أئمة الهدى واتباعهم.

ومن احتجاجات الامام الرضا عليه السلام ما كان مع عمران الصابي - وهو من الصابئة الذين يعبدون النجوم - قال له عمران : يا سيدي ؛ ألا تخبرني عن الخالق، إذا كان واحدا لا شيء غيره ولاشيء معه أليس قد تغير بخلقه الخلق؟ (١)

قال له الامام الرضا عليه السلام : " لم يتغير عز وجل بخلق الخلق، ولكن الخلق يتغير بتغييره "

قال عمران : فبأي شيء عرفناه ؟

فقال الرضا عليه السلام : " بغيره ".

قال : فأي شيء غيره ؟

قال عليه السلام : " مشيئته واسمه وصفته وما أشبه ذلك، وكل ذلك محدث مخلوق مدبر ".

قال عمران : ياسيدي فأي شيء هو ؟

قال عليه السلام : " هو نور، بمعنى انه هاد لخلقه من أهل السماء وأهل الارض، وليس لك عليّ أكثر من توحيدي إياه ".

قال عمران : يا سيدي أليس قد كان ساكتا قبل الخلق لا ينطق ثم نطق ؟

---

(١) لاحظ التعبير ودقة السؤال حيث يوحي بأن السائل يعتقد أو يتصور بأن الخالق كما الشمس او الشمعة التي تتضاءل بفعل العطاء والاضاءة والاحتراق.

قال الرضا عليه السلام : " لايكون السكوت إلا عن نطق قبله، والمثل في ذلك أنه لا يقال للسراج: هو ساكت لا ينطق، ولا يقال: إن السراج ليضئ فيما يريد أن يفعل بنا، لأن الضوء من السراج ليس بفعل منه ولا كون، وانما هو ليس شيء غيره، فلما استضاء لنا قلنا : قد أضاء لنا حتى استضأنا به، فبهذا تستبصر أمرك ". (١)

إن الله ناطق منذ الازل، فالقدرة على النطق لديه قدرة ذاتية، وذاته أزل في أزل. وليس المقصود بالنطق هو التكلم، بل هو خلق الكلام..

وفي محاججة أخرى قال الرضا عليه السلام لسليمان المروزي وكان من المتأثرين بالفلسفات الدخيلة:

يا سليمان ألا تخبرني عن الارادة ؛ فعل هي أم غير فعل ؟ قال : بلى هي فعل، قال عليه السلام : فهي محدثة لأن الفعل كله محدث.

قال : ليست بفعل.

قال عليه السلام : فمعه غيره لم يزل ؟ قال سليمان : الارادة هي الانشاء.

قال عليه السلام : يا سليمان هذا الذي عبتموه على ضرار وأصحابه من قولهم : إن كل ما خلق الله عز وجل من سماء أو أرض أو بحر أو بر، من كلب أو خنزير أو قرد أو إنسان أو دابة إرادة الله، وإن ارادة الله تحيا وتموت وتذهب وتأكل وتشرب وتنكح وتلد وتظلم وتفعل الفواحش وتكفر وتشرك، فنبرؤ منها ونُعاديها؛ وهذا حدها.

– فخاف سليمان من هذا الاحتجاج واستأنف قائلاً – : إنها كالسمع والبصر والعلم.

---

(١) بحار الأنوار / ج ١٠ / ص ٣١٢ / رواية ١.

فقال الرضا عليه السلام: " قد رجعت الى هذا ثانية، فأخبرني عن السمع والبصر والعلم أمصنوع؟

قال سليمان : لا.

قال الرضا عليه السلام : فكيف نفيتموه ؟ فمره فلتم لم يرد ومرة قلتم اراد وليست بمفعول له ؟

قال سليمان : إنما ذلك كقولنا مرة علم ومرة لم يعلم.

فقال الرضا عليه السلام : " ليس ذلك سواء، لأن نفي المعلوم ليس بنفي العلم ونفي المراد نفي الارادة ان تكون. (١)

وجاء في حديث آخر: "عن محمد بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن أول ما خلق الله عز وجل، قال : إن أول ما خلق الله عز وجل ما خلق منه كل شيء، قلت : جعلت فداك وما هو ؟ قال : الماء، قال : إن الله تبارك وتعالى خلق الماء بحرين :أحدهما عذب، والآخر ملح فلما خلقهما نظر إلى العذب فقال : يا بحر، فقال : لبيك وسعديك، قال : فيك بركتي ورحمتي، ومنك أخلق أهل طاعتي وجنتي. ثم نظر إلى الآخر فقال : يا بحر فلم يجب فأعاد عليه ثلاث مرات يا بحر فلم يجب ! فقال : عليك لعنتي، ومنك أخلق أهل معصيتي ومن أسكنته ناري، ثم أمرهما أن يمتزجا فامتزجا، قال : فمن ثم يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن". (٢)

وعن علاقة المخلوق الاول بالخالق الأزلي، فقد جاء في الحديث المأثور عن

---

(١) بحار الأنوار / ج ١٠ / ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٢) المصدر / ج ٥ / ص ٢٤٠ / رواية ٢٣.

الامام الرضا عليه السلام أنه قال في جواب سؤال عمران الصابي منه عن الكائن الاول فقال له: سألت فافهم: أمّا الواحد فلم يزل واحداً كائناً لا شيء معه بلا حدود ولا أعراض، ولا يزال كذلك، ثم خلق خلقاً مبتدعاً مختلفاً بأعراض وحدود مختلفة... واعلم أن الواحد الذي هو قائم بغير تقدير ولا تحديد خلق خلقاً مقدراً بتحديد وتقدير، وكان الذي خلق خلقين اثنين: التقدير والمقدر وليس في واحد منهما لون ولا وزن ولا ذوق، فجعل أحدهما يدرك بالآخر وجعلهما مدركين بنفسهما. (١)

وقال آية الله مروارید عن هذه المادة الأولية التي هي أصل وجود الاشياء: تلك المادة مع وجودها - أي تكونها بالله تعالى شأنه - فاقدة بذاتها لنور الحياة والعلم والقدرة وسائر الكمالات النورية، وصيرورتها حية عالمة انما هي بوجدانها ذلك النور، كما ان موتها بفقدها إياه. وإنا نجد ذلك الوجدان والفقدان في انفسنا كل يوم وليلة باليقظة والمنام، مع كوننا موجودين في كلتا الحالتين. (٢)

وقد جاء في الحديث أن المادة الأولى التي خلق منها الاشياء (الماء) قد حُملت دين الله وعلمه. فقد جاء في الحديث المروي عن داود الرقي قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل "وكان عرشه على الماء" فقال: إن الله حمّل دينه وعلمه الماء قبل أن تكون أرض أو سماء أو جن أو إنس أو شمس أو قمر، فلما أراد أن يخلق الخلق نثرهم بين يديه فقال لهم: من ربكم؟ فأول من نطق رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥٧ / ص ٤٧-٤٨ / نقلاً عن كتابي العيون والتوحيد.

(٢) تنبيهات في المبدء والمعاد ص٢١٣.

فقالوا: انت ربنا فحمّلهم العلم والدين. (١)

## ماهو الخلق؟

بالتأمل في أحاديث النبي وأهل بيته نستوحي حقائق الخلقة. تلك الحقائق التي نتحسس بها أيضاً بفطرتنا ووجداننا بعد تذكير النبي وأهل بيته بها. علماً بأن كلامهم قبس من نور الكتاب الكريم. وهدى من آياته المباركة.

وفيما يلي نستعرض جانباً من تلك الاحاديث التي تذكر بحقائق خلقة العالم وتحل المشاكل التي تاهت فيها البشرية وضلت ضلالاً بعيداً.

## كان الله ولا شيء معه :

لم تستطيع البشرية أن تستوعب تلك الحقيقة البسيطة؛ أن الله هو الخالق الواحد الأحد الذي كان قبل كل شيء، وخلق ما خلق لا من شيء. ذلك لأنهم قاسوا ربهم بخلقه فضلوا عنه. ولو تشابه الخالق والمخلوق اذاً انتفت الحاجة الى الخالق.. ومع أن كل شيء مخلوق يدلنا الى خالق خلقه، ومبدع ابتدعه. وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: "لا تصحبه الأوقات، ولا ترفده الأدوات سبق الأوقات كونه، و العدم وجوده، و الابتداء أزله - إلى قوله عليه السلام - لا يجري عليه السكون و الحركة و كيف يجري عليه ما هو أجراه، و يعود فيه ما هو أبداه، و يحدث فيه ما هو أحدثه ؟ إذا لتفاوتت ذاته، و لتجزأ كنهه، و لامتنع من الأزل معناه - إلى قوله عليه السلام - يقول لما أراد كونه : كن، فيكون، لا بصوت يقرع، و لانداء يسمع، و إنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه و مثله، لم يكن من قبل ذلك كائنا، و لو كان قديما لكان إلها ثانيا، لا يقال كان بعد

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥٧ / ص ٩٥.

أن لم يكن فتجري عليه الصفات المحدثات، و لا يكون بينها و بينه فصل، و لاله عليها فضل فيستوي الصانع و المصنوع، و يتكافأ المبتدع و البديع". (١)

وعن الدليل الوجداني على خلقة الاشياء وحدوثها يقول الامام الصادق عليه السلام: رفع الحديث إلى ابن أبي العوجاء حين كلّمه أبو عبد الله عليه السلام عاد إليه في اليوم الثاني ثم في اليوم الثالث فقال : ما الدليل على حدوث الأجسام ؟ فقال : إني ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلاّ و إذا ضم إلى مثله صار أكبر، و في ذلك زوال و انتقال عن الحالة الاولى، ولو كان قديما مازال و لا حال، لأن الذي يزول و يحول يجوز أن يوجد و يبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث و في كونه في الأزل دخوله في القدم ولن تجتمع صفة الأزل و العدم في شيء واحد. فقال عبد الكريم : هبك علمت في جري الحالتين و الزمانين ما ذكرت و استدللت على حدوثها، فلو بقيت الأشياء على صغرها من أين كان لك أن تستدل على حدثها؟ فقال العالم عليه السلام : إنما نتكلم على هذا العالم المصنوع فلو رفعناه ووضعنا عالما آخر كان لا شيء أدل على الحدث من رفعنا إياه و وضعنا غيره، و لكن اجيبك من حيث قدرت أن تلزمنا و نقول : إن الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنه متى ما ضم شيء إلى مثله كان أكبر، و في جواز التغيير عليه خروجه من القدم، كما أن في تغييره دخوله في الحدث، ليس لك وراءه شيء يا عبدالكريم ! فانقطع و خزي. (٢)

وكان السؤال الذي يتكرر على ألسنة الناس؛ هو من أي شيء خلق الله الاشياء؟

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥٤ / ص ٣٠ / رواية ٦.

(٢) المصدر / ص ٦٢ / رواية ٣٢.

وكان الجواب: إنه ابتدعها لامن شيء. وجاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام : (الى أن قال) فقال السائل (فالشيء) خلقه الله من شيء أو من لاشيء ؟ فقال: خلق الشيء لا من شيء كان قبله، ولو خلق الشيء من شيء إذاً يكن له انقطاع أبداً، ولم يزل الله اذاً ومعه شيء. ولكن كان الله ولا شيء معه، وخلق الشيء الذي جميع الاشياء منه وهو الماء. (١)

وقد نقل الامام الصادق عليه السلام القول في هذه المسألة العامة عندما احتج على الزنديق، وذلك حسبما يرويه هشام بن الحكم قال: سأل الزنديق أبا عبد الله عليه السلام فقال: من أي شيء خلق الله الأشياء ؟ قال عليه السلام : من لا شيء، قال: فكيف يجيء من لا شيء شيء؟ قال عليه السلام : إن الأشياء لا تخلو أن تكون خلقت من شيء أو من غير شيء فإن كان خلقت من شيء كان معه فإن ذلك الشيء قديم، والقديم لا يكون حديثاً ولا يفنى ولا يتغير، ولا يخلو ذلك الشيء من أن يكون جوهراً واحداً و لوناً واحداً فمن أين جاءت هذه الألوان المختلفة والجواهر الكثيرة الموجودة في هذا العالم من ضروب شتى؟ ومن أين جاء الموت إن كان الشيء الذي انشئت منه الأشياء حيا؟ ومن أين جاءت الحياة إن كان ذلك الشيء ميتاً ؟ ولا يجوز أن يكون من حي وميت قديمين لم يزالا، لأن الحي لا يجيء منه ميت وهو لم يزل حيا، ولا يجوز أيضاً أن يكون الميت قديماً لم يزل بما نسبوا من الموت، لأن الميت لا قدرة له فلا بقاء. قال : فمن أين قالوا إن الأشياء أزلية ؟ قال: هذه مقالة قوم جحدوا مدبر الأشياء فكذبوا الرسل ومقالتهم، والأنبياء وما أنبؤوا عنه. (٢)

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥٤ / ص ٦٧ / رواية ٤٤.

(٢) المصدر / ص ٧٧ / رواية ٥٣.

وهكذا التأمل في طبيعة المخلوقات وما فيها من آيات الخلقة، وعلامات التحوّل، ودلائل الحدوث والصنع كل ذلك يهدينا الى حقيقة وجودنا القائم بربها، واعتمادها على بارئها. ولكن تبقى مشاكل أخرى ذات أهمية هي، فاذاً كيف تم خلق العالم؟ ويأتي الجواب إنه الابداع والخلق، لاشيء آخر. إنه الله الواسع القدرة خلق الابداع. خلق الارادة والمشيئة، (خلق حرف كن مثلاً). وبذلك خلق الكون.

جاء في الحديث الشريف المأثور عن الامام الرضا عليه السلام: في جوابه على أسألة عمران الصابئ:

واعلم إن الابداع والمشيئة والارادة معناها واحد، واسماؤها ثلاثة. وكان أول ابداعه وارادته ومشيّته الحروف التي جعلها اصلاً لكل شيء. ودليلاً على كل مدرك، وفاصلاً لكل مشكل. (١)

وهكذا قررت الاحاديث الحقيقة التي تعتبر الحد الفاصل بين بصائر الوحي، وتصورات الفلاسفة، وهي؛ إن الارادة انما هي خلق من خلق الله وفعل من افعاله. وانها ليست قديمة معه، حيث روي عن سليمان الجعفري أنه قال: قال الرضا عليه السلام: المشيئة من صفات الأفعال، فمن زعم أن الله لم يزل مريداً شائياً فليس بموحد. (٢)

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥٤ / ص ٥٠.

(٢) المصدر / ص ٣٧ / رواية ١٢.

# سمات المؤمنين بالبداء

في الحديث الشريف عن أحد الصادقين عليهما السلام: ما عظم الله عز وجل بمثل البداء. (١)

وروي عن ريان بن الصلت، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: ما بعث الله نبياً قط إلاّ بتحريم الخمر وأن يقر لله بالبداء. (٢)

وفي حديث مروي عن مالك الجهني قال: سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول: لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه. (٣)

لماذا هذا التأكيد على بصيرة البداء، والحث على العقيدة به، والكلام فيه، وتعظيم الرب تعالى به؟

الجواب: لأن من يؤمن بالبداء، وينظر الى حقائق الخلق ببصيرة البداء، وينطلق

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤ / ص ١٠٧.

(٢) الكافي / ج ١ / ص ١٤٩ (باب البداء).

(٣) المصدر.

في الحياة بوحي البداء. فانه يكون متميزاً جداً عن غيره.. وكلما ازداد الانسان ايماناً بهذه العقيدة، ووعياً لها، كلما ازداد نوراً وعزماً ونشاطاً واستقامة..

## أولاً: التحرر

وذلك لأن هذه البصيرة تجعل البشر متحرراً من كل الحتميات المادية:

أ/ متحرراً من تراثه، وتاريخه وما في حياته. فلأني كنت مثلاً من قوم متخلفين فليس بالضرورة أن أكون كذلك. أو لأني كنت شقياً أو فقيراً أو مستضعفاً، لايجب أن أبقى كذلك، بل استطيع أن أتحرر من ماضي حياتي، أو لأني كنت من قبل من أهل المعاصي والفسق، لاينبغي أن اكون يائساً بائساً، قانطاً من رحمة الله. كل ذلك لايحتم عليّ البقاء في زنزانة التاريخ المظلم لي أو لقومي. لأن الله يفعل ما يشاء، ولأنه كل يوم هو في شأن، ولأنه تعالى قبل توبة الخاطئين. ألم يتب على السحرة الذين كانوا يعبدون فرعون دهراً طويلاً من عمرهم؟ فلما تابوا تاب الله عليهم. وتاب الله على قوم يونس، حيث قال سبحانه: ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنفَعَهَآ إِيمَانُهَآ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ (يونس/٩٨)

وقد قال سبحانه لبني اسرائيل: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (الاسراء/٧)

ب/ ويتحرر الانسان بوعي البداء وامكانية التحول من حتمية المجتمع. فليس بالضرورة أن تعبد الصنم الذي يعبده مجتمعك. وليس بالضرورة أن تعتنق الثقافة التي يؤمن بها مجتمعك. وليس بالضرورة أن تقبل بالعادات التي عليها مجتمعك. صحيح أن للمجتمع ضغطاً هائلاً يشبه الى حد بعيد ضغط الجاذبية التي قد لا

تحس بها ولكنها تحيط بك احاطة السوار بالمعصم. ولكن القوة لله والولاية لله، والملكوت لله سبحانه. واذا توكلت عليه فانه يفتح امامك افاق الحياة الواسعة.

ألم يكفر النبي ابراهيم عليه السلام بمجتمعه ابتداءاً من أبيه وانتهاءاً بقومه، فأراه الله ملكوت السموات والارض وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (الانعام/٧٤-٧٥)

ثم قال سبحانه: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَآجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الانعام/٧٩-٨٠)

وتحدى قومه بكل ثقة وقال لهم بكل صراحة إنه لا يخاف شيئاً مادام أنه قد آمن بالله ولم يشرك به. وقال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الانعام/٨١)

ج/ ويتحرر من خشية الطبيعة. فبدل أن يعبد الطبيعة ويراها حاكمة عليه، يطوّعها ويجعلها محكومة له ومسخرة لأمره..

لقد كانت ملكة سبأ وقومها يعبدون الشمس، فصدت عن السبيل. وقال سبحانه (حكاية عن الطير الهدهد): ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَيَهْتَدُونَ ﴾ (النمل/٢٤)

ولكن الله اعطى لسليمان الذي عبد الله وعظمه أعطاه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وسخر له الريح، وعلّمه منطق الطير، وكان عنده من حمل اليه عرش ملكة سبأ من اليمن الى كنعان في طرفة عين. كل ذلك لأنّه عبد الله ولم يخضع للطبيعة. وقال الله عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا له الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (ص/٣٥-٣٦)

إنك تجد سليمان يستغفر الله، فيتوب عليه ربه، فيدعوه ويستجيب الله له. ولو كان سليمان - إذ فُتِن - سقط في هوة القنوط وزعم أنه من أهل النار، وقد قدر له أن يكون كذلك الى الابد، فانه لم يتب ولم يغفر له. ولكنه حلق بوعي البداء، ووعي قدرة الله. وان رحمته تسبق غضبه وان قضاءه يغلب قدرته، وانه يتوب عن المذنب. وبالتالي إن من الممكن أن يصلح الانسان نفسه بعد الفساد، حلق بهذه البصيرة حتى نال ليس الصلاح وحده وانما الملك الكبير.

ونتساءل: لماذا بعد الاحساس بالذنب وبعد الاستغفار، سأل سليمان الملك الكبير من ربه؟ قد يكون الجواب ان الانسان بعد أن يستغفر ربه يجد الله تواباً رحيماً، ويؤمن بقدرة الله المطلقة، ورحمته الواسعة. وحينئذ يتذكر تطلعاته المكبوتة، ويرى ان من الممكن تحقيقها بفضل الله وبفضل رحمته الواسعة، فلماذا لايطلبها ولماذا لا يطلب من الله الذي قبل توبته، وأصلح ما افسده، وبدل سيئاته حسنات، لماذا لايطلب من هذا الرب الغفور الرحيم هذا الرب الغني القادر لماذا لايطلب المزيد؟ فيطلب ويعطى.

من هنا نجد أن روح البداء هي وراء مثل هذا الطلب العظيم، ووراء هذا الملك الكبير.

د/ ويتحرر من الطاغوت وحكمه حتى ولو كانت اجهزة الطاغوت تحيط به، مثل آسية إمرأة فرعون. فقد آمنت بالله، وعرفت أن الله يستجيب دعاءها فقالت: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم/١١).

ومثل السحرة الذين كانوا ادوات في جهاز فرعون الدعائي التضليلي، فقص علينا قصتهم حيث قال سبحانه: ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الاعراف/١٢٠-١٢٣)

ولأن المؤمن بالبداء، وبقدرة الله الواسعة في نصر المؤمنين به، يتحرر من نير الطاغوت، فإن الطغاة عرفوا ذلك وحاربوا هذه البصيرة الحياتية، وتسلطوا على الناس باسم الجبر. حتى جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله : " إني لعنت سبعة لعنهم الله وكل نبي مجاب قبلي، فقيل : ومن هم يا رسول الله ؟ فقال : الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمخالف لسنتي، و المستحل من عترتي ماحرم الله، والمتسلط بالجبرية ليعز من أذل الله ويذل من أعز الله، والمستأثر على المسلمين بفيئهم مستحلاً له، والمحرم ما أحل الله عز وجل ". (١)

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٨٨ / رواية ٥.

## ثانياً: التطلّع

والمؤمن بالبداء يرى الحياة مهرجاناً من الحركة والحيوية والتطور والتعامل، إنه يرى أمامه آفاقاً لايبصر نهايتها، آفاقاً من القدرة على التقدم والرقي، وهكذا يثار في نفسه فطرة التطلع التي جبل عليها، ويدغدغ ذلك الأمل الذي جعل وقود التكامل في ضمير البشر؛ أمل الملك والهيمنة، أمل المثل والأخلاق، أمل النمو والرفعة.. وبكلمة أمل لقاء الحي القيوم والقرب منه. والمثول بحضرته في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وهذا التطلع هو وجدان كل انسان، وهو روح كل حضارة، وهو بذرة كل تقدم عند البشر. وبالرغم من كل الوساوس الشيطانية التي تحاول أن ترسم صورة جامدة للوجود امام الانسان، ترسم صورة رتيبة لاتطور فيها ولا تسامي، صورة مغلقة لا انطلاق فيها ولا حيوية. بالرغم من هذه الوساوس التي يبثها الفكر الفلسفي الجامد في روع البشر منذ آلاف السنين، إلا ان ذلك الزخم الكبير الذي يولده تطلع البشر يدفعه الى التكامل. وهو يرى أن العالم ليس - كما يزعم البعض - زمهريراً من الجمود، وصقيعاً متراكماً من الحتميات والقيود.. إنه كما اشعة الصباح، ونسيم الربيع، وغناء البلابل، وتيار الأنهر، وحيوية البراعم.. إنه دفء وحركة ونمو وتحول وتدفق.

تعالوا نقرء قصص القرآن المضيئة من جديد. تعالوا نقرء مثلاً سورة "ص" وكل سور القرآن وآياته متشابهة، ففي هذه السورة نقرء قصة داود الذي سخر الله له الجبال، وجعل الطير محشورة كل له اواب، وآتاه ملكاً وحكمة وفصل خطاب.. وبعد أن امتحنه جعله خليفة في الارض ثم قال: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى

﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (ص/٢٥).

أفلا يمكن أن يكون أحد مثل داود؟ ولماذا لا؟ ليست رحمة الرب محدودة، ولا قدرته مقيدة، ولا كرمه يضيق.. سبحانه سبحانه.

ونقرء في هذه السورة قصة سليمان الذي وهبه لداود. وكان نعم العبد إنه أواب فَسَخَّر له ما سخر وآتاه ملكاً كبيراً ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (ص/٤٠) فلم ينقص من رحمة الله له في الآخرة شيء بما أعطاه في الدنيا. لأن رحمة الله واسعة. فكيف لاتسعني إن طلبتها.

ونقرء قصة أيوب الذي أحاط به البلاء، فكان مثلاً في الضراء، ولكنه لما طلب من ربه الشفاء وقال: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ (ص/٤١) قال له الرب تعالى: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ (ص/٤٢) وشفاه من مرضه وعوّضه عما خسر، وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ (ص/٤٣)

بلى إنها ذكرى لأولي الألباب. فلا ييأس أحد اذا أصابه البلاء، وفقد كل ما يملك من مال وأهل وعافية وأمن.. إن الله سبحانه قادر على أن يعيده كما كان وأفضل مما كان.

ومن التطلع الدعاء، والدعاء هو ميراث البداء، وهو مخ العبادة وجوهر الايمان، وقد قال الله سبحانه عنه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر/٦٠)

ووجدان كل انسان شاهد صدق على فاعلية الدعاء في حياته. فهذا المشرك يركب البحر فتهيج به الرياح فلا يجد إلاّ الدعاء أملاً للنجاة، فيدعو ربه، ويقول

الله سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (يونس/٢٢)

وهذا الشاب يعلم بأن زوجته حامل فيهرع وإياها الى الدعاء، طلباً لولد صالح. ولكنهما يجعلان لربهما شريكاً بعد أن يتفضل عليهم بالولد الصالح، ويقول ربنا سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الاعراف/١٨٩-١٩٠)

وهكذا يكشف ربنا الضر ويستجيب دعاء المكروبين.

والانسان إذا بلغ به وعي اسماء الله الحسنى درجة عالية كما كان الانبياء الكرام، فانه يعلم أن القوانين الطبيعية التي نجدها حاكمة في الكائنات ليست إلاّ سنناً إلهية، وأن الله قادر على تغييرها متى شاء، وتحويل مسارها. لأنه القادر والقاهر والمهيمن. ولا شيء يفوق ارادته، إنه هو الذي جعل هذه السنن وهو الذي يجريها بقدرته سبحانه.

ومن هنا فقد دعا زكريا ربه أن يرزقه ذرية طيبة، فوهب له ربه يحيى. وقد كان زكريا يومئذ شيخاً كبيراً وكانت أمرأته عاقراً، فلما سأل ربه كيف يكون ذلك، قال له ربه سبحانه ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (آل عمران/٤٠)

وقد وهب مريم كلمته عيسى من غير أن يمسها بشر، وقال ربنا سبحانه :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران/٤٧)

وفي حياة كل واحد منا عشرات الشواهد التي تدل على استجابة الدعاء، وفي ظروف كنا يائسين من تغييرها لولا الدعاء.

إذاً؛ التطلع ميراث البداء. ومن التطلع الدعاء. وفي قصة يرويها لنا الامام الرضا عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن الله أوحى الى نبي من أنبيائه أن أخبر فلان الملك أني متوفيه الى كذا وكذا، فأتاه ذلك النبي فأخبره، فدعا اللهَ الملكُ وهو على سريره حتى سقط من السرير وقال: يارب اجلني حيث يشب طفلي وأقضي أمري، فأوحى الله عز وجل الى ذلك النبي أن ائت فلان الملك فاعلمه أني قد أنسأت أجله وزدت في عمره خمس عشر سنة، فقال ذلك النبي: يارب انك لتعلم أني لم أكذب قط، فأوحى الله عز وجل اليه: إنما أنت عبد مأمور فأبلغه ذلك، والله لايسأل عما يفعل. (١)

وهكذا القدر حق، ولكن قضاء القدر وتنفيذه بيد الله سبحانه، حيث جاء في الحديث المأثور عن فضيل بن يسار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: إن الله كتب كتاباً فيه ماكان وما هو كائن فوضعه بين يديه فما شاء منه قدم، وما شاء منه أخّر، وما شاء منه محا، وما شاء منه أثبت، وما شاء منه كان وما لم يشأ منه لم يكن. (٢)

ومن هنا فقد أمرنا الدين الحنيف بالدعاء لأن لله سبحانه في أمره البداء. قال

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤ / ص ٩٥.

(٢) المصدر / ص ١١٩.

الامام الصادق عليه السلام فيما روي عنه: ادع ولا تقل إن الأمر قد فرغ منه، إن عند الله عز وجل منزلة لاتنال إلاّ بمسألة. (١)

وقال الامام الكاظم عليه السلام - فيما روي عنه - : عليكم بالدعاء فإن الدعاء لله والطلب الى الله، يرد القضاء وقد قدر وقضي ولم يبق إلاّ إمضاؤه، فإذا دعي الله عز وجل وسئل صرف البلاء صرفة. (٢)

ومن هنا قال آية الله "مروارید": إنه تعالى بعد ما خلق الخلق تكون قدرته، وبسط يده على ابقائه وإفنائه، وتبديله وتغيير ما قدر عليه زيادة ونقصاً وتقديماً وتأخيراً، نظير قدرته على ايجاده واحداثه. (٣)

ثم قال: وبالجملة إن مجرد مشيئته وإرادته وتقديره بل وقضائه بشيء لايوجب عليه تنفيذه وإمضاءه، بل له تغييره بأيسر الدعاء وأيسر الطاعة وأيسر المعصية، ويقول ما شاء الله. وأمثال ذلك الأفعال والأذكار. (٤)

فعن كتاب الامامة والتبصرة من الحيرة لعلي بن بابويه بسنده عن اسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان في بني إسرائيل نبي وعده الله أن ينصره الى خمس عشرة ليلة فأخبر بذلك قومه، فقالوا: والله إذا كان ليفعلن وليفعلن (٥) فأخره الله الى خمس عشر سنة، فأخبر بذلك النبي قومه فقالوا: ما

---

(١) الكافي / ج ٢ / ص ٤٦٦.

(٢) المصدر / ص ٤٧٠.

(٣) تنبيهات حول المبدء والمعاد ص١٩٦.

(٤) المصدر / ص١٩٧.

(٥) أي قالوا أنه سبحانه ليفعل ذلك حتماً ولعل ذلك كان منهم خلاف الأدب إذ حتموا على ربهم فأخر الله النصر عنهم.

شاء الله فعجله الله لهم في خمس عشرة ليلة. (١)

وهكذا تبلور عقيدة البداء معرفة الانسان بالله، وأمله فيه وتطلعه الى الافضل، وتنشط حركته وتبلور حريته. والله المستعان.

بينما القول بأن الله قد فرغ من الأمر يجعل الانسان مغلولاً مقيداً، وقد قال سبحانه: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (المائدة/٦٤)

ترى ان اليهود لما قالوا يد الله مغلولة غلت أيديهم حيث حرموا من التطور.

نسأل الله أن يعصمنا من اليأس والشك وأن يرزقنا توكلاً عليه، وتضرعاً اليه وتوفيقاً وأملاً إنه قريب مجيب.

---

(١) المصدر عن البحار / ج ٤ / ص ١١٢.

# واقع الزمن

ماهو الزمن ؟ و كيف تحقق ؟ سؤالان اختلفت فيهما إجابات الفلسفة البشرية. فحينما يتكلف المرء علم ما لم يحط به خبرا يضل عن طريقه المرسوم من قبل خالقه. فبعض الفلاسفة أنكروا وجود الزمن من رأس، وبعضهم قال بأن الزمن ذرات صغيرة لا ترى ولا تُحس ولا تُحس، وإن هذه الذرات موجودة وهي تأتي وتذهب ولا يشعر بها الانسان إلا بأمارة نموه ونمو أولاده ونمو الطبيعة من حوله. أما إذا قيل لهم : ما هو كنه هذه الذرات وكيف تدخل في عمق الانسان وتخرج من عمقه ؟ أجابوا بأن الزمن كالنهر الجاري، والانسان واقف في هذا النهر والزمن يجري عليه كما هي مياه النهر تجري على الانسان الذي يسبح فيها.

ثم إن بعضهم قسم الزمن الى قسمين فقال : إن من الزمن ما يمر ويتحرك كمياه الأنهر، وهذا الزمن الذي يعرف بأماراته وعلاماته كالنمو. والقسم الثاني هو الزمن الرسوبي ؛ تماماً كما الحال في علوق بعض ذرات مياه النهر الصغار في جسد السابح، أو ما يخلد في قاع النهر من تراب ورمل، وهذا الزمن المترسب

هو الزمن الواقف غير المتغير. أما إذا قيل لهم : كيف يمكن تصور زمن لا يجري ولا يتغير ولا تتحرك فيه ساعة صاحبه ؟ أجابوا بأن هذا الزمن هو زمن الآلهة !!

ولايخفى أن اليونانيين القدماء كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة، وكانوا يرون بأن لكل شيء إلها، فللشمس إله وللقمر إله وللرياح إله وللحرب إله وللحب إله.. وكانوا يسمون هذه الآلهة برب الأنواع ؛ أي أن لكل نوع من أنواع الموجودات رب يدّبر شؤونه، لذلك فهم كانوا يعبدون أكثر من إله. ولا تزال حتى الآن تماثيل آلهتهم وأصنامهم في معابدهم ومتاحفهم، وباعتقادهم أن للآلهة زمناً مترسباً لايتحرك، فإنهم كانوا يعتقدون بان هذه الآلهة لاتتغير أيضاً.

وبعد ذلك، وصل بهم الامر الى القول بأن للإنسان أن يرتفع الى مستوى الآلهة، وذلك حسب طبيعة خلقة هذا الانسان، او بسبب انتخاب الآلهة نفسها له؛ لما يقوم به من اعمال جبّارة تخرج عادة عن نطاق القدرة الطبيعية للناس.

وهناك نظرية أخرى مستوحاة من هذه النظريات تقول بأن الزمن إنما هو حركة جوهرية في مادة الأشياء. فالانسان له وجهان ؛ الأول: المادة التي هي عبارة عن الذرات المتكونة منها، والثاني: صورته الخارجية التي نراها. فكل مادة من المواد سواء كانت جسماً إنسانياً أو حجراً صلداً أو نباتاً حيّاً، أو حتى مواد السماء والارض، توجد في عمق وجودها حركة تسمى بالحركة الجوهرية.

وحاول بعض الفلاسفة شرح هذه النظرية بالاشارة الى أن الزمن يتجسد في صورة المادة. فتراهم يقولون تارة بأن الزمن يمر على الانسان، كما النهر يمر على السابح، وقد تعلق بعض ذرات هذا الزمن بجسد الانسان، كما تعلق بعض ذرات الماء بجسد السابح. وتارة أخرى يقولون بأن الإنسان هو الزمن بحد ذاته، فالناس

ليسوا إلاّ أزمنة متحركة، بإعتبار أن الزمن هو جوهر الانسان وحركته. وباختصار، فان هناك عدة نظريات عند الفلاسفة حول الزمان نذكرها بايجاز شديد:

أ- فالمعلم الأول يرى حقيقة الزمن هو مقدار حركة الجسم المحيط بسائر الاجسام.

ب- ويقول صدر المتألهين: انه مقدار حركة الجوهر السيال وبتعبير آخر : الزمان هو - في حقيقته - الحركة الجوهرية التي تتم في كل جسم فمقدار تلك الحركة يسمى بالزمان. ولعل ذلك هو الذي يسميه انيشتاين بالبعد الرابع.

ج- ومن الفلاسفة من يرى الزمان مجرد وهم فالماضي والحاضر والمستقبل لاوجود له في الخارج بل يوجد فقط في أوهامنا.

د- وقال بعض الفلاسفة الزمن مجرد رابطة حادثة بأخرى. فاذا صليت عند الفجر فقد ارتبطت صلاتك وهي حادثة بطلوع الفجر وهو حادث آخر فعلاقة هذه الحادثة (الصلاة) بذلك الحادث (طلوع الفجر ) هذه العلاقة او الرابطة هي الزمان.

هـ- ويقول افلاطون: إن الزمان امتداد جوهري قائم بذاته فاذا نسب الى الازليات سمي الزمان بالسرمد. وإذا نسب الى الموجودات المجردة سمي الدهر. وإذا نسب الى المتغيرات سمي بالزمان (راجع هامش الصفحة٨٤-٨٥ من كتاب علم الكلام ج١ تأليف سيد أحمد صفائي) .

## الزمن : رؤية إسلامية :

قبل تبيين النظرية الاسلامية الخاصة بالزمن لا بد من الاشارة الى أن بعض النظريات نسبت باطلا الى الاسلام وهي ليست منه في شيء.

أما النظرية الحقة فتقول : إن الزمن ليس شيئا بعيدا عن المادة، وليس من الشرع او العقل أو الوجدان الاعتقاد بأن في ذاتنا تيار من الزمن ذي الذرات الدقيقة الصغيرة. فالزمن ليس هواءً حتى يدخل في رأس الانسان ويخرج من الجانب الآخر، بل إن الزمن تابع للمادة. ونحن حينما نتعمق في المادة نصل الى الذرة، وهذه الذرة مكونة من بروتون وألكترون بعضها يدور حول بعض، ولو توقفت النويّات الصغيرة في الذرة لتلاشت وانعدمت، وانعدام الذرة ليس الا انعدام الحركة. وعلم الفيزياء يؤكد بان الطاقة والمادة شيء واحد، فلا فرق بين الفحمة وبين نار هذه الفحمة، لأن نار هذه الفحمة هي ذرات الفحمة التي تتفجر شيئاً فشيئاً ؛ وكذلك لا فرق بين قنينة البنزين وبين وقود هذه القنينة. فالمادة طاقة متجمدة والطاقة مادة متحركة. هذا ما يقوله علم الفيزياء، ونحن ايضا نقول بهذا، وقد فسرت ذلك في كتاب " الفكر الاسلامي " في باب فلسفة النور، وقد أسمينا فلسفة الاسلام بفلسفة النور، واستشهدنا بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ (النور/٣٥)

إن الفرق بين الاسلام وبين ما يقوله غيره يتجسد في تأكيد الاسلام على أن الزمن شيء مجرد ؛ خلقه ربنا سبحانه بكلمته التامة وهي نور نبينا محمد صلى الله عليه وآله. فالزمن هو ذات الخلقة، لأن هذا المخلوق لم يكن ثم كان. ولو افترضنا عدم وجود الاشياء، بل كان هناك فقط، وفقط نور النبي صلى الله عليه وآله ونور أهل بيته عليهم السلام أمام العرش، فإن ذلك يعني وجود الزمن. لذلك نجد في تعابير الروايات الشريفة كلمات " فبقينا، فلبثنا، دهورا " أضلة خضراء أمام عرش ربنا نسبح ونقدس له. يعني أن الزمن كان يمر عليهم، بالرغم من أن الشمس

لم تكن ولا الأرض ولا القمر ولا الليل ولا النهار...

والجنة كذلك، فهي ذات وقت لا شمس فيه، والنور فيها متساوي التأثير في كل مكان. إن الجنة مخلوقة من جوهرة بسيطة حمّلها ربنا جل ثناؤه عَرَضا إسمهُ النور ؛ أي جوهرة نورية، لذلك، فالجنة كلها حياة، ونورها يتضاعف باستمرار بفعل الحركة الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام وبقية المؤمنين، تبعاً لعظمة نورهم المتفوق على نورها.

إن من يعتقد بالحركة الجوهرية للمادة يختلف عن المعتقد الاسلامي في نقطة هامة للغاية، وتلك النقطة هي قولهم بأن الحركة الجوهرية حركة ذاتية ؛ أي أن ذات كل شيء الحركة، وأن ذات كل شيء السير نحو التكامل والكمال. وهذه المقولة تشبه الى حد ما مقولة ماركس وداروين بالنسبة الى الحيوانات، ونظريات أخرى تعتقد بأن الكون في مسيرة تكاملية دائمة الى الامام. أما نحن الاسلاميين فنرفض هذه المقولة ونؤكد بأن كل شيء ميت إلا بالله، فحياته بالله وعلمه بالله ومماته بالله.. وليس ذات الانسان التحرك باتجاه الكمال، بل يبدو في كثير من الأحيان أن العكس هو الصحيح، والشواهد كثيرة للغاية على أن مسيرة بعض الناس عكسية تماما، فهم بدل التطور اختاروا التراجع فكانوا أسفل سافلين، بل إن خلقة الانسان وتكوينه الجسماني آيلان الى التراجع نحو الموت، ولو لم يكن في الأمر بُعْدٌ آخر يمنح الحياة ثانية، لقلنا بأن مصير الانسان هو الفناء والعدم الأبدي.

لو كانت ذات الاشياء متحركة ؛ منتهية الى الكمال فما كانت ثمة حاجة الى الله تعالى، لأن حركة الكمال المجردة تعني الوصول الى أعلى مراحل الوجود وهو الأزل والقدم، لأن الأزل فوق الزمان.

إن جوهر الفرق بين النظرية الاسلامية والنظريات الاخرى هو أن الاسلام يقول بأن فطرة الانسان ووجدانه يدلانه على نقصه، وأن كماله وحياته وعلمه بالله جل جلاله. وكل شيء هالك إلا وجهه، وكل شيء فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام. ويقول الامام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة : " أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري ؟ " وربنا عز وجل يقول في سورة الأنفال : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (الانفال/١٧) أي أن الانتصار الذي حققه الرسول صلى الله عليه وآله وجنوده في الحرب ضد الكفار وهو كان بمثابة التكامل لم يكن سوى إمدادا إلهيا، وان حقيقة الرمي الذي قام به الرسول صلى الله عليه وآله حقيقة غيرية لحقيقة غيبية تشير الى مصدرية الخالق الأوحد.

## الزمان في بصائر النصوص :

وبوضوح تام نجد النصوص الاسلامية (الكتاب والسنة) تؤكد على النظرية الاسلامية حول الزمان، وان الزمان مخلوق لله، مُقدَّر بتقديره، ونستعرض بعض النصوص من خلال العناوين التالية :

### ألف/ التقدير

كما قدر الله سبحانه كل شيء تقديراً في الحجم، والكثافة، والخواص، كذلك قدرها في أعمارها، فجعل لكل شيء قدراً من (الزمان) وأجلاً ونهاية، فقال سبحانه عن التقدير:

١/ ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ (الفجر/١٦)

٢/ ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ (المرسلات/٢٣)

٣/ ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ

الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ (الرعد/٢٦)

٤/ ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ (القمر/١٢)

٥/ ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (الاعلى/٣)

٦/ ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (يس/٣٩)

٧/ ﴿ إِنَّا انزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلآئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أَمْرٍ * سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (القدر/١-٥)

٨/ ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّـهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ (الطلاق/٣)

٩/ ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ الَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (الانعام/٩٦)

١٠/ ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (يس/٣٨)

١١/ ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد/٨)

١٢/ ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة/٥)

١٣/ ﴿ تَعْرُجُ الْمَلآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج/٤)

١٤/ ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ

سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ (طه/٤٠)

١٥/ ﴿ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (المرسلات/٢٢)

بالتدبر في هذه الآيات نعلم أن التقدير الالهي الأول للخلق، كان شاملاً للزمان الذي يستغرق كل حادثة.. فمثلاً الشمس والقمر قدرهما تقديراً زمانياً. كما جعل لكل شيء قدراً ونهاية زمانية. وليلة القدر زمان، وفيها تقديرات الامور الزمانية منها وغير الزمانية. ومن ذلك أن موسى جاء قومه على قدر (وقت معين).

وكذلك كان أمر الله قدراً مقدوراً.

فعنصر الزمان مقدر ومعلوم عند الله سبحانه، كما كل جانب من جوانب الخلقة.

## باء/الأجل

وقد صرحت الآيات القرآنية على أن الاجل هو الآخر محدد، فقال تعالى:

١/ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (الانعام/٢)

٢/ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الانعام/٦٠)

٣/ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَيَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الاعراف/٣٤)

٤/ ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ

رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (الرعد/٢)

٥/ ﴿ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الحج/٥)

٦/ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (العنكبوت/٥٣)

٧/ ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ (فاطر/١٣)

٨/ ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ (الاحقاف/٣)

٩/ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران/١٤٥)

وهكذا تجد أن لكل شيء أجل، وأن الله قد سمّى هذا الاجل عنده. ولكل نفس أجل، ولكل أمة أجل، وحتى للشمس والقمر أجل، وللقاء الله أجل.

وهذا الاجل هو الوقت المحدد الذي قضاه الله للأمور وهو الزمان، إذن، فتقدير

الزمان وتدبيره بيد الله سبحانه.

## جيم/ الوقت

وقد وقّت الله سبحانه الأمور، والوقت هو الزمان أو ساعاته، فقال تعالى:

١/ ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ (المرسلات/١١)

٢/ ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ (الحجر/٣٨)

٣/ ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماوَاتِ وَالاَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ ﴾ (الاعراف/١٨٧)

وبالتدبر في هذه الآيات نستوحي أن ساعات كل شيء بأمر الله سبحانه. فليس الله سبحانه قد قدر منذ اليوم الأول للخلق مقادير وآجال الاشياء، بل هو سبحانه الذي يجري كل شيء بوقته، وقد جعل سبحانه لكل أجل كتاب كما جعل لكل نبأ مستقر.

وهكذا الزمن ليس وهماً في الخيال، بل قدر مقدور وأجل مسمى ووقت موقوت، وإرادة عليا فوقها جميعاً تنفذ ما قدر وما أجل، وما وقت سبحانه فكيف يكون فوضى وعبثاً.

وفي الاحاديث أيضاً تذكرة بهذه الحقيقة؛ أن الله هو الذي وقّت الوقت. وحدّد الأجل. نقرء فيما يلي بعضاً منها:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال : جاء حبر من الأحبار إلى أميرالمؤمنين عليه السلام فقال : يا أميرالمؤمنين! متى كان ربك؟ فقال له : ثكلتك امك ! و متى لم

يكن حتى يقال متى كان ؟ كان ربي قبل القبل بلا قبل، و بعد البعد بلا بعد، و لا غاية و لا منتهى لغايته، انقطعت الغايات عنده، فهو منتهى كل غاية. (١)

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام لذعلب، إن ربي لطيف اللطافة، لا يوصف باللطف، قبل كل شيء لايقال شيء قبله -الى قوله- لا تحويه الأماكن، و لا تضمّنه الأوقات -الى قوله- سبق الأوقات كونه، و العدم وجوده، والابتداء أزله -الى قوله- ففرق بين قبل و بعد ليعلم أن لا قبل له و لا بعد له، و شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمعززها، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقّتها، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه و بين خلقه، كان رباً إذ لامربوب، و إلهاً إذ لا مألوه، وعالماً إذ لا معلوم، و سميعاً إذ لا مسموع. (٢)

فالله سبحانه هو الموقت للوقت. والذي جعل الشيء بعداً أو قبلاً سبحانه.

## دال/في أيام

لقد خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، وقدر أقواتها في أربعة أيام. وخلق الأرض في يومين. مما يهدينا الى أن الخلق استقر في ظرف زماني. بل يهدينا الى أن عنصر الزمن جزء من الخلق، تعالوا نقرء بعض الآيات:

١/ ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (الفرقان/٥٩)

٢/ ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥٤ / ص ١٦٠ / رواية ٩٤.

(٢) المصدر / ص ١٦٥-١٦٦ / رواية ١٠٤.

فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (فصلت/٩-١٢)

٣/ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج/٤٧)

ومن آيات القرآن الكريم نستوحي أن معنى ( اليوم ) هو قدر محدد من الزمان، سواءً حدد بمطلع الشمس ومغربها (كأيامنا). أم حدد بحادثة معينة؛ مثلاً حيث قال بعضهم ﴿ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ (البقرة/٢٤٩). أو حدد بحكمة أخرى؛ كاقامة العدل حيث قال سبحانه: ﴿ مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاتحة/٤) وهكذا تكون للخلقة زمان محدد.. وقد قال سبحانه في آية كريمة: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (الروم/٨).

فالحق والأجل كانا مع خلقة الأرض والسماء. والذي يبدو لي من خلال التأمل الوجداني ومن خلال معرفة بعض الحقائق في علم الفيزياء الحديثة. وأهم من ذلك من خلال التدبر في الأيات والأحاديث هو التالي: أن حقيقة الإبداع والخلق والرزق، هي الحدوث والتغير والتطور، وهو حقيقة الزمن. فالزمن هو الحدث، ولكن بلحاظ تطوراته. ولذلك فإن خلقة السموات والأرض تمت في أزمان. وفي ذلك دلالة على أن الحدوث تم شيئاً فشيئاً. وأن الله سبحانه هو الخالق الآمر والرب المدبّر، وأنه لم يفرغ من أمر الخلقة.. تعالى الله.

بلى أن ذات الابداع، وذات المشيئة الربانية، وذات الفعل الالهي الذي يتعلق بالربوبية، لا زمان له. ولكن موضوع الابداع والانشاء وما تعلقت به الخلقة والربوبية ذات زمن لانه مُحْدَث.

ولعل النص الذي دلّ على أن الخلق الاول (الارادة) لاوزن له ولا حركة يعني ذلك، فقد قال الامام الرضا عليه السلام فيما روى عنه النوفلي: فالخلق الاول من الله عز وجل: الابداع، لاوزن له ولا حركة ولا سمع ولا لون ولا حس، والخلق الثاني : الحروف، لا وزن لها ولا لون وهي مسموعة موصوفة غير منظور اليها. والخلق الثالث ما كان من الانواع كلها محسوساً ملموساً ذا ذوق منظوراً اليه. والله تبارك وتعالى سابق للابداع، لانه ليس قبله عز وجل شيء، ولا كان معه شيء. والابداع سابق للحروف. والحروف لاتدل على غير أنفسها.

قال المأمون (١) وكيف لاتدل على غير أنفسها؟ قال الرضا عليه السلام: لأن الله عز وجل لايجمع منها شيئاً لغير معنى أبداً، فاذا ألف منها أحرفاً أربعة أو خمسة أو ستة أو أكثر من ذلك أو أقل، لم يؤلفها لغير معنى، ولم يك إلاّ لمعنى محدث لم يكن قبل ذلك شيئاً. (٢)

ويبدو أنّ هذه البصيرة تحل اللغز العلمي الذي حارت فيه النظريات الرياضية الحديثة. حيث أن العلماء قدروا لحظة الأنفجار الكبير بوقت قصير جداً يقترب من الزمن الصفر، وهو حاصل تقسيم الثانية الواحدة الى رقم تُوضَع على يمينه خمسة

---

(١) الحديث كان عند المأمون العباسي.

(٢) الحديث مفصل أخذنا منه موضع الشاهد وهو موجود في كتب الحديث منها بحار الأنوار / ج ٥٤ / ص ٥١.

واربعون صفراً.

ولما فكروا فيما وراء ذلك الزمن الصفر ذُهل بعضهم، حتى أن عالمين رياضيين من "بلجيكا" ادخلا المصحة العقلية، مما حدى بالآخرين غلق هذا الملف وإعتباره نهاية قدرة العقل.

بلى؛ ان المخلوق الأول. وهو ذات المشيئة وذات الابداع لايشبه سائر الحوادث، إنه مجرد من الحركة. والواقع أنه يخلق في لحظة تشبه الزمن الصفر في الحادثة التي وراءها، حيث أن أمر الله سبحانه بين الكاف والنون، فاذا أراد شيئاً فانما يقول له كن فيكون فسبحانه سبحانه.

## هاء/ نور محمد صلى الله عليه وآله

ونستفيد من الأحاديث الشريفة أن الله خلق أول من خلق : نور محمد صلى الله عليه وآله والأنوار القدسية التي اشتقها من نور النبي محمد صلى الله عليه آله، وقد لايفقه البعض تفسيراً لهذه الحقيقة، كما لانفقه تفسير كثير من الحقائق الكبرى. ولكنها حقائق استفاضت بها النصوص المؤكدة. وعلينا التسليم لها لحين توفيق الله للبشرية على دركها ووعي مضامينها الحياتية. واليك عدداً من النصوص في هذا المجال :

١/ وروي عن الامام ابو جعفر الباقر عليه السلام انه قال لجابر الجعفي : " يا جابر كان الله ولا شيء غيره ولا معلوم ولا مجهول، فأول ما ابتدأ من خلق خلقه ان خلق محمداً صلى الله عليه وآله وخلقنا أهل البيت معه من نوره وعظمته، فأوقفنا أظلّة خضراء بين يديه، حيث لا سماء ولا أرض ولا مكان ولا ليل ولا نهار ولا شمس ولا قمر يفصل نورنا من نور ربنا كشعاع الشمس من الشمس،

نسبّح الله تعالى ونقدسه نحمده ونعبده حق عبادته. ثم بدا لله تعالى عز وجل أن يخلق المكان فخلقه... ثم أودعنا بذلك النور صلب آدم عليه الصلاة والسلام، فمازال ذلك النور يتقل من الاصلاب والارحام من صلب الى صلب، ولا استقر في صلب إلاّ تبيّن عن الذي انتقل منه انتقاله، وشرّف الذي استقرّ فيه حتى صار في صلب عبد المطلب... فافترق النور جزئين : جزء في عبد الله وجزء في أبي طالب...". (١)

٢/ وسأل المفضل الامام الصادق عليه السلام : ما كنتم قبل ان يخلق الله السموات والارضين ؟ قال عليه السلام : كنا أنواراً حول العرش نسبح الله ونقدسه، حتى خلق الله سبحانه الملائكة فقال لهم : سبحوا، فقالوا : يا ربنا لا علم لنا، فقال لنا : سبّحوا، فسبّحنا فسبّحت الملائكة بتسبيحنا، ألا إنا خُلقنا من نور الله، وخُلق شيعتنا من دون ذلك النور، فإذا كان يوم القيامة التحقت السفلى بالعليا، ثم قرن عليه السلام بين إصبعيه السبابة والوسطى - وقال : كهاتين. يعني نور شيعة أهل البيت عليهم السلام في يوم القيامة -. (٢)

٣/ وقال ابن عباس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يخاطب علياً ويقول : يا علي إن الله تبارك وتعالى كان ولا شيء معه، فخلقني وخلقك روحين من نور جلاله، فكنا أمام عرش رب العالمين نسبح الله ونقدسه ونحمده ونهلله، وذلك قبل أن يخلق السماوات والارضين، فلما أراد أن يخلق آدم خلقني وإياك من طينة واحدة، من طينة عليين، وعجننا بذلك النور وغمسنا في جميع الانوار

---

(١) بحار الأنوار / ج ٢٥ / ص ١٧ / رواية ٣١.

(٢) المصدر / ص ٢١ / رواية ٣٤.

وأنهار الجنة، ثم خلق آدم واستودع صلبه تلك الطينة والنور، فلما خلقه استخرج ذريته من ظهره فاستنطقهم وقررهم بالربوبية، فأول خلق (الله) إقراراً بالربوبية أنا وأنت والنبيون على قدر منازلهم وقربهم من الله عز وجل، فقال الله تبارك وتعالى صدقتما واقررتما يا محمد ويا علي، وسبقتما خلقي الى طاعتي، وكذلك كنتما في سابق علمي فيكما، فأنتما صفوتي من خلقي، والائمة من ذريتكما وشيعتكما وكذلك خلقتكم. ثم قال النبي صلى الله عليه وآله: يا علي فكانت الطينة في صلب آدم ونوري ونورك بين عينيه... (١)

(١) بحار الأنوار / ج ٢٥ / ص ٣ / رواية ٥.

# بين القدر والقضاء

أخرجت الفلسفة البشرية الوضعية موضوع القدر والقضاء من محتواه الحقيقي، وأفقدته فائدته الايمانية المناسبة لها، وذلك بما ذهبت اليه من معتقدات فاسدة، بعيدة كل البعد عن مفاهيم القرآن الكريم وغايات الخالق العظيم.

وقبل أن نعرف القدر والقضاء والمشيئة والارادة، لابد من طرح مقدمة هي من الاهمية بمكان بالنسبة لاستيعاب الموضوع برمته.

إن الانسان حينما يتحدث عن الله سبحانه وتعالى عليه أن ينطلق بدءاً مما عرّف الله نفسه في قرآنه الكريم، والقرآن الكريم اكد في أكثر من مناسبة على أن اقتران صفةٍ ما، أو إسم ما بالله عز وجل يختلف اختلافا كليا عن اقتران صفة أو اسم ما بالمخلوق، وذلك تبعا للتفاوت الموجود بين الطرفين.

فحينما تقول : إن الله حنان ورحمان، وإن الله أراد كذا وما أشبه، فلا بد من أن تعرف بأن معنى كلامك يختلف عما إذا قلت : فلان حنان ورؤوف، وأنه غضب أو أراد كذا.

والفرق في ذلك يكمن في أن الحديث عن الله يعني الحديث عن غاية الفعل، أما الحديث عن الانسان فهو حديث عن مبدئه. فالانسان حينما يرحم أحدا من الناس فإن فعله هذا يتحقق عبر مراحل معينة، فهو ينظر إليه ثم يرى ما به من ضعف وعجز، ثم يتألم له قلبه، ثم تثور نفسه، ثم يأخذ مقدارا من المال ويعطيه. وأنت حينما ترى رجلا جريحا قد دهسته سيارة فانك ترحمه وتنقذه وتسعفه وتذهب به الى أقرب مستشفى ؛ أي أن مراحل فعلك تمثلت بالنظر إليه، ثم بتأثر القلب، ثم بهمة النفس، ثم بالقرار والعزم على إنقاذه، ثم حمله الى المستشفى. فإذا قيل : فلان رحيم يعني أن (الرحمة) قد مرت عبر هذه المجموعة المتعاقبة من المراحل حتى تحققت.

أما إذا قلنا : (رحم الله فلاناً)، فإننا لا نعني أن الله قد نظر اليه بعينه، فالله لا عين له. ولانعني أن الله قد تأثر قلبه جراء هذا المنظر المفجع أو ذاك، فالله لا قلب له. فالله ينظر من دون عين، ويرحم الانسان من دون توجع قلب. فالانسان بحاجة الى المراحل والمقدمات ليحصل في ذاته تحول متكامل، اما الله جل جلاله فلا حاجة به الى تحول. فمعنى أن الله رحم فلانا هو ان السيارة كادت تدهسه فنبّه السائق والسائق غيّر الاتجاه ولم يدهسه، فالعمل نفسه الذي يقوم به الانسان الرحيم عبر الوسائل وبعد التحولات الذاتية يقوم به الله تعالى ولكن دون الحاجة الى مقدمات، وهذا معناه : " خذ الغايات واترك المبادئ " في إطار الحديث عن فعل الله تعالى.

ولنضرب مثلاً آخر: حينما ننعت انساناً بأنه غضبان، فنعني أن الدم تدفق الى قلبه، وان اعصابه تحركت وتشنجت، وان عينه احمرت، وأن أوداج رقبته برزت؛

فسادت الجسم والروح حالة استثنائية، ثم رفع يده وضرب صاحبه أو صرخ في وجهه أو أدى ما عبَّر عن غضبه. فتلك هي المقدمات وهذه هي النتيجة، ولكن الحديث عن غضب الله غني عن وجود أو حتى تصور وجود هذه المقدمات. فالله لا دم ولا قلب له ولا عروق ولا أوداج له.

إذاً، فالمبادئ أمر يخص الانسان، والنتيجة أمر يخص الله تعالى.

حينما يريد الانسان القيام بعمل ما فهو يفكر ويخطط ويعزم ويقرر، كأن يقف في الشارع وينظر الى هذا الطرف وذاك ويتأكد من ساعته فيفكر قليلا ويسهو قليلا ويطالع مذكرته ليراجع جملة من النقاط المدونة، ثم يصل الى نقطة الاوج في قراره فينطلق.

لكن مجمل هذه البدايات لا وجود لها في الحسابات الالهية، إنه في غنى مطلق عنها، لأنه خالقها لغيره. فهو يشاء وينتهي الأمر. ولكن كيف هي مشيئة الله تبارك وتعالى ؟ وكيف يفعل ؟

هذان سؤالان من جملة أسئلة تبقى الاجابة عليها مجهولة، ليس الآن فقط، بل والى الأبد، لأن الله جل جلاله، تعالى عن أن تدركه الابصار وهو يدرك الابصار، فقد قرئ بين يدي العالم عليه السلام قوله : " لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار " فقال : إنما عنى أبصار القلوب وهي الأوهام... (١) فالله لا يمكن أن يتوهمه الانسان، وكلما توهمه الانسان فهو مخلوق مردود عليه. هذا الذي يمكن أن يتوهمه الانسان ليس هو الله. وقد جاء في الدعاء : " إلهي طموح الآمال قد خابت إلاّ لديك، ومعاكف الهمم قد تعطلت إلاّ إليك، ومذاهب العقول قد

---

(١) بحار الأنوار / ج ٣ / ص ٢٦٢ / رواية ١٧.

سمت إلاّ إليك..." (١) ففعل الانسان يسمو ويسمو ولكنه يعجز عن الوصول الى رب العالمين.

## مراحل خلق الكون :

أما قضية القدر والقضاء، فيمكن تصورها عبر استيعاب مراحل خلق الكون ؛ المراحل المتمثلة بخلق المشيئة التي تخلق الارادة ثم التقدير ثم القضاء ثم التحقق.

فالله جل وعلا خلق المشيئة ثم خلق الأشياء بالمشيئة الفعالة (الارادة). فالمشيئة قررت خلق مخلوق ما فهذا هو (الارادة) ثم قامت بتصميمه وهندسته ومعرفة أبعاده وأقداره من حيث المساحة والحجم والحرارة والبرودة والقابليات، وهذه هي مرحلة (التقدير) أو (القدر) المتمثلة بالتخطيط والتصميم، ثم تأتي مرحلة (القضاء)، بمعنى أن هذا المخلوق أصبح معروفاً وجاهزاً، وبعد ذلك تأتي مرحلة التحقق والامضاء ؛ أي إنزال هذا المخلوق الجديد الى أرض الواقع وحيز الوجود.

ولبيان ذلك نسوقُ مثلاً -والأمثلة تضرب ولا تقاس، وتعالى الله عن الامثال- : أن ملكاً في بلد ما يريد خوض حرب ضد عدوه، فهو يعمد أولاً الى تنصيب قائد للعمليات، ثم يقرر هذا القائد وبتوجيه من الملك ما يحتاجه الجيش من سلاح وقوات ومواقع. هذا كله يجب أن يقرر ضمن خريطة تفصيلية شاملة، ثم يأتي قرار تحديد ساعة الصفر فلا تحتاج القوات إلا الى الأمر النهائي بالهجوم، وبعد ذلك تقرع طبول الحرب...

فقرار التنصيب هو بمثابة المشيئة.وقرار الحرب بمثابة الإرادة. وتعيين ما تحتاجه القوات بمثابة التقدير والقدر. وتحديد ساعة الصفر بمثابة القضاء. وقرع الطبول

---

(١) بحار الأنوار / ج ٨٤ / ص ٢٧٧ / رواية ٧٠.

بمثابة التحقق والامضاء.

فالمراحل هكذا : شاء وأراد، وقدر وقضى وأمضى. فالله سبحانه وتعالى أراد ما شاء وقدر ما أراد وقضى ما قدر وأمضى ما قضى، هذه هي مراحل القدر والقضاء.

ولاشك أن هذه الامور الخمسة حادثة وليست قديمة مع الله تبارك وتعالى. إنما القديم مع الله هو العلم، والعلم ذاته. بينما المشيئة والارادة والقدر والقضاء والامضاء مخلوقات حادثة، والبداء في المشيئة موجود وفي الارادة موجود وفي القدر موجود، ولكن إذا تحول القدر الى قضاء فليس هناك بداء، إذ وراء القضاء مباشرة يأتي الامضاء، وإذا أمضى الله شيئا انتهى الأمر.

## القدر والقضاء في أحاديث أهل البيت عليهم السلام :

أما الاحاديث والروايات الشريفة في هذا الخصوص، فقد جاء في كتاب (بحار الأنوار) عن يونس عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال :.. لا يكون إلاّ ما شاء الله وأراد وقدر وقضى. قلت : فما معنى شاء ؟ قال الامام عليه السلام : ابتداء الفعل. قلت : فما معنى أراد ؟ قال الامام عليه السلام : الثبوت عليه. قلت : فما معنى قدّر ؟ قال الامام عليه السلام : تقدير الشيء من طوله وعرضه. قلت : فما معنى قضى ؟ قال الامام عليه السلام : إذا قضى أمضاه، فذلك الذي لا مرد له. (١)

فابتداء الفعل هو أول ما يحصل من جانب الفاعل ويصدر عنه، وإرادة الفعل تعني الثبوت عليه. وتقدير الشيء يعني التخطيط له وهندسته. وقضاء الشيء يعني الامضاء الذي لا عودة فيه.

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ١٢٢ / رواية ٦٨.

وقال الرضا عليه السلام ليونس مولى علي بن يقطين : يا يونس ؛ لا تتكلم بالقدر. قال (يونس) : إني لا أتكلم بالقدر، ولكن أقول - شيئاً واحداً - : لا يكون إلاّ ما أراد الله وشاء وقضى وقدّر. فقال الامام الرضا عليه السلام : ليس هكذا أقول، ولكن أقول : لا يكون إلاّ ما شاء الله وأراد وقدّر وقضى. ثم قال : أتدري ما المشيئة ؟ فقال (يونس) : لا. فقال عليه السلام : همّه بالشيء - وهو ليس همّنا - أوَ تدري ما أراد ؟ قال : لا. قال عليه السلام : إتمامه على المشيئة. فقال عليه السلام : أوَ تدري ما قدر ؟ قال : لا. قال عليه السلام : هو الهندسة... ثم قال عليه السلام : إن الله إذا شاء شيئا أراده، وإذا أراد قدّره، وإذا قدّره قضاه، وإذا قضاه أمضاه... (١)

وفي الوافي عن الكافي مسندا عن يونس بن عبد الرحمن عن يونس قال : قال لي ابو الحسن عليه السلام : يا يونس أتعلم ما المشيئة ؟ قلت : لا. قال : هي الذكر الأول. أوَ تعلم ما الإرادة ؟ قلت : لا. قال : هي العزيمة. أفتعلم ما القدر ؟ قلت : لا. قال : هو الهندسة ووضع الحدود من البقاء والفناء، ثم قال : والقضاء هو الابرام وإقامة العين.

**علم الله بلا حدود :**

ولا ريب أن هناك مرحلة سابقة لهذه المراحل وهي مرحلة علم الله تبارك وتعالى ؛ العلم القديم الذي لا ينفصل عن ذاته، بل هو ذاته.

وقيل للامام الكاظم عليه السلام : كيف علم الله ؟ قال : علم وشاء وأراد وقدّر وقضى وأمضى، فأمضى ما قضى وقضى ما قدّر وقدّر ما أراد. فبعلمه كانت

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ١٢٢ / رواية ٦٩.

المشيئة، وبمشيئته كانت الإرادة، وبإرادتهِ كان التقدير، وبتقديره كان القضاء، وبقضائه كان الامضاء.

فالعلم متقدم على المشيئة، والمشيئة ثانية، والارادة ثالثة، والتقدير واقع على القضاء بالامضاء، فلله تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء وفيما اراد لتقدير الاشياء، فإذا وقع القضاء بالامضاء فلا بداء... وبالعلم علم الاشياء قبل كونها، وبالمشيئة عرف صفاتها وحدودها وأنشأها قبل إظهارها، وبالارادة ميّز أنفسها في ألوانها وصفاتها وحدودها، وبالتقدير قدّر أقواتها وعرّف أوّلها وآخرها، وبالقضاء أبان للناس أماكنها ودلّهم عليها، وبالامضاء شرح عللها وأبان أمرها ؛ ذلك تقدير العزيز العليم. (١)

وما يسعنا تفصيله وشرحه في هذا المقام هو القول بأن علم الله امر مختلف عن القدر والقضاء ؛ فعلم الله عين ذاته القدسية، فهو قديم، أما القدر والقضاء فهما حادثان مخلوقان يأتيان بعد خلق المشيئة والإرادة.

فعلم الله بلا حدود، فهو يعلم ما سيفعل وما سيحدث، وعلم البشر عاجز عن الوصول الى معرفة علم الله سبحانه وتعالى مهما كان هذا البشر عظيما إلاّ ما علمه الله نفسه. وقد جاء في القرآن الكريم على لسان الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ (الاعراف /١٨٨) وقالت الملائكة لربها جل جلاله :

﴿ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ (البقرة/٣٢) وأمرنا الله بالدعاء اليه : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ (طه/١١٤ ) ووصف الله الخلق بقوله : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ١٠٢ / رواية ٢٧.

﴿ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الاسراء/٨٥ ) وجاء في المأثور من الدعاء عن الائمة عليهم السلام : " وأسألك باسمك العظيم الأعظم المكنون المخزون عندك الذي لم تطلع عليه لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ".

هذا هو العلم الالهي، وهذا هو الغيب الذي لايظهر على غيبه أحداً إلاّ من إرتضى من رسول، ولكن حينما يخرج الشيء من العلم الى المشيئة أو من المشيئة الى الارادة أو من الارادة الى التقدير أو القضاء فمن الممكن أن يتعرف إليه الملائكة أو الانبياء أو الأئمة أو المؤمنون أو حتى البشر العاديون.

# القدر والقضاء بحث مقارن

من شطحات الفلسفة البشرية فيما يتعلق بموضوع القدر والقضاء، أنها ذهبت الى القول بأن القضاء عبارة عن "صور علمية لذات الله المقدسة دون تأثير أو تأثر، وهذه الصور ليس لها حيثيات عدمية أو إمكانات واقعية. فالقضاء صورة من صور علم الله القديم، باق ببقاء الذات الالهية. وأما القدر فهو بمثابة وجود صور الموجودات في العالم السماوي النفسي، مطابقة لما في مواردها الخارجية الشخصية المستندة الى أسبابها وعللها ؛ واجبة بها ملازمة لأوقاتها المعينة وأمكنتها الخصوصية..".

ويقول أحد الفلاسفة: الممكن الأشرف الأقرب وهو العقل الأول قلم ؛ وهو أيضا قضاء الله الاجمالي، حيث إنه بسيط الحقيقة مشتمل على جميع صور ما دونه بنحو البساطة، والصور القائمة بالقلم قيام صدور بلا واسطة أو مع الواسطة، وهي العقول العرضية المتكافئة أو المثل النورية قضاءه التفصيلي لأن فيها كثرة نوعية.

وقال المشائيون : القضاء والقدر ؛ هو الصور الكلية القائمة بالعقل بنحو الارتسام، والصور الجزئية القائمة بالنفس الجزئية المنطبعة الفلكية هي الصور القدرية...

من هنا يتبين أن الفلسفة البشرية البعيدة كل البعد عما وضحه القرآن الكريم، وبينته السنة المطهرة، تعتقد بأن القدر والقضاء مرحلتان من مراحل علم الله سبحانه وتعالى، ولان علم الله قديم فالقدر والقضاء قديمان ؛ وإذا كانا قديمين فينبغي أن يكون ما وراءهما قديما أيضا.

لقد أوضحنا فيما سلف أن مشكلة الفلسفة البشرية أنها لم تستطع أن تفهم العلاقة بين الخالق والمخلوق ؛ بين ما يسمى بالقديم وبين ما يسمى بالحادث، تماماً كما هو شأنها إزاء موضوع البداء والإرادة الالهية، وباقي الموضوعات الخاصة بهذا الشأن، حيث تذهب أغلبية التصورات البشرية بأن جميع ما يتعلق بالله جل ثناؤه لابد وأن يأخذ الطابع الأزلي القديم، رغم التفاوت الكبير بين مثل هذا الاعتقاد وبين ما فطر الله الناس عليه، فضلا عن تعاليم القرآن المجيد وروايات الرسول صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) الذين هم معدن العلم الالهي المجيد.

والاعتقاد بان مجرد علم الله هو القضاء والقدر يعني أن القضاء والقدر ليس خلقاً جديداً من خلق الله، ومعنى ذلك أنه لاتبديل لقضاء الله ولقدره لانهما من ذات الله وذات الله لايتغير.

ولكن مثل هذا الاعتقاد الجاف يتسبب للبشرية كلها في خلق مشكلة كبرى للغاية تتمثل في العيش - كمرحلة أولى - دون التطلع الى أدنى بصيص نور من

الأمل ؛ الأمل في أن يدفع الله البلاء عن الانسان، او على الأقل إمكانية العمل على تغيير الواقع بارادة واختيار الانسان.

ثم إن مفهوم جمود القدر والقضاء يتناقض مع جملة من الآيات القرآنية الكريمة التي هي من صنع الخالق القديم ايضا، بالاضافة الى سيرة الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام الذين هم خلفاؤه الشرعيون. فالآيات القرآنية المباركة تؤكد في غير مناسبة على ضرورة أن يتوجه العبد الى ربه الاكبر لطلب العفو والمغفرة والى التماس الطِلبة منه، لا من غيره. فإذا كان الداعي يتضرع الى الله جل جلاله ويدعوه لأن يمحوه من قائمة الأشقياء وأن يكتبه من السعداء ؛ فهو من منظور الفلسفة البشرية لا يذهب الى الواقع، بل إنه يتعلق بشيء هو أقرب الى السراب منه الى الحقيقة. فما دام القدر والقضاء أمرين قديمين فلا أمل في تبديلهما أو تبدلهما، إذاً فالانسان شقي أو سعيد منذ أن خلق، بل منذ أن قرر الله خلقه، بل هو شقي أو سعيد منذ القدم والى الابد القادم. فليصلِّ هذا المسكين ما بدا له، وليفسق هذا السعيد ما بدا له، فسلوكهما لايغير من الأمر شيئاً مطلقاً !!

هذا من جانب، ومن جانب آخر لنا ان نتساءل عن السر من وراء خلق الجنة والنار ؟ ولنا أن نعتقد بخطأ وجودهما – والعياذ بالله – وفق الاعتقاد بأزلية القدر والقضاء، أو أن نعتقد بوجود ظلم فادح في طريقه الى النزول بحق البشرية على اعتبار نفي قانون الثواب والعقاب بالنسبة الى الجنة والنار. فالقدر والقضاء بعد أن رسما الخارطة التفصيلية لحياة الانسان في الدنيا قرّرا ان يدخلا ثلة من البشرية الى الجنة، وأن يحشرا مليارات البشر الى النار حشرا. فالبعض يدخل الجنة دون عمل

لان هذا قدر الله، وأهل النار يدخلون النار بدون ذنب لأن هذا أيضاً قدر الله !!

وهذا الاعتقاد يتناقض مطلق التناقض مع قول الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم :

١/ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت/٤٦)

٢/ ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (آل عمران / ١٨٢) و (الانفال/٥١)

٣/ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس/٤٤)

٤/ ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الروم/٩)

وعشرات الآيات القرآنية الأخرى بهذا المضمون.

ولا يفوت كل ذي عين تفاصيل سيرة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، حيث كانت مليئة بصور التعبد والتضرع الى الله جل ثناؤه. وهذا الامام زين العابدين عليه السلام سُميّ ذو الثفنات لكثرة سجوده، وهو مع ذلك كان يتحسر على عبادة وتضرع جده أمير المؤمنين عليه السلام الى ربه عز وجل. وذاك الامام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام الذي قضى سني سجنه المديدة في الدعاء والتطلع الى مزيد من الرحمة والغفران الالهي، له ولشيعته الرازحين تحت وطأة ظلم بني العباس على عهد هارون الرشيد. وكل هذه السيرة تعني أن كل شيء في الحياة قابل للتغيير بارادة جديدة من الله سبحانه وتعالى، فليس القدر والقضاء قديمين ثابتين كعلم الله وذاته المقدسة.

إن الفكرة القائلة بقدم القدر والقضاء وأنهما من ذات الله سبحانه، فكرة تنتهي الى القول بالجبر. والجبر ينتهي الى استحالة المسؤولية والتهرب أو الهروب منها، فضلا عن تفنيد قانون الجزاء والثواب والعقاب، وبالتالي ظلم الله لعباده. وهذا القول بعيد عن شرع الله، وفطرة وعقل الانسان.

اما القول بحدوث القدر والقضاء - وهو مفهوم ومنطوق الشريعة الاسلامية - فمنبعه القول بالقدرة الالهية التي أوجدت هذا الانسان من التراب وستعيده إليه مرة أخرى. وهومفهوم ومنطوق قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة/١٥٦) فالله سبحانه هو الذي خلقنا وملكنا ونحن اليه عائدون. ونحن بين الخلق والعود احرار بالقدرة الربانية التي تمدنا بأسباب الحياة، وتُهيء لنا فرص إثبات الوجود وجدارة استحقاق الدخول الى الجنة التي هي مصداق العدالة والرحمة الالهية. فالله جل جلاله ليس ينبوعاً يخرج الماء منه فلا يعود اليه، بل الحكمة ذاته والعدل ذاته والعلم ذاته، وحاشاه ان يخلق الانسان فيقضي عليه بالشقاء الدنيوي ثم يدخله نارا في الآخره. فهو لارغبة لديه في تعذيب أحد أبداً.

وذهبت فئة أخرى الى نفي القدر والقضاء مرة واحدة، وقال أتباع هذه الفلسفة بأن الله قد خلق الكون وتركه لشأنه. ومنهم من عزا ذلك الى ان الله يتعالى عن التدخل في شؤون المخلوقات، بل هو عاجز عن التدخل بسبب الفاصلة غير القابلة للتصور بين عظمة ذاته وبين حقارة الكون والمخلوقات. في حين برر آخرون القول بنفي القدر والقضاء بأن الله خلق الخلق ضمن قانون آلي - ميكانيكي - مثل ما يصنع صانع الساعات الساعة، فهو يصنع آلاتها ثم يركب هذه الآلات ثم

يشحنها بالطاقة ثم يتركها لشأنها تعمل وتعمل حتى تنفذ طاقتها. ونفي القدر والقضاء هذا كان يسمى في المنطق القديم ( التفويض ) .

وبين الجبر والتفويض لا يزال الاسلام يؤكد حقيقة أخرى ؛ حقيقة صادرة عن الخالق نفسه، وهي في الوقت ذاته تتلاءم والفطرة الانسانية النزيهة.

تشير الشريعة السمحاء الى أن الله رسم خريطة الكون من حيث التقدير ؛ وللانسان حرية انتخاب الطريق الذي يرتئيه لنفسه للسير ضمن هذه الخريطة. فالله تعالى أنبأ هذا المخلوق بحتمية وجود يوم القيامة ؛ اليوم الذي لا يعلم ميقاته إلاّ الله، والله نفسه بيّن للانسان طرق الملتقى حتى ذلك اليوم. فالانسان ليس كالساعة، إذ من الحمق تشبيهه بالآلة، وهو ليس سجيناً، إذ من الظلم نسبة الظلم الى الله.

ولقد لعن نبي الاسلام محمد صلى الله عليه وآله قدرية هذه الامة واعتبرهم كاليهود، والمقصود هنا : القدرية بالمعنيين: الجبر والتفويض. فالقدرية اصطلاح يعم من قال بجمود القدر ومن قال بفوضويته.

وسواء قال الانسان بالجبر أو قال بالتفويض فالنتيجة واحدة، وهي تجرده عن إنسانيته ومسؤوليته. فمن يذهب الى الجبر يؤكد بأن الله هو المسؤول عن أعمالنا ؛ لانه هو الذي يحركنا. ومن يذهب الى التفويض يؤكد بأن لا شأن لله في خلقه، وبالتالي وقوف هذا المخلوق حائراً متسائلاً عن سبب وجوده والى أية نقطة يسير ؟!

أما الايمان بالقضاء والقدر فهو دافع الى الايمان بوجود شريعة لله والى الالتزام بها، كما هو دافع الى الايمان بقدرة الله على أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء

وعنده أم الكتاب ؛ فيحركه الى المزيد من العمل الصالح والجد والاجتهاد في الدعاء والتوسل الى قوة الوجود المطلقة. فبين الجبر والاختيار يتحرك الانسان باتجاه تكريس حسناته وتلافي سيئاته.

وقد روى الامام أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : سبعة لعنهم الله وكل نبي مجاب : المغيّر لكتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمبدل سنة رسول الله، والمستحلّ من عترتي ما حرم الله عز وجل، والمتسلط في سلطانه ليعز من أذل الله ويذل من أعزّ الله، والمستحل لحرم الله، والمتكبر على عبادة الله عز وجل. (١)

وقال النبي صلى الله عليه وآله أيضاً : يقول الله عز وجل : من لم يرضَ بقضائي ولم يشكر لنعمائي ولم يصبر على بلائي فليتخذ ربا سوائي. (٢)

فلله سبحانه وتعالى قضاء لا يرد ولا يبدل، وله نعم علينا يجب أن نشكره عليها، ويختبرنا ببلاء لابد من الصبر عليه.

وقال الامام الرضا عليه السلام : ثمانية أشياء لا تكون إلا بقضاء الله وقدره ؛ النوم واليقظة والقوة والضعف والصحة والمرض والموت والحياة. (٣)

وسأل رجل أمير المؤمنين عليه السلام بعد انصرافه من صفين قائلا : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن خروجنا الى الشام أبقضاء وقدر ؟ فقال الامام عليه السلام : نعم يا شيخ ؛ ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن واد إلاّ بقضاء من الله وقدره. فقال

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٨٨ / رواية ٦.

(٢) المصدر / ص ٩٥ / رواية ١٨.

(٣) المصدر / ص ٩٥ / رواية ١٧.

الرجل : عند الله احتسب عنائي، والله ما أرى لي من الأجر شيئاً. فقال علي عليه السلام : بلى، فقد عظّم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم ذاهبون، وعلى منصرفكم وأنتم منقلبون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين. فقال الرجل : فكيف لانكون مضطرين والقضاء والقدر ساقانا وعنهما كان مسيرنا ؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام : ويحك ! لعلك ظننت قضاءً لازماً وقدراً حاتماً ! ولو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً: ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (ص/٢٧) فنهض الرجل مسروراً وهو يقول: أنت الامام الذي نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن رضواناً. (١)

وجلية القول إن الانسان المسلم لابد وأن يأخذ تعاليمه من مصدرها الحقيقي وهو القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ، وذلك لينطبق الاسم على المسمى. ومن جملة هذه التعاليم ضرورة الحفاظ على عقله وإدراكه السليم وتحليله للاعتقادات تحليلا نزيها، مشفوعا بما تمليه عليه الآيات القرآنية؛ وضرورة ألا يكون فكره فكرا انتقائياً، إذ طريقة الانتقاء تخرج المرء عن مصداقيته ككائن مفكر مستقل، لا سيما وأن انتخاب النظريات الفلسفية محل البحث يبدو أمراً صعباً للغاية ، على إعتبار أن هذه النظريات تمتاز بخلفية تأريخية

(١) نهج البلاغة / قصار الحكم -٧٨ - وبحار الانوار / ج ٥ / ص ٩٥.

– وان اعتنقها بعض المسلمين – قد تكون مجهولة الأساس، أو أن تكون ذات مصدر معاد لكل ما من شأنه تكريس العبودية لله سبحانه وتعالى. فأن ينتخب الانسان فكرة معينة أو مذهبا خاصا أو حتى دينا خاصا فهو حرٌ في ذلك، ولكن أن يعمد الى التقاط فكرة من هذا الدين ونظرية من تلك الفلسفة ويحسبها على الشريعة الاسلامية فذاك الخطأ بعينه، لأنه لا يمكن ترتيب النظريات المتناقضة أبداً.

إن كتاب الله وسنة النبي واهل بيته عليهم السلام وحدة متكاملة ؛ تفسر بعضها بعضا. فلا يمكن بأي حال من الأحوال الايمان ببعض الكتاب والكفر ببعض، أوالاستعاضة بأفكار فلسفية بشرية عن آيات الله وروايات النبي وأهل بيته الصادقة المصدقة..

## الفصل الثامن :

# بين الجبر والاختيار

تفضي معظم مسائل العرفان الى مسألة الجبر والتفويض ؛ فهي مسألة بالغة الحساسية من حيث أنها طرحت كموضوع فلسفي حينا، وعالجها علم التربية والقانون وعلم الكلام أحياناً أخرى ؛ إذ يعتمد عليها كثير من القضايا التربوية والأخلاقية والتوجيهية والحقوقية. فالانسان إذا عجز عن تكريس فكرة الاختيار المحدودة وفكرة ( البينية ) الخاصة بالجبر والتفويض، فإنه سيكون أعجز من أن يبني على أساسها رؤاه ومعتقداته التربوية والتشريعية.

لقد عجزت ظنون البشر عن أن تصل الى خط واضح في هذا الاطار، وقد انتهت هذه الظنون البالية الى الجبر تارة والى التفويض أخرى. ونحن سنتناول الموضوع ونبحث عن حل هذه المشكلة من خلال ما نستوحيه من آيات الذكر الحكيم وروايات النبي وأهل بيته عليهم السلام ؛ نشرح تفاصيل الحل، ونفند الشبهات التي حامت حول مسألة الاختيار .

لقد قال فلاسفة البشر بصورة عامة بأن الانسان كائن مجبر في سلوكه. كما

إنهم تهربوا من الاعتراف بخطئهم الفادح هذا، حينما سئلوا عن العلة في أن يأمرهم الله سبحانه وتعالى وينهاهم ويحمّلهم التكاليف الشرعية والاخلاقية ؛ هذا فضلاً عما يلزمهم العرف والمجتمع بالتزامات متفق عليها.

ومن الملاحظ ؛ أن الجاهلية الغربية الحديثة بكل مدارسها تقول أيضاً بالحتمية، وهي تعبير آخر عن (الجبر). ومثال ذلك قول الماركسية المادية بحتمية الصراع الطبقي، وكذلك الحال بالنسبة للمذهب الاجتماعي الذي بنيت عليه الديمقراطية الغربية الحاكمة، حيث يؤكد هذا المذهب حتمية تأثير القوانين الاجتماعية على حركة الانسان. وهناك المذهب الجنسي القائل بحتمية انصياع حركة الفرد الى ما تمليه عليه احتياجاته الجنسية.

إن هذه المذاهب وغيرها من المذاهب الحديثة يتفق جميعها على الحتمية، وعلى أن الانسان كائن عاجز ؛ لا حول له ولا قوة. ولكنها تختلف فيما يسيطر على هذا الكائن ؛ فبعض يقول المجتمع، وبعض يقول الاقتصاد ووسائل الانتاج، وبعض يقول العقد النفسية، وبعض يؤكد على الحركة التأريخية ودوراتها.

إذاً، فالانسان في متاهة النظريات هذه لا يعدو أن يكون اكثر من عربة يحركها سائقها، فهي تسير كما يشاء القائد ولا إختيار لها بالمرة. هذه هي نهاية مبلغ الفلسفة البشرية.

أما رسالات الله فتؤكد على أن الانسان كائن حر في تصرفاته، ومسؤول عن مصيره. وأستطيع في هذا المجال الجزم بأن احد أهم أبعاد الشرك بالله العلي العظيم هو الاعتقاد بحتمية تفوق العوامل الارضية على الانسان، وبالتالي القول بحتمية وجود فاصلة بين الانسان وربه الخالق.

إن الكثير من الناس يتصورون بأن السلطات الظالمة عامل قاهر لا يستطيعون تجاوزه أبداً، ولأنهم كانوا يزعمون بقاهرية السلطة والسلالة الحاكمة فقد رفعوها الى مصافّ الإله، أو استعاضوا بها عن الإله. وقد عمد البعض الى الخنوع والخضوع لتصورات خرافية أخرى، حيث اعتقدوا بقاهرية الظواهر الطبيعية والموجودات الفضائية من قبيل النجوم والشمس والقمر، حتى رفعوها الى مستوى الرب الجليل.

فجاء القرآن الكريم نافيا بالدليل القاطع كل تلك التصورات الخاطئة ؛ مؤكداً في الوقت ذاته بأن الله "هو القاهر فوق عباده"، وهو مصدر الوجود ومنبع الخيرات، وهو الذي زوّد الانسان بالحرية والاستطاعة.. مشيرا في غير آية مباركة الى أن الله الذي أنعم على الانسان بالقابليات العديدة، جعله حرياً بأن يستفيد من الحرية الممنوحة له، وأن يستثمر هذه الاستطاعة في تسخير العالم لمصلحته ؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ونطالع في قصة آدم عليه السلام والأمر الالهي المقدس القاضي بسجود الملائكة له وإطاعته إشارات واضحة الى ما أنعم الله به عليه، باعتباره أباً للبشرية. لقد انصاع الملائكة كلهم لهذا الأمر إلاّ إبليس – لعنه الله –. ومن المعلوم إن إبليس لم يكن من جنس الملائكة؛ ولكن الله استثناه منهم – رغم إن هذا الاستثناء وهذا التجريد مخالف في ظاهره لاصول علم اللغة واستخداماتها – لنكون على اطلاع بأن المقصود أن جميع الوجود قد سجد لآدم والانسان، لأنه الكائن الوحيد الذي قبل بإختياره حمل الأمانة والمسؤولية في تحكيم الارادة الالهية في

الوجود الرحب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (الاحزاب/٧٢). لقد سجد الجميع للانسان إلا إبليس ؛ ابى عن أن ينصاع للأمر الالهي المقدس، واستكبر على السجود وطاعة الانسان ؛ الانسان الذي هو خليفة خالقه في أرضه.

إن الانسان الذي تفوق على الجميع، حين قبوله تحمل أمانة المسؤولية الكبرى، أصبح الجميع طوع اختياره إلا طرف واحد يقف على النقيض منه، وهو إبليس وجنوده. فهذا الكائن الشيطاني أصبح موكلا - بتمرده - باضطهاد قلب الانسان، فهو قرين النفس الأمارة بالسوء. فكان لابد على الانسان أن يقاوم هذا العداء، وهذا العدوان، وينتصر عليه خير انتصار.

أصبح الانسان على اطلاع كامل بأن قابلياته المخلوقة فيه قادرة على تسخير كل شيء ؛ قوة الشمس والرياح والذرة والنفط والجبال والبحار.. ولكنه ينبغي أن يحذر أمراً واحداً وهو إبليس المتعرض له في الطريق. وعليه أن يسخره أيضاً بواسطة الحذر من أن يتمكن من سلب قابلياته، وحريته في استخدام هذه القابليات.

إن القرآن كله عبارة عن هتاف عال موجه الى الانسان ؛ الانسان فحسب، يقول بأن الانسان كائن حر مسؤول، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (الانسان/٣ ) و ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (الزلزلة/٧-٨) وغير ذلك مما يحسّد ويصوّر حقيقة شرك من يعتقد بقاهرية الاقتصاد والجنس والطبيعة والاجتماع.

## وكرَّم اللهُ.. الانسان :

نعم.. نعتقد نحن المؤمنين بالله أن للعوامل المحيطة بالانسان تأثير لا يخفى، ولكنه ليس تأثيرا مطلقا. وهذا التأثير من الممكن أن يحيد بالمخلوق عن الجادة الصواب، إلا أن الله جل جلاله الذي خلق المخلوق أعلم بخصوصياته وقابلياته ؛ هذا الرب العظيم هو ذاته أمر الإنسان بمقاومة ما يؤثر فيه من محيط، لأن الأمل كبير جدا في الانتصار على المؤثرات.

إن القرآن الكريم يقول : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ** ﴾ (الانسان/٣) ويقول أيضاً : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ** ﴾ (الاسراء/٧٠) ويقول كذلك : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ (التين/٤ ) فيا ترى ما هي الهداية ولماذا ؟ وما هو التكريم ولماذا ؟ وأين أحسن التقويم المشار إليه ولماذا ؟... ثم يخاطب الله العظيم الانسان بقوله : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ** ﴾ (الانشقاق/٦) فلماذا هذا الكدح، ومن أين يبدأ، والى أين ينتهي ؟

فإذا كان الانسان قد خلق مجبرا فما معنى التكريم ؟ وإذا كان مجبراً فإلى من هداه الله ولماذا ؟ وهذا التقويم الأحسن أين موقعه من الانسان – الآلة ؟!

كلها أسئلة لاتجد لها إجابة في أوساط القائلين بأن الانسان خلق مجبرا، أو أنه خاضع لقهر العوامل المحيطة به. فكل المذاهب الوضعية، وكل الفلسفات البشرية تسلب الانسان قدرته وكرامته وحريته ومسؤوليته تجاه ربه ونفسه والكائنات التابعة له.

إذاً ؛ فتوحيد الباري تعالى يمنح الناس الحرية والكرامة، فيما يؤدي الشرك بالله العلي العظيم الى عبودية الانسان للطبيعة، والاقتناع بحتمية وقاهرية ما يحيط

بالانسان للانسان، فيحوله الى كائن ذليل بمعنى الكلمة، فيصبح هذا المخلوق المكرم اضل سبيلا من الانعام : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الفرقان /٤٤).

**الكائن الحر..**

وهنا يجرنا البحث في نفي الجبر عن الانسان ومقهوريته الى البحث عن مستوى الحرية الممنوحة له. وقبل هذا وذاك ؛ لابد من الاشارة الى أن إرادة الانسان أمر مكتسب وليس ذاتيا، فهذا المخلوق من وجهة النظر الفلسفية التي يحددها الدين الاسلامي ويبين أبعادها لا يختص بقدرة ذاتية او حرية ذاتيه او حساً ذاتياً بالمسؤولية، بل إن الانسان ضعيف بالذات وفقير بالذات، ولكن ربنا تبارك وتعالى وعن طريق قدرته الشاملة والمطلقة هو الذي حول الانسان الى كائن قادر وحر ومسؤول. ومن هذا المنطلق نخرج البحث عن إطار التفويض، او لنقل الفوضوية.

لقد كانت المعتزلة تتصور التفويض كنقطة بدء في سلوك الناس، وتتصور وجود قدرة ذاتية في داخل الانسان تخوله التصرف والانطلاق كيف يشاء وأنى يشاء..

ولكننا نحن المؤمنين بالله نذهب الى غير هذا المذهب، ولسنا بحاجة الى أدلة فلسفية أو علمية في هذا المجال. إذ يكفينا تصور الانسان طفلا عاجزا عن القدرة والارادة في التعبير عن رغبته أو عدم رغبته في الدخول الى الحياة، فهو إذ يولد مسلوب الارادة عاجز عن اتخاذ قرار مناسب، ولكن يتكامل شيئا فشيئا من حيث التفكير والقدرة والفعل.

يقول القرآن الكريم : ﴿وَمَا تَشَآؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ﴾ (الانسان/٣٠)، وفي الحديث القدسي يؤكد ربنا سبحانه وتعالى هذا المعنى الشريف فيقول: " يا إبن آدم بمشيتي كنتَ أنتَ الذي تشاء ". (١) ثم يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ (الاحزاب/٧٢)

فالمشيئة الالهية هي التي أرادت للانسان أن يشاء، وأن الله جل ثناؤه أراد للانسان أن يكون حرا متفوقا على سائر المخلوقات. وحينما جرت المقارنة بين قدرة الانسان وبين قدرة السماوات والارض والجبال، تجلت قابليات هذا الكائن المكرّم من قبل الله على غيره، وبدا التناسب واضحاً بين قدراته التي أودعها الله فيه ونوع الامانة المعروضة عليه، فقبلها وحملها بكل إقدام.

## القدرة على خلق الارادة :

هذه من النعم الالهية البالغة التي أولى الانسان بها، وهي مسألة حساسة جدا. فلحظة التحول في وجدان الكائن البشري، لحظة من الممكن أن تسمو به الى أعلى عليين، كما من الممكن أن تهبط به الى أسفل سافلين. فهذه اللحظة هي لحظة الخلق، ومن المستصعب على المرء أن يتحكم فيها، اللهم إلا إذا كان قد استعد لها سلفا ؛ الاستعداد الذي تمثله التربية، وتمثله الوراثة، ويمثله نمط التفكير والقناعات، وتهيئه الظروف المتوافرة..

إن ربنا العلي العظيم لم يجعل فينا الارادة فحسب، بل هو منحنا القدرة على خلق وإيجاد الارادة، أو على الاقل القدرة على تنمية وتنظيم الارادة.

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٤ / رواية ٣.

وفي التأريخ البشري أمثلة عديدة تشهد على صدق هذه الحقيقة، فهذا هو ابن نبي الله نوح عليه السلام الذي ناداه أبوه في خضم الطوفان والعذاب العظيم الذي أخذ بإحاطة الارض برمتها، قرر في لحظة واحدة خلق إرادة جديدة له، بالرغم من تناقضها مع الواقع المشاهد آنذاك.فكان من المغرقين.

وهذه آسية بنت مزاحم زوجة فرعون ؛ المرأة التي لم يكن يعوزها شيء من النعيم والشهرة والقوة.. ولكنها استطاعت أن تخلق في نفسها الارادة الحية القاضية بالاقتداء بنبي الله موسى عليه السلام.

وهذا عمر بن سعد قائد الجيش الاموي لقتال سيد شباب أهل الجنة الامام الحسين عليه السلام، الذي بات ليلته مسهدا متضارب الافكار والاختيارات. فهو كان على مطلق الحرية في انتقاء الخير من الشر، إلا أنه في لحظة واحدة قرر قراره الحاسم بالقضاء على الحسين عليه السلام.

وفي قبالة ذلك كان الحر بن يزيد الرياحي، هذا الرجل العظيم الذي اتخذ قراراً مخالفاً بالمرة لقرار عمر بن سعد. حيث غادر معسكر الباطل والتحق - بكل شجاعة - بمعسكر الامام الحسين عليه السلام فالرجلان كانا يعرفان كل المعرفة عظمة الحسين عليه السلام ومنزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله وكانا يعرفان أيضاً فضاعة احتمال ما قد يقدمان عليه من جريمة شنعاء.

وهذا معاوية بن يزيد بن معاوية الذي كان يعيش في قلب الحكم الاموي، والذي ورث السلطة من أبيه يقرر تسليم الحق إلى اصحابه وهم اهل بيت النبوة لقناعته بعدم احقيته في الخلافة. لقد أتخذ هذا القرار رغم الضغوط الهائلة المحيطة به. فقد كانت جدة أبيه هند آكلة الأكباد، وكان جد أبيه أبو سفيان المعاند

لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكان جده معاوية المحارب لأمير المؤمنين عليه السلام، وكان أبوه يزيد قاتل سيد شباب أهل الجنة، وكان نموذجا فريدا للحاكم الفاجر وغير الملتزم. ثم كان أقرباؤه بإختلاف أشخاصهم وأسمائهم عبارة عن موجودات شيطانية بحتة تضغط باتجاه مواصلة مسيرة آبائه المعادية لأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله. وعلى هذا الاساس فإن قراراً كهذا من المستحيل أن يصدر عن إرادة من النوع البسيط، بل كان هذا القرار قد قدح في ذهنه في اللحظة الخلاّقة المشار اليها.

إن جوهر المسألة هو أن الله عزوجل هو الذي يمنح الانسان قدرة اتخاذ القرار واختيار أحد الطريقين، وذلك بما يمنحه من ارادة وحرية. واستثمار الانسان لهذه القدرة، هو بمثابة مزيج من العقل والحرية والارادة.

وروي عن ابن حكيم عن البزنطي أنه قال : قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام إن اصحابنا بعضهم يقول بالجبر وبعضهم يقول بالاستطاعة. فقال لي : أكتب - ويبدو أن الامام قد أولى المسألة إهتمامه الخاص لمعرفته بخطورتها على إيمان الانسان واسلامه - : قال الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم بمشيتي كنتَ أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء وبقوتي أديّت الي فرائضي وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سميعاً بصيراً قوياً، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وذلك أني أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك مني، وذلك : " لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون"، (ثم قال الرضا عليه السلام): قد نظمت لك كل شيء تريد. (١)

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٥٧ / رواية ١٠٤.

وجاء عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال : "في التوراة مكتوب مسطور : ياموسى! اني خلقتك واصطفيتك وقويتك وأمرتك بطاعتي ونهيتك عن معصيتي، فان اطعتني اعنتك على طاعتي، وإن عصيتني لم اعنك على معصيتي، ولي المنّة عليك في طاعتك، ولي الحجة عليك في معصيتك". (١)

حينما يعلّم الاستاذ تلميذه طيلة السنة الدراسية يكون بمقدور هذا التلميذ استيعاب ماتلقاه من دروس، وبمقدوه أن يثبت ذلك عبر إجاباته الصحيحة عند الامتحان. ولكنه لو تشاغل عن التعلم والاستيعاب فسيكون مصيره الفشل، وفي مثل هذه الحال سوف لن يكون في متسع الاستاذ والعرف بصورة عامة إلاّ اتهام التلميذ بالتقصير.. وعلى ذلك يكون من المنطقي القول بأن الفضل في نجاح التلميذ يعود الى الاستاذ، أما فشله فيعود الى ذاته وذاته فقط.

إن هذا المثال وغيره من الامثلة التي يطول علينا توضيحها ليس إلاّ لتقريب وتصوير ما نريد إثباته، وإلاّ فإن الله تعالى عن الامثال.

إن دخول الانسان الجنة يعود الى فضل الله ورحمته ونعمائه، ولكن سقوطه في جهنم إنما هو أمر يتنافى والطبيعة الالهية المقدسة، بل السقوط عائد بدءاً وانتهاءً الى الانسان. والله سبحانه يؤكد : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل/١١٨)

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٩ / عنه: ميزان الحكمة / ج ٢ / ص ٨.

# شبهات وردود

قبل الشروع في الرد على الشبهات التي حامت حول مسألة الجبر الاختيار، ينبغي الاشارة الى حقيقة هامة ؛ وهي أن هناك منهاجاً دقيقاً للغاية لمعرفة الصواب من الخطأ ؛ بإمكان الانسان استخدامه، وبفضل هذا المنهاج تتم المعرفة ذاتياً، والتمييز بين السليم والسقيم من الافكار، وبصورة واضحة. وقد أشارت الآيات القرآنية الكريمة والروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام الى هذا المنهاج غير مرة.

والمنهاج هو عبارة عن عرض هذه الفكرة أو تلك على هوى النفس، فما وافق الهوى فإنه يكون مخالفاً للحق وللصواب عادةً ما، وما خالف هوى النفس الأمارة بالسوء يكون موافقاً للحق وللصواب عادةً ما.

ولكن كيف يتم ذلك ؟ وماهي التحارب البشرية في هذا الاطار ؟

يمكن القول بأن المرء حينما يعيش في ظل حكومة ظالمة – مثلاً – فهو لايعدو أن يكون واقفاً بين موقفين لا غير ؛ فهو إما مؤيّد وإما معارض، والسكوت

على جرائم الحكومة الظالمة ليس إلاّ تأييداً لها.

فالتأييد يعني الرغبة الشخصية في استمرار الظلم، وذلك تبعاً لما يؤديه هذا الظلم للشخص المؤيد من مصالح، حسب تفاوت الدرجات. فهو يغضّ الطرف عن كلّ السلبيات التي تقال عن النظام الظالم، بل ويذهب أبعد من ذلك، حيث يسعى الى تصوير الظلم عدلاً، وتبرير الجرائم بما يوافق هواه، ويضمن له الاستمرار في الاستغلال والانتهازية.

أما المعارضة للظلم، فهي تأخذ طابعاً آخر مغايراً للظلم وأسبابه ودوافعه ونتائجه، آخذة بنظر الاعتبار المصلحة العليا للمجتمع، المنبثقة عن عدالة القوانين السماوية، او على الأقل ما يقرّه العقل وما تقرّه الفطرة من سلوك، وبالتالي فان معارضة الظالمين تصطدم بهوى الانسان ورغبات النفس.

إن الرأسمالي الكبير، الواسع الثراء لايمكنه الاعتراف بمساوئ الرأسمالية ؛ والحزبي الكبير في النظام الشيوعي السابق –مثلاً– عاجز عن قول الحق تجاه ما ألحقه نظام الحزب الواحد والديكتاتورية المطلقة، بواقع ومستقبل البلاد الشيوعية.. والسبب في كلّ ذلك أنه ليس من السهل على المرء الاعتراف بأخطائه، فضلاً عن أن تكون هذه الاخطاء قد وصلت الى حدود الجريمة، وذلك لأن الاعتراف بالخطأ فيه الكثير من مخالفة الهوى.

وحول موضوعنا بالذات فإن القضية تنطبق على هذا المنهاج الصادق والسليم ؛ فهوى الانسان إما ان يتّجه الى الجبر أو التفويض. إنه يتجه الى الجبر ليتحلل عن مسؤولياته الشرعية والذاتية والاجتماعية، ويتّجه الى التفويض ليتهرب من مسؤولياته الشرعية والذاتية والاجتماعية أيضاً. والفرق بين الاتجاهين يكمن في

المظهر فقط، فالجوهر في الحالتين متفق تماماً على ملازمة الهوى. فالمجبرة يقولون بأنّ الله أمرنا بأوامره ونهانا عن نواهيه ولكنه لم يعطنا القدرة على الالتزام بالأوامر والنواهي. والمفوضة يقولون بأن الله لم يأمرنا بشيء، ولم ينهنا عن شيء، بل فوّض الواقع الينا.

## القدرية والمسؤولية :

وعلى ذلك لايبدو أي فارق بين الطرفين والاتجاهين، بل انهما خطّان متوازيان ينتهيان الى نقطة واحدة، هي التملّص من تحمل المسؤوليات، ولذلك فإن لعنة رسول الله صلى الله عليه وآله حقت على القدرية التي تشمل أهل الجبر وأهل التفويض في وقت واحد.

وإنما ضلّ فلاسفة البشر غير المهتدين بهدى الله وهدى رسالاته بسبب القول بالجبر، وأكثر ما ضلّ البسطاء من الناس بسبب القول بالتفويض. ولأننا نناقش الفلاسفة في أحاديثنا ؛ فلابدّ أن نناقش الشبهات التي أوردوها في هذه المسألة.

إن من قال بالجبر يهدف الى التحلل من مسؤولياته من دون شك. فهم لكي يقولوا بأن رسالات الله باطلة، وأن الله أمر عبثاً ولم يأمرنا حقيقة، وأنّ القرآن نوع من المزاح، وأن الرسل نوع من اللعب واللهو، وأن أقوال الرسالات السماوية نوع من الكلام الفارغ ؛ لكي يصلوا الى هذه النتائج ثم ينتهوا بالتالي الى نبذ الواجبات والأوامر والمناهي قالوا : بأن الله هو الذي يجبرنا على أعمالنا، وأنه لا حول ولا قوة لنا فيما نمارسه من أفعال.

ونحن في مقابل ذلك ينبغي أن نقاوم هذه الفكرة بكلّ وعي وتحدٍ ؛ مرتين ؛ مرة باعتبارها فكرة خاطئة، ومرة باعتبارها موافقة لهوى النفس الأمارة بالسوء ؛

مخالفة للعقل والمنطق والفطرة والوجدان، وأساس العدل الالهي الـذي يقـوم عليـه الكون بما فيه.

إن النفس البشرية الأمارة بالسوء لاتقوم ولا تستمر إلاّ على دواعي التـبرير والتزوير للحقائق ؛ فهي توكد بكل ضلال وإضلال بأن الشقي شقي منذ ان كـان في بطن أمه، وأن السعيد سعيد في بطن أمه. وكما جاء على لسان أحد الفلاسـفة بأن الله لم يجعل الشقي شقياً ولم يجعل السعيد سعيداً، وإنمـا خلقهمـا كذلـك!! دون أن يوضح ما هو الفرق بين أن يجعل الله الشقي شقياً وبيـن أن يخلقـه شـقياً، فكلاهما بالتالي يؤدي الى النتيجة ذاتها. فسواء تقول بهذه المقولة أو بتلك، فـأنت تنسب الباطل الى الله سبحانه، وإذا كانت مثل هذه النتيجة صحيحة فإنها تتضارب وقول الله عز وجلّ : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (آل عمران/١٨٢)

فالله لايخلق المخلوق شقياً ثم يقذفه بنفسه في النار خالداً فيها. إن الآية القرآنية لاتقـول : ليـس بظـالم للعبيـد، إذ أن الله يكـون ظلاّمـاً - مبالغـة فـي الظلـم - إذا ماخلقك شقياً وجعلك منحرفاً ثم يقوم بحشرك في النار.

إن عبد الرحمن بن ملجم وهو في حضيض جريمته التي تجسـدت فـي اغتيـال شخص الامام علي بن أبي طالب عليه السلام إزداد كفراً وإلحاداً حينما قال: أأنت تنقذ مَن في النار ؟ مجيباً على معاتبـة أمـير المؤمنين عليـه السـلام حيـث قـال لـه: أكنتُ بنس الإمام لك ؟ وهو بذلك يكون قد شابه فرعون في كفره وهو في حال الغرق حيث قال : آمنتُ بالذي آمنت به بنو اسرائيل. وواضح أن بني اسـرائيل لـم يؤمنوا وحتى اللحظة بإله العالمين الواحد الأحد، بل إنهم يؤمنون بإله خاصٍ بهـم، غير واضح المعالم والصفات حتى بالنسبة لهم بالذات !!

إنك أيها الانسان يجب ان تعرف أنك حينما تخوض في دائرة تبرير الذنوب بأن الوالدين والمجتمع والدهر هم الذين دفعوك أو أرادوا لك ارتكاب الخطيئة، أن هذا الشيطان هو الذي يريد ان يقنعك في النار بمقولتك بأنك كنت مجبراً على ارتكاب الذنب. إن الشيطان يزيّن لك التبرير، ويؤكد لك بأنك إنسان طيب، غير أن المجتمع هو الذي يفسدك. ولكنك يجب أن لاتغفل وللحظة عن حقيقة أن المجتمع ليس إلاّ أنا وأنت وزيد وعمرو، وأننا كلنا نشكل هذا المجتمع. والشاعر يقول :

نعيب زماننا والعيب فينا  و لو نطق الزمان إذاً هجانا

والحديث الشريف يؤكد : لا تسبّ الدهر فإنه هو الله. (١) فإن ينسب الفرد خطاياه الى غيره يعني بشكل أو بآخر أنه ينسب الظلم الى الله تعالى، نظراً إلى أن الله يحاسب الفرد على عمله هو دون غيره؛ إن خيراً فخير ؛ وإن شراً فشر.

ثم إن الدليل على إن ادعاء الجبر إدعاء نابع عن الهوى والشيطان والرغبة في التهرب من المسؤولية، هو أن الانسان لايقول بالجبر إلا في حالة ارتكابه الذنب أو إحساسه بالخطأ، لكي يبرئ نفسه ويبرر لها. غير أنّه حينما يقوم بعمل محمود وممدوح فإنه ينتظر الثواب والجائزة لنفسه هو فقط دون الناس والمؤثرات المحيطة، علماً أن بعض ما يقوم به الفرد من أعمال صالحة قد لايكون له أي ارتباط أو تعلق بها، حيث ليس هو إلاّ أداة منفعلة فيها.

## الشبهة الأولى: مسلسل الجبر

ينسب البعض من الفلاسفة حركة الانسان الى الجبر ضمن سلسلة مترابطة في

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥٧ / ص ٩ / رواية ٨.

الظاهر ؛ خاوية في الباطن، فيقول إن مصدر حركة الانسان هو إرادته. فمثلاً هو يقوم بشرب الماء بإرادته، إلا أنه لم يرد ذلك لو لم تكن هذه الارادة نابعة أو مدفوعة بعوامل أخرى ؛ بمعنى أن ارادته مظهر لتلك العوامل، فهو يشرب الماء لأنه أراد، وهو أراد لأنه عطشان، وهو عطشان لأن كبده قد أصبح حاراً، وكبده أصبح حاراً لأنه مشى تحت حرارة الشمس منذ مدة، وهو مشى لأنه أراد ذلك، وهو أراد ذلك لعوامل خارجية أخرى، حتى تتسلسل المراتب لتعود الى أصل خلقته، وبالتالي فهو يدور في حلقة ملؤها الجبر.

إنهم ينسبون الزنا – مثلاً – الى الشهوة الجنسية، وأن الشهوة الجنسية طبيعة خلقها الله داخل الانسان، إذاً فهو مجبر على ارتكاب الزنا.

انهم ينسبون السرقة الى الحاجة، وأن الحاجة قضية فُطِر الانسان عليها من قبل الله تعالى، وأن عدم سداد الحاجة يولد الفقر، ولقد كاد الفقر أن يكون كفراً...

إن الإجابة على هذه الشبهة وما وضعوه لها من أمثلة ومصاديق يكمن في مسألة واحدة، وهي حصول التفاوت بين الضغوط والدوافع التي تحرك الانسان وبين الارادة الفاعلة التي تعتبر الاساس لكل عمل يقوم به الانسان، علما أن الدوافع والعوامل الخارجية والظواهر الكونية واحدة في أنها لا تشكل العلة التامة لاعمال الانسان بل العلة هي إرادة الانسان واختياره لاغير.

إنك لا ترى كل من يعطش يشرب الماء حتما، فمن أصيب بنزيف دموي يمتنع عن شرب الماء رغم شدة الحاجة اليه، وهذا الصائم يمتنع، وهذا المرتاض يمتنع أيضاً فما السبب في ذلك، ولماذا يكون باستطاعة هؤلاء أن يمتنعوا؟ بينما انسان آخر قد يكون أقل عطشاً الا أنه لايمتنع عن شرب الماء لأنه يريد ذلك.

إنك لا ترى كل من تفاقمت شهوته الجنسية يقوم بعملية الزنا المحرمة ؛ فهذا المؤمن يغضّ أساساً نظره عن محارم الله رغم الفتن والابتلاءات ومظاهر الخلاعة والتعري، وذلك الشاب المعتكف على بناء مستقبله يحد في الزنا حضيض الرذيلة رغم كونه محتاجاً الى ذلك، ورغم عجزه عن توفير مستلزمات وأوليات الزواج الباهضة. لماذا؟ هؤلاء يريدون الامتناع عن الحرام وغيرهم لايريد ذلك.

وإنك لاترى ايضاً كل الفقراء والجوعى ومن اشتدت بهم الحاجة يلجؤون الى السرقة، بل قد يبدو العكس هو الصحيح، حيث السرقة والخيانة متفشية في الأغنياء أكثر منها في الفقراء. إذ الفقر كثيراً ما يولد القناعة والعفّة عما في أيدي الناس، في حين ان وفرة المال، لاسيما إذا كانت قد ظهرت دونما تعب، تخلق الرغبة في الاستزادة والتكاثر فتتولد السرقة التي هي أقرب الطرق الى ذلك.. وكل هذا وذلك يعود الى ارادة الانسان.

صحيح إن العوامل الخارجية لها تأثير، ولكن هذا التأثير يقف عند حدود الارادة التي هي الشاخص والمصداق الحقيقي لشخصية الانسان المتفاوت والمختلف عن بقية المخلوقات. فعلة الحاجة أو الشهوة الجنسية لو كانت علّة تامة لانتفى التفاوت في حركات الناس جميعاً.

لقد أصبح الحرّ بن يزيد الرياحي حجة لله على من شارك في قتل الامام الحسين وأولاده وأصحابه عليهم صلوات الله جميعاً، إذ لا يسع هذا الجيش القاتل أن يبرر جريمته بما كانوا يتعرضون له من ضغوط من قبل يزيد بن معاوية وعبيد الله ابن زياد أو عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن لعنهم الله جميعاً. فحجة الله تصدعهم بموقف الحرّ بن يزيد الرياحي الذي تمكن من التخلص من الظلمة،

والتمكن من الدفاع عن أبي عبد الله الحسين عليه السلام وأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله رغم تساويه في العلّة والضغوط معهم.

لاشكّ أن الله سبحانه وتعالى يحتج ببعض العباد على بعضهم، والاحتجاج الالهي العادل لايكون إلاّ في حال تساوي العلة والظروف. إن سحرة فرعون الذين أصبحوا فيما بعد من أخلص المؤمنين برب العالمين، إنما كانوا أكثر اندفاعاً نحو الكفر والعبودية لفرعون من غيرهم من الكافرين الذين كانوا يحسّون أكثر من غيرهم بظلم فرعون وجرائمه، الا أنهم حين اكتشفوا الحقيقة آمنوا برب هارون وموسى بارادتهم المحضة رغم كل الظروف والدوافع التي كانت تضغط في الاتجاه المعاكس.

وجذوة القول هي أنّ العوامل الخارجية لاتخلق الارادة، وانما تخلق الضغط، وشتّان بين الواقعين. ويبقى الانسان مقتدراً على الاستسلام والتحدي في آنٍ واحد. إنه مخيّر بين انتخاب الثواب أو العقاب. إن الضغوط هي الضغوط، لن تتغيّر ولن تتبدّل، والله سبحانه وتعالى يبتلي الانسان حسب ما يعطيه من الارادة والحرية والقدرة على الاختيار.

## الشبهة الثانية: طينة الانسان

واما الشبهة الثانية فتقول: إن نوع حركة الفرد يعود الى نوع الأصل؛ الذي خلق منه، فبعض الناس قد خلقهم الله من طينة طيبة، والبعض الآخر خلق من طينة فاسدة. فاذا كان الأصل طيباً، فان السلوك يكون طيباً؛ والضد بالضد. وعلى أساس هذا الزعم يكون الانسان غير مسؤول قطعاً عما يبدر منه اذ أن طينته التي خلق منها هي التي تقرر نوع حركته في الحياة.

ولكنّ النظرية الاسلامية تقول بأن أساس الخلق وإن حصل فيه التفاوت، إلا أن ذلك لايعني جدلاً استمرار الطبيعة ذاتها في حركة الانسان، وأنه ليس من الضروري أن لايرتقي الانسان مدارج العليين إن كانت طبيعته مغايرة لطبيعة العليين. فالله سبحانه وتعالى يخرج الخبيث من الطيب، ويخرج الطيب من الخبيث.

إن من الممكن أن يتحول الانسان المخلوق من العليين عاصياً لربّه جلّ وعلا، فيصبح في أسفل سافلين ؛ وذاك الذي خلق من سجين يمكنه أن يطيع ربه فيصبح في أعلى عليين. ولعل الكثير من الأدعية المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين هم أعرف بما يحتويه القرآن الكريم ؛ تشير الى ما نذهب إليه إشارات واضحة ومباشرة، حيث تركز سياقاتها العامة وتفاصيلها الدقيقة الى ضرورة أن يطمح الانسان الى السمو والرفعة نحو ملكوت ربّ العزّة. وإن هذه الأدعية كما هو مؤكد غير مختصة بطائفة دون أخرى، وعلى ذلك فإنه ليس من العدالة الالهية بشيء أن يحكم على أي مخلوق إنساني بتعاسة المستقبل لمجرد أن أصله من هذا النوع أو ذلك. وكذلك ليس من الحكمة بمكان أن يطمئن المرء الى قداسة أصله -مثلاً- فيعمل ما يشاء في دنياه، حتى أنه من الظلم أن يحكم على ولد الزنا - الذي هو في براءة تامّة عن معصية (أبويه) - بالقطع بانه سيدخل النار. فقد خلق الله سبحانه وتعالى فيه كما في غيره من الناس قابلية مقاومة المفاسد والمعاصي، رغم كونه قد ورث حبّ الشرّ عن أبويه أكثر من غيره من طاهري الأصل والنسب.

نعم ؛ إن الأبوين قد يكونا مقصرين بالفعل في تربية إبنهم، وقد يكون المحتمع المحيط والظروف المحيطة عوامل ضغط حتى تكون القاعدة عند هذا الإبن

قاعدة منحرفة، ولكن ليس من الحتم أبداً أن تكون هذه العوامل هي التي تقرر بالنيابة عن عقل وضمير وإرادة الانسان مسيرته في هذه الحياة.

وبطبيعة الحال فإن من يقاوم عوامل الضغط ينال من الثواب مالا يناله غيره ممن سنحت لهم الفرصة، وتوفرت لهم الاجواء والظروف الطيبة لأن يكونوا صالحين. فالقاعدة الدينية في هذا المضمار تشير وتؤكد على أن " الأجر على قدر المشقّة " وهذه قاعدة وسنّة مطابقة للعقل الانساني تماماً.

وبكلمة: فإن طبيعة الثواب والعقاب لا تعير لقاعدة الاستصحاب أية أهمية تذكر؛ بمعنى أن من كان مؤمناً في يوم من الأيام ليس بالضرورة أن يختم له بالسعادة وهو غارق في الخطايا، وأن من كان فاسقاً في يوم من الايام لايعني أن يكتب عليه الشقاء أبداً وهو قد تاب وأناب الى الله سبحانه، بل القاعدة الذهبية في هذا الاطار هي أن الثواب والعقاب رهينان بما يحرزهُ المرء عند الامتحان الإلهي اليومي المستمر حتى يغادر هذا المرء دنياه.

# لا جبر ولا تفويض

قبل البدء ؛ لابد من التذكير هنا بأن أتباع الفلسفة البشرية قالوا في الاغلب بالجبر، بينما البسطاء من الناس اتّجهوا نحو التفويض. إلاّ أن الانسان الواعي والحكيم المتّبع لهدى ربه، يقول بأن الأمر بين أمرين؛ فلا جبر ولا تفويض، وجاء في الحديث أن رجلاً سأل الامام الصادق عليه السلام: (هل) أجبر الله العباد على المعاصي؟ قال (الامام): لا، فقال: فوّض اليهم أمرهم؟ قال: لا، قال: فماذا؟ قال: لطف من ربك بين ذلك. (١)

وروى المفضّل بن عمرو عن الامام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: "لاجبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين". (٢)

فيا ترى ماهو معنى هذه المقولة ؟ وماهي أبعادها ؟

إن الأمر بين أمرين لا يعني عدم اتخاذ موقف تجاه الجبر أو التفويض، بل العكس

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٨٣ / عنه: ميزان الحكمة / ج ٢ / ص ٧.

(٢) المصدر / ج ٥ / ص ١٧ / عنه: ميزان الحكمة / ج ٢ / ص ٧.

هو الصحيح تماماً، حيث يجب أن يضفي الانسان المؤمن الصبغة الحقيقية والصادقة على هذين التعبيرين، ويتخذ من ذلك قاعدة أساسية ينطلق منها في أعماله وأقواله وسلوكياته على صعيد الاجمال.

إن هذه المقولة تعني الاعتكاف على أخذ الجانب الايجابي لهاتين الكلمتين. فالجانب الايجابي من كلام المجبّرة هو إيمان الانسان بوجود قانون كوني مهيمن على العالم ويقوده، والجانب الايجابي من فكرة المفوّضة هو اعتقاد الانسان بحريته وقدرته على الاختيار. ومن يقول بالحل الوسط لابد له أن يستوعب جانبي الايجاب من هاتين النظريتين بصورة عميقة وواعية ؛ أي انه من جهة يعتقد بوجود قدرة مطلقة مهيمنة على مصير الكون وعلى حركات وسكنات الكون اعتقاداً راسخاً يصل الى مستوى اليقين. وفي ذات الوقت يعتقد بعمق ويقين أيضا بحريته وقدرته على الاختيار، لأنه من دون الوعي المكثّف بهيمنة الرب على مقدّرات الوجود، ومصير الكون، وأن هذا الرب هو جاعل الظلمات والنور وهو الذي يغشي الليل النهار، وأنه هو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وأنه هو الذي يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحي، وأنه هو الذي يقول عن نفسه لرسوله صلى الله عليه وآله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (الانفال / ١٧) وأنه هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، وأنه يهدي ويضل ويرزق ويطعم ويشفي ويكي ويضحك، وأنه هو الذي بيده كل شيء وعن أمره يصدر كل شيء.

من دون الايمان بهذه القواعد فإن الانسان - لامحالة - يكون عرضةً دائمة لوساوس الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، حتى يخرجانه عن إطار إطاعة رب

العالمين، وعن إطار الهدف الاسمى الذي خلق الله الكائنات من أجله المتمثل بقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات/٥٦)، لذلك أنت تقرأ آيات القرآن الكريم وتجد فيها من البداية الى النهاية تركيزاً مستمراً على أنّ الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء وذلك بأساليب عدة، في مقدمتها استعراض صفات الله وأسمائه الدالة على الفاعلية المطلقة.

## تصورات خاطئة :

إن القرآن الكريم حينما يحدثنا عن الليل والنهار لا يقول يلج الليل في النهار أو يلج النهار في الليل، وانما يؤكد على نسبة الفعل الى الله تعالى حيث يقول : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (الحج/٦١). وحينما يحدثنا عن تعاقب الزمانين يقول : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ (الاعراف/٥٤). وحينما يحدثنا عن الضحك والبكاء والموت والحياة والخلق يقول : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ (النجم/٤٣-٤٥)، ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء/ ٧٩-٨٠). الأمر الذي يوحي للانسان بفكرة الجبر، فكل فعل لابد له من فاعل، مما حدا الى القول بالجبر، وأن فعل الانسان صادر من الله، بل حتى أن بعض فلاسفة المسلمين زعموا بأن فعل الانسان صادر من الله، وقالوا بأن الفعل صادر من العبد بصورة مباشرة ومن الله بصورة غير مباشرة.ولما سئل الأشاعرة : إذن كيف يفعل الله الفعل ثم يعاقب العبد عليه ؟ وإذا كان هو الباعث الحقيقي على إرتكاب الجرائم كيف يتسنى له المعاقبة على تلك الجرائم ؟ وإذا كان هو الأصل في فعل

الحسنات فما هي أهلية العبد أن يكون له الثواب وجنان الخلد ؟ أو ليس في ذلك ظلم واضح ؟

أجابوا : فليكن ؛ لنفرض أن الله قد ظلم !

فقيل لهم : إن الظلم أمر قبيح، ولا تصح نسبة القبح الى الله تعالى.

فأجابوا : إن القبح والحسن ليسا أمرين عقليين، وليس من مهمات العقل وخصائصه تعريف وتميز هذين الأمرين، وإنهما من مهمات الرب الخاصة به، فهو الذي يحدد حيز ومساحة القبح والحسن، والظلم والعدل دون الانسان..

وأضافوا أيضا على هذه السفسطة الغريبة : إن مجرّد مقارنة إرادة الانسان مع ارادة الله في صدور الأفعال كافٍ لتوجيه العقاب عليه وتحمّله مسؤولية الذنب أو استحقاق ثواب الطاعة. (١)

## مسؤولية الانسان..

ثم إنك حينما تقرأ القرآن الكريم مرة أخرى تجد عشرات، بل مئات الآيات المباركة تصرح بجلاء بمسؤولية الانسان تجاه أعماله من قبيل :

١/ ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (يونس /٥٢)

٢/ ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (آل عمران /١٨٢) و(الانفال /٥١)

٣/ ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة /١٠٥)

٤/ ﴿ إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد/ ١١)

---

(١) للتوسع راجع: العرفان الاسلامي -للمؤلف/ و: تاريخ الفلسفة ص٢٨٥-٢٨٧.

و... وغيرها من التعابير المباشرة التي حين لا يعيها المرء حق وعيها يستحوذ عليه الشيطان ويضله عن الطريق القويم.

وحينما تطالع أقوال علماء الاجتماع والقانون تجد أنها مغايرة لما يقوله فلاسفة الجبر وفلاسفة التفويض، بل هي متفقة في تفاصيلها على القول بحرية الانسان. بمعنى أنك لو سألت علماء القانون عن أنك حرّ أو مجبر ؟ فانه سيجيبك بشكل مباشر بأنك حرّ، وأنه ما وُضِعت بنود الحقوق الاجتماعية والقوانين القضائية إلاّ لكون الانسان مخلوق حرّ ؛ بامكانه الالتزام بالقوانين فيكون شخصه محترماً وساحته خالية من الجناية، كما أن بإمكانه تجاوز القوانين فيكون شخصه عرضة لعقاب القضاء. وأنه لو لم يكن كذلك لأصبح التقنين والقضاء أمرا في غاية العبث...

وعلماء التأريخ، وبالذات الفلاسفة والحكماء منهم، هم الذين يؤكدون على هذا الجانب أكثر من غيرهم ؛ فمثلا هناك الفلسفة الشائعة حاليا في المدارس الحديثة في علم التأريخ، وهي التي تسمى بفلسفة ( تويمبي ) القائمة على اساس فكرة التحدي والتحدي المضاد، هذه الفلسفة العريقة تؤكد على أن أساس قيام الحضارة هو التحدي، وأن أساس اندثار الحضارة قائم على وجود أو ظهور التحدي المضاد لها. وبتعبير آخر: أن الحضارة قائمة على أساس حرية وإرادة الانسان والمجتمع، إذ لا يخفى أن العاجز عن الاختيار والعاجز عن اظهار إرادته، عاجز بالتبع عن ممارسة عملية التحدي أو التحدي المضاد.

إذن فعقلاء البشر ليسوا كلهم مع أفكار فلاسفة الجبر، وهؤلاء العقلاء العاملون في سلك الأخلاق والتربية والقانون والتأريخ يذهبون الى أن من أولى صفات

الانسان – كمخلوق مفضّل على غيره من المخلوقات – هي الارادة والحرية وامكانية الانتخاب والاختيار.

ولعلّ السبب الرئيسي في توجه الفلاسفة وأتباعهم الى القول بمقولة الجبر، هو أنهم قد تعمقوا في مسائل لم يفهموها بالشكل الصحيح منذ البداية ؛ بمعنى أن قاعدة انطلاقهم في ممارسة عملية التنظير كانت قاعدة غير سليمة. فهم لم يسعوا ابدا في فهم المصطلحات الخاصة بهذا العلم بادئ بدء، هذا فضلا عن أن البحث في مثل هذا العلم ليس من صلاحيات الانسان مهما تقادم به العهد أو صوّر لنفسه جدوائية البحث في هذه المسائل ومثيلاتها، حيث تفرض هذه البحوث نفسها من خلال ما قاله الخالق وحدّده في القرآن الكريم، أو ما جاء على لسان الانبياء والأئمة باعتبارهم مفوضين من قبل المرسل لهم في توضيح ما من شأنه أن يُعْجِزَ بني البشر. ولقد عزا إمامنا الصادق صلوات الله عليه السبب في وقوع بعض الفلاسفة في هذا المطبّ الخطير الى أنهم " تكلّفوا علم مالم يؤتوا، حتى أن أحدهم كان ينادى من أمامه فيجيب من خلفه، أو ينادى من خلفه فيتحدث من أمامه ". (١) حتى تورطوا في شبهات خطيرة بالنسبة الى إيمانهم، وإيمان من يتبعهم أو يقلدهم. وهم –بطبيعة الحال– كانوا في غنىً عن هذه الشبهات لو أنهم ردّوا الأمر الى الله والى الرسول والمعصومين الصديقين من أهل بيته عليهم السلام.

**العلم غير الارادة :**

يعزو البعض إرادة الانسان وأفعاله الى علم الله سبحانه وتعالى ؛ بمعنى أن الانسان لم يكن ليقوم بأفعاله لو لم تكن مكتوبة في علم الله عزّ وجلّ. والشاعر

---

(١) بحار الأنوار / ج ٢ / ص ٣٠٨ / رواية ٧٠.

الايراني المعروف عمر الخيام ذهب أبعد من ذلك بكثير، حيث يشير الى أنه كأنسان يفعل الفعل، ليتحقق بذلك ما هو ثابت في علم الله ؛ أي أن الانسان يتحول في هذه النظرية الى مساعد لله، باعتبار أن علم الله جلّ جلاله لا يكتب له التحقق لو لم يقم الانسان بترجمته الى واقع ملموس.

وبكلمة إن هذا الشاعر يهدف الى القول بحاجة الخالق الى مخلوقه، فهو يقول في أحد أبياته الفارسية ما مضمونه : أنا أشرب الخمر ؛ لأن شربي للخمر كان في علم الله ؛ ولولاه لأصبح علم الله جهلا ! وأنا لا أستطيع أن أجعل علمه جهلا..!!

يعني أنه يمنّ على الله بفعله للمعصية ؛ ولعمري إنّ هذا لمذهب عتيد في الكفر يذهب أبعد بكثير مما ذهبت اليه المجبرة.

ورغم ما يبدو من تعقيد وفلسفة في صياغة هذه الشبهة في الظاهر، إلا أن الحقيقة تظل ناصعة سهلة التناول والاعتناق ممن كان قد ألقى السمع وهو شهيد. إذ العلم شيء، والارادة شيء آخر. فمن كان يعلم أن الشمس طالعة هل إن ذلك العلم هو سبب طلوعها ؟ وإنك حين تعلم بان الناس الذين يعيشون اليوم على وجه البسيطة سوف لايبقى منهم أحد بعد مئتي سنة، فهل إنك بهذا العلم مسؤول عن موتهم؟ وإن الاستاذ الذي يعلم بأن تلميذاً له سوف يفشل في الامتحان النهائي بسبب عدم مطالعته ومراجعته لدروسه، فهل إن الاستاذ مسؤول عن فشل ذلك التلميذ.؟

وإنما هذا العلم له أسباب مغايرة لاسباب حصول الارادة، لا سيما وأن طرفي العلم والارادة متغايران هنا منذ البداية.

فالعلم الالهي قائم على أساس طبيعة إحاطة الخالق بما ستعمل مخلوقاته، لا على

أساس إرادته هو. ولو كان الواقع غير هذا، لقلنا بأن الله – والعياذ به – كان يحب ذبح الحسين عليه السلام بهذه الطريقة الاليمة التي لايحصرها وصف، لأن الشمر بن ذي الجوشن كان يحب مثل هذا الانتقام وهذا التمثيل بأبي عبد الله الحسين عليه السلام.

أما إرادة المخلوق فهي قائمة على أساس ما خُلق فيه من رغبات متنوعة ؛ فهو يصلي لأنه يحب ربه ويرغب في دخول الجنة، وهو لا يصلي لأن حواجز عديدة قد ضغطت عليه واستسلم لها، وهو يعفّ فرجه لأنه يغض السقوط، وهو يزني لأنه يستسلم لشهوته الآنية أو لأنه يجهل طبيعة النتائج السلبية لمثل هذه الجريمة.

نعم ؛ إن الانسان هو بالذات خالق لارادته، وهو المسؤول الأول عن توابع تفعيل هذه الارادة، لأن الإرادة أمر حادث – كما تقدمت الاشارة الى ذلك في البحوث السابقة – في حين أن علم الله سبحانه وتعالى أمر قديم ؛ بل الله تعالى هو العلم، وذاته عالمة منذ الازل. فالله تعالى لا يرضى لعباده الكفر مع أنه يعلم بأن القسم الأكبر منهم سيكون كافرا.

إذن فمسألة العلم والحب والرضا خارجة كليا عن موضوع الارادة الانسانية، بل إن الانسان نفسه قد يعلم علماً سابقاً بأن الأمر الفلاني سيحدث بعد ساعة – مثلاً – ولكن ما يقع مستقبلاً يكون مناقضاً لذلك. وهو قد يحب ويفضل حدوث هذه الحادثة أو تلك، ولكنها تأبى عن الحدوث. فليس كل ما يتمنى المرء يدركه.

وهناك العديد من الشبهات تجانس نوع الشبهة المتقدمة الذكر، ونحن لا يسعنا سوى القول بأن مجمل الشبهات نابع بالاساس من سوء فهم مصطلح الارادة

والعلم ؛ وسوء فهم ما قاله الله تعالى، أو أنها نابعة من رغبة البعض في خوض غمار بحوث لا ينبغي تصورها إلاّ بتصور ما بيّنه الله سبحانه وتعالى. هذا فضلاً عن وجود المغالطات اللاعقلية المتعمدة من قبل هذا الطرف أو ذاك، بدواعي المصالح المذهبية والسياسية وغير ذلك.

## الجبر والتفويض.. في الأحاديث..

جاء في الحديث أن الفضل بن سهل سأل الامام الرضا عليه السلام : يا أبا الحسن! الخلق مجبورون؟ فقال: الله أعدل من أن يجبر خلقه ثم يعذبهم. قال: فمطلقون؟ قال: الله أحكم من أن يهمل عبده ويكله الى نفسه. (١)

قال الامام ابو جعفر الباقر عليه السلام للحسن البصري : " إياك أن تقول بالتفويض فإن الله عز وجل لم يفوّض الأمر الى خلقه وهناً منه وضعفاً ولا أجبرهم على معاصيه ظلماً ". (٢)

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين. – فسئل – : ما أمر بين أمرين ؟ قال عليه السلام : مثل ذلك مثل رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته فتركته ففعل تلك المعصية فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصية. (٣)

وقال ابو الحسن علي بن محمد الهادي في رسالته الى أهل الأهواز حينما سألوه عن الجبر والتفويض :... فأما الجبر فهو قول من زعم أن الله عز وجل جبر العباد

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٥٩ / رواية ١١٠.

(٢) المصدر / ص ١٧ / رواية ٢٦.

(٣) المصدر / ص ١٧ / رواية ٢٧.

على المعاصي وعاقبهم عليها، ومن قال بهذا القول فقد ظلم الله وكذّبه وردّ عليه قوله ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ وقوله جلّ ذكره ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ مع آي كثيرة في مثل هذا، فمن زعم أنّه مجبور على المعاصي فقد أحال بذنبه على الله عز وجلّ وظلّمه في عقوبته له، ومن ظلّم ربّه فقد كذّب كتابه ومن كذّب كتابه لزمه الكفر باجتماع الأمة، والمثل المضروب في ذلك مثل رجل ملّك عبداً مملوكاً لا يملك إلاّ نفسه، ولا يملك عرضاً من عروض الدنيا، ويعلم مولاه ذلك منه، فأمره على علم منه بالمصير الى السوق بحاجة يأتيه بها، ولا يملّكه ثمن ما يأتيه به، وعلم المالك أن على الحاجة رقيباً لا يطمع أحد في أخذها منه إلاّ بما يرضى به من الثمن، وقد وصف مالك هذا العبد نفسه بالعدل والنصفة وإظهار الحكمة ونفي الجور، فأوعد عبده إن لم يأته بالحاجة أن يعاقبه، فلما صار العبد الى السوق وحاول أخذ الحاجة التي بعثه المولى للإتيان بها وجد عليها مانعاً يمنعه منها إلاّ بالثمن، ولا يملك العبد ثمنها، فانصرف الى مولاه خائبا بغير قضاء حاجته فاغتاظ مولاه لذلك وعاقبه على ذلك، فإنه كان ظالماً معتدياً مبطلاً لما وصف من عدله وحكمته ونصفته، وإن لم يعاقبه كذّب نفسه، أليس يجب أن لا يعاقبه؟ والكذب والظلم ينفيان العدل والحكمة، تعالى الله عمّا يقول المجبّرة علوّاً كبيراً. (١)

ويقول المعصوم عليه السلام : " لو فوض الله أمره إليهم على جهة الاهمال لكان لازماً له رضا ما اختاره واستوجبوا به من الثواب، ولم يكن عليهم فيما - اجترحوا أو- اجترموا العقاب إذ كان الاهمال واقعاً ". (٢)

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٢٢ / رواية ٣٠.

(٢) المصدر / ص ٢٣ / رواية ٣٠.

إن أهم ما نقوله في النهاية، هو أن الغرض من الثقافة التي يوحي بها الشيطان هو دفع الانسان نحو القول بالجبر أو التفويض للتمويه على الذنوب والاخطاء ونسبة ما ليس لله اليه. وعلينا أن نكون دقيقين في انتخاب الطريق المستقيم الذي ندعو الله دوماً أن يهدينا اليه، لكي لا يكون أمرنا فرطاً فنكون من أصحاب الجحيم.

# ماهو الوجود ؟

لقد تعمقت الفلسفة البشرية في تفسير الوجود وذهبت فيه مذاهب شتى.

وأهم موضوع تضارب فيه الفلاسفة هو حقيقة التحقق ؛ هل هو الوجود أو الماهية ؟ وبالرغم من أن كثيراً من الفلاسفة حاولوا إثبات ما أسموه بـ " أصالة الوجود " عبر أدلّة شتّى ؛ غير أن حججهم في ذلك تعدّدت وكثرت، ولم تقف عند نهاية معينة، وبالتالي عجزوا مطلق العجز عن أن يأتوا بما يهزم أو يقاوم فطرة الانسان ووجدانه السليمين.

ولعلّ القضية محور البحث تكمن في أن لكل شيء حدود وإطار وجوهر ؛ فالانسان والحيوان والشجر والحجر والبحر والسماء كل أولئك عبارة عن أشياء متحققة واقعية، لها إطارات وحدود ومميزات معينة. كما إننا نستطيع أن نستوحي من واقعها بشكل عام فكرةً واحدة، وهي فكرة الوجود.

والاختلاف المشار اليه يتمحور في هل أنّ هذه الحقائق كانت شيئاً واحداً نسميه بالوجود، وأنها انقسمت عبر مميزاتها الى أقسام متعددة، أم أن الله سبحانه

وتعالى كان قد خلق كل شيء ضمن هيئة مستقلة بميّزاتها وحدودها وبدئها وانتهائها وبكل ما يمتّ لها بصلة بصورة مباشرة ؟؟

وفي هذا الصدد تنقل كلمة عجيبة لابن سينا حيث يقول: لم يجعل الله (المشمش) مشمشاً وإنما خلقه كذلك. أي حينما خلق الله سبحانه (المشمش) خلقه مشمشاً ولم يخلقه مرتين ؛ مرة أتى به الى الوجود، ومرة أخرى أعطاه صبغة المشمشية -إن صحّ التعبير - وقد استوحى بعض المجبّرة من كلمة ابن سينا هذه القول بأنّ الله سبحانه وتعالى لم يجعل السعيد سعيداً أو الشقي شقيّاً، وإنما خلقهما كذلك ؛ أي كان السعيد سعيداً والشقي شقياً في الماهية.

ولكن الفطرة والوجدان الانساني السليم لا يتصور مثل هذه المفارقة الغريبة، بل إنه يدرك أن لكل شيء في الوجود تحقق مستقل في ذاته، ويطلق على المسميات أسماءها المعرِّفة لها، بحيث تتميز عن أضدادها وحتى عن شبيهاتها..

نعم ؛ إنه حينما يريد جمع الأشياء مرةً واحدة فهو يلغي الفوراق ويطلق عليها تسمية واحدة، فيقول : الوجود... الموجود... الكون، كما إنه إذا اراد الغاء الفوارق بين إنسان وإنسان فهو يسمي كل الناس بكلمة الانسان، وهذا بطبيعة الحال هو استخدام المفهوم الانتزاعي في التفاهم والتعبير ؛ لا أكثر ولا أقلّ. فالعقل رغم اعترافه بوجود الفوارق بين بني البشر ؛ إلاّ أنه إذا أراد التعبير لا يسعه إلاّ الالغاء ليسلم تعبيره من إدخال ما ليس من شأنه الدخول.

إن الموجود في ارض التحقق والواقع والوجود الملموس هو أنا وأنت وهو وهي. فنحن أُناس مختلفون في ميزاتنا من افكار وتوجهات وابعاد ماضوية وحاضرة ومستقبلية، ولكن الانسان - كإنسان - حينما يريد التعبير عن هذه

المجموعة – مرةً واحدة – يقوم باستيحاء مفردات هذا المجموع ويجمعها في كلمة واحدة.

غير ان الانسان الحامع لكل أبعاد الانسان لا وجود خارجي له في ارض الواقع، بل إن ذلك خطور في الذهن وتصور عقلي مجرد عن المادة والتحقق لا أكثر ولا أقل. فالجنس شيء والافراد شيء آخر، وقد يأخذ هذا الفرد مستوى وحدوداً واسعة، وقد يستلهم من نوعه اكبر كمية وكيفية ممكنة، ولكنه عاجز كل العجز عن الالتحام بالجنس بصورة مطلقة وعامة. فجنس القلم لا ينحصر في مكان واحد، ولا يتحدد في زمن معين وهذه المادة التي بين ايدينا التي تأخذ هيئة القلم وتكون قابلة للاستفادة نطلق عليها لفظة القلم، ولكنها لا ترقى الى جنس القلم، لأن هذا الجنس يضم هيئات عديدة للغاية تعجز هذه التي بين ايدينا أن تعبّر تعبيراً حقيقياً من حيث المكان والزمان والنوع عن مثيلاتها أو شبيهاتها، فضلاً عن أضدادها من حيث اللون والمادة والاستخدام...ولكنها تبقى جميعاً أقلام من حيث المفهوم الانتزاعي.

وقد تقدّم البعض ممن قال باصالة الوجود الى القول بوحدة الوجود ؛ أي أنهم ذهبوا الى أن هذه الفوارق التي تبدو بين إنسان وإنسان، بين شقي وسعيد، بين كبير وصغير، بين مؤمن صالح وكافر طالح، بين الحيل الأول والحيل الثاني، بين الشجر والحجر، بين الارض السماء، بل بين الخالق والمخلوق.. كلها فوارق غير طبيعية وغير حقيقية، بل هي حسب زعمهم شيء واحد لا أكثر ولا أقل وهذا الشيء الواحد في درجته الاسمى وتجلّيه الأعظم هو الله، بينما التجلي الأدنى والأضعف هو صورة الأشياء التي نراها أو نتصورها.

وقالوا ايضاً : إن أعمال الانسان الخيّرة تصعد به الى درجة الله عزّ وجلّ ؛ فيتم الاندماج والتلاحم حتى الفناء..!

ونحن إنما نهدف الى معالجة ومناقشة هذه الفكرة من زاويتها الدينية، وأيضاً من الزاوية العقلية والعلمية، وإن شئتَ فقل الزاوية الفلسفية.

## الانسان.. وسمو العبودية :

فمن الزاوية الدينية نرى بأن القرآن الكريم من بدايته وحتى نهايته، يفصل دائماً وأبداً بين شيئين ؛ بين الخالق والمخلوق. والخالق يتسامى بعلوّه ومجده وعظمته وقدرته المطلقة ورحمته الواسعة، والمخلوق وفق النظرة القرآنية تتفاوت منزلته من حيث طاعته لخالقه، فهو يسمو الى درجة العبودية الحقّة إذا ما أطاع خالقه طاعة مطلقة.

ودرجة العبودية هذه إنما هي تفضّل من الله عز وجل على الانسان. أمّا اندماج ووحدة الخالق والمخلوق فلا نجد له تعبيراً أو معنىً تلويحاً أو تصريحا في القرآن الكريم في أيّة آية من آياته.

بلى ؛ إن بعض المتصوفة ممن ينهب الى وحدة الوجود حاول رفد مذهبه بتأويلات وتفسيرات مشوشة لبعض الآيات القرآنية، من قبيل قوله تعالى : ﴿ يَآ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * إرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾ (الفجر/٢٧-٢٨) على أن هذه النفس مدعوة الى الاندماج والعودة الى الله تعالى، كما تعود أشعة الشمس الى الشمس أو تعود المياه الى عين مصدرها.

أما الأدعية المأثورة والروايات الشريفة الصادرة عن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام فهي كما القرآن المجيد، لا تدلّنا على

هذا النوع من التفكير، بل العكس والضد من ذلك هو الثابت عنهم - صلوات الله عليهم أجمعين - حيث تؤكد مـأثوراتهم بـأنّ اللـه تعـالى هـو القـوي الكبير، وأن الانسان هو العبد الضعيف الصغير، وأن الفاصلة بين الجانبين كبيرة جداً.

ولكن مشكلة الانسان الخالدة انّه حينما يريد أن يتعدّى حدوده ويتجاوز عبوديته وضعفه وعجزه وحقارته لا يسلك الطريق القويـم فـي ذلـك، بـل يقـع فـي أخطـاء أسـلافه مثـل فرعـون ونمـرود وبقيـة الطغـاة والجبـابرة والمسـتكبرين فـي الارض، فيدعي الربوبية أو الاتحاد مع خالقه، بدل الاعتراف بالعبودية لله عز وجل.

إن الانسان إنما يكون أقرب الى خالقـه، حينمـا يسـجد لـه ويعترف بـالضعف والتقصير في جنب الله ضمن حالة الخشوع والجأر اليه.

ولعـل الطريـق الأقـوم لمعرفـة الخـالق حق معرفتـه يكمـن فـي طريــق التسـبيح والتقديس، باعتبار أنّ التسبيح هو أرفع وأقدس ما يذكر به الله سبحانه وتعالى.

ولسنا نحن الوحيديـن الذيـن نسبحُ اللـه ونقدسـه، فـالكون كلّـه مجبـول على التسبيح لله الواحد الأحد بشهادة قوله عزّ من قائل : ﴿ **وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ (الاسراء/٤٤)، وقوله تعالى : ﴿ **يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ (الحشر/٢٤)، وقوله تعالى : ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ (الحديد/١). وقوله تعالى في معرض الحديث عن النبي داود عليه السلام : ﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ** ﴾ (ص/١٨) .

وهـذه المعـاني تنتفـي كليـاً إذا مـا اتحـدّ المخلـوق بخالقـه، إذ لمــن سيسـبح المخـارق ؟ إنما التسبيح هو تقديس وتمجيد الخالق وتنزيهه عـن التشبيه بخلقه.

والحديث الشريف يقول : " إن الله تبارك وتعالى خلوٌ من خلقه وخلقُه خلوٌ منه ". (١) وهذا الخلو لا يعني الابتعاد الزماني او المكاني أو ابتعاد المستوى، بل هو خلو شبه ومثل. ولقد جاء في دعاء أبي حمزة الثمالي عن الامام زين العابدين عليه السلام : " أنا الضعيف الذي قوّيته، أنا الصغير الذي ربّيته، أنا الجاهل الذي علّمته ". أي لابد من معرفة وجود مفارقة بين جانب الضعف والعجز والمسكنة والفقر المطلق، وبين جانب الرحمة الواسعة والعطاء الدائم. والانسان المؤمن العارف بالله يشعر حال استعراض هذا التفاوت بين السيد والعبد وكأن قلبه يعيش في مهرجان من الايمان يدفعه الى السمو والتكامل في مسيرة الكدح الى الله سبحانه وتعالى، مما يدل على صحة هذا الاسلوب في مخاطبة ربّ العزة تقدست أسماؤه.

وفي معرض ردّه على القائلين بوحدة الوجود، يقول العلامة الحسن بن يوسف بن مطهر الحلّي الذي يوصف بأنه أعلم علماء الشيعة على مرّ التأريخ : لا ريب أنّ من يقول بوحدة الوجود كافر عندنا، لأنه منكر لضرورة الدين...

ومن النتائج التي ترتبت على نظرية وحدة الوجود الاعتقاد بصحة جميع الديانات ؛ فكل الامور والاشياء هي الله تعالى، والله تعالى هو الحق. فمن يعبد الله أو يعبد الأصنام أو الاشخاص أو الشمس والقمر فهو بالتالي لا يعبد إلاّ الله تعالى ؛ عرف أو لم يعرف ؛ تعمد ذلك أم لم يتعمده.

أحدهم يقول في ذلك : لوكان المسلم يعلم ماهو الصنم لكان تأكد بأن الدين هو في عبادة الصنم ! والآخر يقول : إن مشكلة موسى عليه السلام مع فرعون

---

(١) بحار الأنوار / ج ٣ / ص ٢٦٣ / رواية ٢٠.

إنما كانت في أن هذا النبي يعتقد بأن فرعون ليس هو الاله الوحيد، وأن كل شيء هو الله، وأن الخطأ في فرعون أنه كان يدعي الربوبية لوحده، والحال أنه نموذج واحد من نماذج الله في الأرض !..

وكان ( بايزيد البسطامي ) وهو من كبار القائلين بنظرية وحدة الوجود يقول : ليس في جبّتي إلا الله !! وصارت عنده القناعة بأن جبّته تحمل جثة الله. ويقول أيضا : كنت في السابق قد طفت حول الكعبة والآن فإني أرى الكعبة هي التي تطوف حولي !! إذ صار هو الله حيث اتحد فيه. ثم تمادى في كفره حتى قال : لقد أوصلني الحق الى مرتبة رأيت فيها الخلائق بين إصبعيّ. ثم ساله أحدهم : ما العرش ؟ فقال : أنا، وأنا الكرسي واللّوح والقلم.. حتى ادّعى بأنه حل محلّ النبي ابراهيم وموسى والملائكة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ، حتى أنّ السائل سكت من شدة تعجبه وذهوله. ثم قال البسطامي : إذا أفنى شخص ما ذاته في الله فلا عجب أن يكون كل شيء!!

وهذه الأقوال والشطحات الصوفية التي ترفضها العقيدة الاسلامية المنزلة على نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله، إنما هي تعبير مباشر عن روح الأنانية وحب الذات وتجاوز طبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوق؛ بل هي إشارة واضحة على جهل هؤلاء المطبق بالعلة في وجود المخلوقات ومصير هذا الوجود وهذه الموجودات...

وهذا ( الحلاّج ) الذي كان منسوبا الى المذهب الشيعي، قيل إن الامام الحجة ( عجل الله فرجه الشريف ) قد لعنه ضمن رسالة له في غيبته، كان يقول : من أراد أن يصبح عاشقاً فعليه أن يخرج من الدين ومن الكفر ويذهب الى صحراء العشق... !

فرغم أن عباراتهم تغطيها مسحةٌ من الجمال الأدبي، إلاّ أنها تبقى في جوهرها تجاوزاً على حقيقة الدين، وهي تقف بالتضادّ المباشر مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ (آل عمران/١٩)، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران/٨٥).

إن هؤلاء وأمثالهم يحاولون إظهار الدين الاسلامي ونصوص القرآن على أنهما حقائق وضعت للسذج من الناس، وأن ما يدعى بدار العارفين هي خارج دار الايمان بالله أو الكفر به. وذلك في حقيقة الأمر لا يعدو أن يكون تهرباً من تحمل المسؤولية واستجابة لهوى النفس ووساوس الشيطان الرجيم الذي توضح قصته مع أبينا آدم عليه السلام بأنه كان يقر بالربوبية للّه تعالى ؛ إلاّ أنه كان يريد أن يعبد ربه من حيث يريد ويتصور هو ، لامن حيث يأمر الله تعالى به.

وقد استلهم ( سارتر ) وتلامذته هذه العقيدة الشيطانية من ( الحلاّج ) الذي يمجدونه ويعتبرونه شخصية ثورية، ويعملون له المسرحيات. إنهم يقولون بأن الانسان هو محور الكون، وليس هناك شيئٌ يسمى إرادة الله وعبادة الله، وهذا لعمري عين الانانية مع إختلاف في الصورة. فالحلاج يقول : أنا الله، وسارتر والمذهب الوجودي الراهن في اوروبا يقول : أنا محور هذا الكون..

إن من الصوفية مَن يقول : للاسلام قشر ولبّ، فالسذج من الناس أخذ القشر فتراه يصلي ويصوم ويحج، أما أنا فقد أخذت اللّب ؛ فلا حاجة تدعوني الى الانخراط أو الاجتماع بالناس...!

وهذا المذهب الذي يدعى بالكرشنائي أخذ في الانتشار بين الناس، وهو يلقى في الوقت الراهن صدىً واسعاً في اوروبا التي تعبت من واقعها المادي البحت.

فهذا المذهب يؤكد على معتنقيه بأنه دين جديد، من أهم مميزاته التحلل من القيود والواجبات ؛ بل والخروج على الأعراف والتقاليد، ويكفي ذكر الله القلبي وعبادته كل على شاكلته...

ورغم أنّ من يقول بأصالة الوجود لا يدّعي الخروج عن إطار الشريعة، غير أن ذلك يعتبر مرحلة سابقة لمرحلة القول بوحدة الوجود بين الخالق والمخلوق والعالم والمعلوم وكل شيء، حيث ينتهي به المطاف الى حذف الحدود والواجبات الشرعية والطريقة التي بينها الله تعالى نفسه لمعرفته وعبادته.

وأودّ الاشارة هنا الى أن مجمل هذه الانحرافات العقيدية، إنما هي حلقة من سلسلة الانحرافات التأريخية التي تعرض لها بنو البشر ؛ ابتداءً من أنانية الشيطان إبليس وتكبره على طبيعة أبينا آدم عليه السلام الطينية، وقد أوحى الشيطان بإنحرافه هذا الى جنوده وأتباعه من شياطين الإنس، وقد استجاب له الكثرة الكاثرة من الناس بالرغم من سهولة ووضوح ما تطمئن اليه الفطرة الانسانية والتعاليم السماوية القائلة بالفصل بين الخالق والمخلوق. وأن من الواجب على المخلوق الكدح بالطريقة الصحيحة الى خالقه لتتم بذلك مصداقية الخلق ؛ الذي أراد الخالق ان يسكنه فسيح جنانه بعد أن ينقذه من جحيم النار المخلوقة هي أيضاً لأتباع الشيطان والهوى.

وعلى ذلك، فإن من يريد أن يعرف الله ويفهم الاسلام، لابد أن يأخذ تعاليمه من القرآن الكريم وروايات النبي وأهل بيته عليهم السلام التي هي تفسير محكم للآيات القرآنية. وهذه المهمة إنما تكون من دون حجب وعدم تحميل النصوص الاسلامية مالا تحتمل من نظريات وأنانيات شيطانية انتهازية، وغير المتقيد بهذا القيد لا يتعب ويخدع إلاّ نفسه، ولا تذهب حياته إلاّ حسرات...

## الفصل الثاني عشر :

# حقيقة الوجود

إن الثقافة التي يستوحي صاحبها أفكاره من المحيط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، هي ثقافة تتغير حسب الظروف والأهواء والتقلبات، باعتبارها ثقافة نابعة من التفكير البشري المحدود. فهي تتأثر سلبا أو إيجاباً بهذا التفكير غير مضمون الصلاحية والاستقامة، ولكن البصائر التي يوحي بها الله سبحانه وتعالى للانسان لا يمكن أن تتغير أو تتأثر بالظروف المحيطة. وهذه الميزة الكبرى والاساسية التي تتمتع بها البصائر الالهية وتكشفها لنا آيات القرآن، تشهد على صدق الرسالات السماوية التي يعضد ويؤيد بعضها بعضاً، بينما الثقافات الوضعية يكذب بعضها بعضاً.

إن الثقافات البشرية تتعارض فيما بينها بصورة حادة وخطيرة تبعا لتعارض واختلاف ما يحيط بها من اوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية. فقبل قرون، حيث كان علم الانسان محدودا، وكانت تنقصه وسائل التقدم الصناعي، وكان محاطاً بالجهل، كانت الفلسفة البشرية ذات لون معين. بينما يوم تطوَّر الواقع

الاجتماعي والاقتصادي و السياسي فان ثقافة الانسان قد اكتسبت لوناً مغايراً، وأضحت في الوقت الحاضر تسخر مما كان البشر عليه سالفاً. وهذا الواقع بمثابة الشهادة الصارخة على بطلان وعجز التفكير الانساني على تحدي الجهل والظلمات دون الاستعانة بالوحي. إذاً فالمسيرة البشرية تكشف يوما بعد آخر، ومرحلة بعد أخرى نقص الثقافة البشرية وعجزها، وتكشف أيضا ما تسبب هذا النقص والعجز في وقوع المآسي والويلات والتأخر.

أما الرسالات السماوية والقرآن الكريم الذي هو أكملها وأعظمها فهو متقدم على العلم دائماً، وكلما خطى العلم والعقل خطوة الى الامام، كلما وجد الانسان في القرآن تعابير تشير الى اكتشافات العلم، فالقرآن – الذي هو خلاصة رسالات السماء – في استدلال مستمر لا ينقطع على هيمنة الثقافة الالهية على التقدم العلمي، وعلى ضرورة تمسك البشرية بحبله. ولعل تطور العلم البشري بحد ذاته هو الذي يجعلنا نزداد إيماناً بكتابنا.

إن الذي يقرأ – مثلاً – كتاب ( الامام الصادق عقل المذهب الشيعي ) والذي ألّفه مجموعة كبيرة من الفلاسفة الغربيين يعرف مدى صدق هذه الفكرة، ويتأكد بأن علم القرآن الكريم وثقافة اهل البيت عليهم السلام ليس علماً صادراً عن أرض الجزيرة العربية أو ثقافة نابعة من المدينة المنوّرة أو الكوفة أو البصرة، وإنما كانت ثقافة وعلماً إلهياً أوحى به الله سبحانه الى البشرية. فالثقافة التي استعرضها القرآن الكريم وقام الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بشرحها وتفصيلها ليست من فصيلة بقية الثقافات القابلة للفناء، فهي تعالج قضايا عجز البشر عن مجرد الحديث المنطقي عنها، ومنها قضية الوجود. وسنحاول هنا استعراض آراء

الفلسفة البشرية في مسألة الوجود ثم تفصيل الرأي القرآني ورأي أهل البيت عليهم السلام فيها.

## الوجود والثقافة الوضعية :

لقدغرق الفلاسفة في مبحث الوجود، وكان غرقهم هذا دليلا على ضرورة أن يركب الانسان الباحث عن الحقيقة سفينة الوحي الالهي.

قال الفلاسفة بأن الله علة تامة – تمييزا عن العلة الناقصة – للكون، وبما أن العلة التامة لا تنفصل عن المعلول، لذلك فالله قديم والكون قديم معه. ومثّلوا لذلك بقولهم إن النار علة تامة للحرارة، والمصباح علة تامة للضوء، والشمس علة تامة للدفء، والرصاصة التي تدخل القلب علة تامة للموت، ولا يمكن في حال من الاحوال تصور انفصال المعلول عن علته التامة، فهو موجود فور وجودها. ومثلوا العلة الناقصة بوجود السكين في يد الانسان الذي يمكنه أن يقتل أحداً به أو ان لا يقتل. فالتفاوت بين نوعي العلة هو الفور في التامة والفتور في الناقصة. وقولهم بقدمية الكون دعاهم الى القول بقدم أجزائه، فكان المخلوق قديماً.

وهؤلاء الفلاسفة انتهوا باستدلالهم هذا الى التصريح بان العوالم متعددة ؛ فالعالم الاول هو عالم الخالق، والعالم الثاني عالم العقول المجردة، والعالم الثالث هو عالم النفوس، والعالم الرابع هو عالم الأجساد.

قالوا : بما إن العقول قديمة فالنفوس قديمة والأجساد كذلك، لأن كل واحد من هذه الحقائق الاربع علة لمعلوله الذي يعقبه، وبالتالي يستحيل انفصال المعلول عن علته ؛ بمعنى إن الله قد صدرت منه العقول، وصدر عن العقول النفوس، وصدر عن النفوس الاجساد.

وهذا الصدور القديم الذي جاء من دون سبق زمني أدى بالنفس الى ان تكون مجردة عن الزمن، وكذلك الارواح. فهذه الاشياء موجودات مجردة عن اطار الزمان؛ بمعنى أنها ليست من المادة، فلا زمان يحكمها، ولا مكان. فهي إذا شريكة لله سبحانه وتعالى في قدمه.

وهكذا ألغى الفلاسفة - شاؤوا أم أبوا - عنصر الزمن من منهجهم العلمي ؛ الأمر الذي فرض عليهم القول بعدم تخلف المعلول عن علته، وإن الحياة تجري كما يجري النهر من الاعلى الى الأسفل وليس العكس. فالحياة تجري وفق خط واحد تستحيل الاستدارة فيه، مما أوقعهم في خطأ كبير للغاية، وهو نفيهم للمعاد الجسماني.

وليس من شك بأن مجموع هذه الأخطاء لا يعبر عن عثرتهم الوحيدة في سلسلة تفكيرهم. فهم كثيرا ما عثروا ولم يقوموا، حيث اعتقدوا بأن الشمس تجري حول الارض، وأن الناس يختلفون عنصراً عن بعضهم فمنهم من خلق ملكاً ومنهم من خلق عالماً ومنهم من خلق خادماً، وغير ذلك من الاعتقادات الخرافية البالية.

## نظرة الاسلام الى الوجود :

إن أهم نقطة في العقيدة الاسلامية تجاه الوجود هي أن الله جل وعلا خلق الخلق لا من شيء أو مادة كانت موجودة. فالله سبحانه لا يحتاج الى شيء لكي يخلق منه شيئاً، وهو قادر على خلق الاشياء من بعد أن كانت معدومة. وليس كما يقول الفلاسفة بأن الله خلق الاجسام من النفوس، والنفوس من العقول، والعقول من بعضها.. وان العقول تنطوي ضمن مراتب عشر يسمونها "العقول

العشرة"، بل إنه تعالى يخلق الجسم بصورة مباشرة. فهو ابدع الاشياء إبداعا وانشأها إنشاءً، فهو لا من شيء خلق الاشياء، لأن ذلك آية قدرته وعدم محدوديته، فهو قد خلق إرادته، وبإرادته خلق كل شيء.

القرآن الكريم يقول إن الاشياء لها وجود في عالم التحقق، وليس مجرد أوهام وخيالات كما يقول السفسطائيون. فالله خلق السماوات بغير عمد ترونها، فنحن نرى السماوات ولكننا لا نرى الاعمدة التي تستقر عليها، فاذاً السماء موجودة حقاً، فليس في عالم التحقق - إن وافقنا التعبير - إلا أمران : الخالق الذي هو فوق الوصف، والمخلوق الذي له وصف، ومن الممكن أن يأخذ أشكالاً مختلفة ومتنوعة. وحسبما يقول الامام الرضا عليه السلام ضمن حديث شريف وإنما هو الله عز وجل وخلقه لا ثالث بينهما، ولا ثالث غيرهما، فما خلق الله عز وجل لم يُعد أن يكون خلقه.

وقد يكون الخلق ساكناً و متركاً ومختلفاً ومؤتلفاً ومعلوماً ومتشابهاً، وكل ما وقع عليه حدٌّ فهو خلق الله عز وجل. (١)

ونستوحي من الروايات الواردة في هذا الخصوص أن أول خلق خلقه الله تعالى كان نور نبينا محمد صلى الله عليه وآله ثم خلق ربنا بهذا النور جوهراً بسيطاً قد يكون من الصعب على عقول البشر استيعاب ابعاد هذا المخلوق، ثم عرض الله هذه المادة بعَرَض واحد فانقسمت المادة قسمين ؛ قسم منها حمّله ربنا سبحانه وتعالى النور والهداية والمعرفة فأصبحت مادة نورية، وقسم منها حمّله النار وقابليتها دون فعلها فأصبحت مادة نارية. ثم خلط الله تبارك وتعالى

---

(١) بحار الأنوار / ج ١٠ / ص ٣١٦.

شيئاً من المادة الاولى بشيء من المادة الثانية فصار هذا الكون.

إذاً ؛ فالكون مخلوط من مادتين : مظلمة خبيثة ونورية لطيفة، لذلك ترى الخير والشر في هذا الكون ؛ حيثما هما مخلوقان. والقرآن الكريم يقول : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ (الانعام/١) ويقول أيضاً : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ ( البقرة / ٢٥٧). فالظلمات مادة مجعولة ومخلوقة وليست عدمية كما قد يتبادر الى الأذهان، والنور كذلك مادة مخلوقة. وفي يوم القيامة تنفصل المادتان عن بعضهما ليمتاز الذين آمنوا عن الذين كفروا. فمادة الخير تنفصل الى الجنة، ومادة الشر ستنفصل أيضا الى النار. فالمخلوق النوري هو من كان يعمل الطيبات فيسدخله الله جنته، والمخلوق الناري حري أن يدخل النار لأنه لم يحاول التخلص من خبث الظلمات رغم النعم الإلهية والقابليات التي زوده بها.

فالإنسان حينما يأكل مال اليتيم فهو في واقع الأمر يأكل نارا، وحينما يظلم يدخل في نفق مظلم، وحينما يكذب تخرج من فمه رائحة منتنة يتأذى منها أهل السماوات، وحينما يغتاب يأكل لحم أخيه.. إلا أن هذا الانسان عاجز من وجهة النظر المادية عن إدراك ولمس هذه الحقيقة في الدنيا، لأنها عالم بسيط جدا بالقياس مع عالم الآخرة.

## الفصل الثالث عشر :

# نظرية وحدة الوجود.. بحث مقارن

هناك ادلة وحجج أقامها القائلون بوحدة الوجود، وتلك الأدلة إنما تترتب وفق مراحل ؛ ففي البدء حاولوا إثبات أصالة الوجود في مقابل من قال وتبنى أصالة الماهية، ثم حاولوا إثبات أصالة تحقق الوجود أو جعل الوجود، ثم تدرجوا الى قضية وحدة الوجود. وفي الواقع ؛ إن كل المراحل العقلية التي حاول القائلون بأصالة الوجود التدرج عبرها الى هذه القضية والفكرة، كلها تحتاج الى أدلة أكثر إقناعا من التي ذكروها.

ولكي نسلط المزيد من الضوء على فكرة (أصالة الوجود) عند أولئك القوم، ونوضح الأسس العقلية التي اعتمدوها لإثباتها، ترانا بحاجة الى استعراض بعض الحقائق التمهيدية التي تنفعنا ؛ ليس في إطار إثبات أو نقض فكرة أصالة الوجود فحسب، وإنما أيضا في كافة المسائل والأفكار الفلسفية الأخرى. والسبب في ذلك أن هذه الحقائق التمهيدية هي حقائق منهجية، أي ترتبط بمنهجية تفكير الإنسان.

ترى بماذا أثبتنا وجود أنفسنا ؟ وبماذا عرفنا وجود الكون من حولنا ؟ وبماذا إستطعنا أن نثبت للجاحدين وجود ربنا سبحانه وتعالى ؟ وبماذا نتفاهم نحن فيما بيننا ؟..

إن الإجابة على كل هذه التساؤلات هي إجابة واحدة ومعروفة منذ أن خلق الله تبارك وتعالى الانسان الأول : بالعقل.

## بالعقل يتم الاثبات :

العقل هو الذي يصرّح بأن الانسان كائن موجود، وهو الذي قال للإنسان بأن الكون من حوله موجود، وهو الذي قال له بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقه. فالعقل مصباح الهداية والنور الذي يأخذ بيد الانسان نحو النجاة في كل هذه المراحل.

وأتساءل: إذا كان العقل هو النور الذي يمشي مع الانسان في كل حقل وميدان؛ هل من الصحيح إيداعه جانباً والاكتفاء بالاستدلال بمجموعة أفكار وحجج غريبة، رغم المعرفة المسبقة من قبل المخلوق بأن عقله هو الحجة الاصلية ؟

ولنضرب مثلاً في ذلك : إن المرء حينما يفتح عينيه يرى مجموعة من الأشياء أمامه من قبيل: الاجسام، والاحجام، والابعاد، والالوان، وغيرها، ولكنه حينما تنعدم عنده الرؤية بسبب اشكال في عينيه أو بسبب انعدام النور في المكان، ويُسأل عن مقدار المسافة بينه وبين نهاية الغرفة الواقف فيها، فأنه يقوم بحساب المسافة عبر الاستنتاج من مجموعة معلومات حصل عليها مسبقاً، من قبيل المسافة التي تفصل بينه وبين الواقفين أمامه وبينهم وبين نقطة النهاية حتى يحصل على النتيجة المطلوبة.

ولكن إذا كان بصره سليما وكانت الاضاءة في جو الغرفة متوفرة، فإنه لايحتاج الى حساب المسافة كما فعل في السابق. وهذا يعني فيما يعنـي أن العقـل بإمكانـه الأخذ بيد الانسان في الحالتين ؛ في الحالة الطبيعية وفي الحالة الاضطراريـة. ومـن غير الجميل بالانسان صاحب العقل السليم والامكانات الطبيعية أن يختـار الطريـق الأصعب عليه ، لإثبات أوضح الواضحات. إذ أن من رفعة مكانة المرء فـي حياتـه الاستغناء عن الوسائل ما دام هو في غنى عنها...

## لا.. لتجميد العقل :

إن العقل الـذي استفدنا منـه فـي هضـم واستيعاب السـابقيات العقليـة والعلميـة واستفدنا منـه استحالة اجتمـاع النقيضيـن، واسـتفدنا منـه فـي الاكتشـافات والاختراعات.. لا يزال هـذا العقـل موجوداً عندنا وبإمكانـه أن يكشـف لنـا عـن حقائق أبعد وفق طريقته في الاكتشاف والتحرك والفاعلية، فلمـاذا نتركـه باتجـاه التوسل بما هو دونه ؟!

لقد خلع الاشاعرة – الذين هم في الواقع عبـارة عـن ردة فعـل عـن المعتزلـة – أفكار المعتزلة بعـد أن خلعـوا أفكـارهم أيضـا، فقـال هـؤلاء إن النـص الديني هـو المعيار في تحديد الحسن والقبح في الأمور والاشياء ؛ وأنه لا وجود لشيء يدعى بالحسن والقبح العقليين.

ولكنني حينما أعود وأسأل الانسان المنصف والباحث عن الحقيقة : بم عرفـت ربك ؟ إنه سيجيب : بعقلي. وأسـأله مـرة أخـرى إذا كـان العقـل هـو المكتشـف لوجود الرب، فلماذا يعجز عن تشخيص وتحديد الحسـن مـن القبـح ؟ وإذا عجـز عن الجواب فإني أعرب له عن التنـاقض الـذي وقـع فيـه واقـول لـه : إن المذهـب

الحق يؤكد بأن العقل حجة في الاكتشاف بذاته. ذلك لأن من يعتقد دون ذلك يلزمه الامتناع عن قبول حجية العقل في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى، لأنه غير ثابت الحجية على وجه القطع. و تسلسل البحث والاستقراء المنطقي يرفض أن تكون الحجة حجة مشوشة، بإعتبار أن سلسلة أفكارنا برمتها ستصبح غير ذات اساس متين أو مطمئن..

إننا نلجأ في إطار إثبات الخالق وإثبات مختلف الوجودات والقضايا الاخرى الى أحد اسلوبين :

الأول: يكمن في توفير الحجج المنطقية التي تستمد شرعيتها وقوتها بالتسلسل من العقل.

والثاني : هو أقرب بكثير من الاسلوب الاول وهو اسلوب الاحتجاج بالعقل مباشرة، وهذا الاسلوب نسميه الفطرة. فالفطرة بوسعها أن تدلنا على أن السماوات والارض وبقية المخلوقات هي في ذاتها أشياء متحققة، وأن تدلنا على أن الاشياء كلها تنتهي الى وجود وماهية، وأن الأصل هو الوجود وأن الماهية شيء طارئ. ولقد قدمنا في بعض ما سبق من موضوعات أن على الانسان أن يعود الى وجدانه وان يستنطق ضميره، وبالتالي أن يعود الى عقله.

ثم إن العرف أو عرف العقلاء بما يمثل من أبعاد، يشكل ما تقبله العقول مجتمعةً. فإذا كان الناس يتضاربون ويتناقضون في إطار الهوى والميول النفسية والمذاقات والتحسس، فإنهم لاريب في اجتماعهم على المعقولات، نظراً الى أن عقل الانسان هو هو منذ أول إنسان وضع قدمه على سطح الأرض حتى آخر إنسان يخرج من الدنيا عند قيام الساعة.

فإذا كان الناس يختلفون في مذاق هذا الطعام أو ذاك، وإذا كان بعضهم يفضل هذا النوع من اللباس ويعارضهم آخرون، فإنهم يجتمعون على قبول المعقولات.

على أننا حينما نستشهد بالعرف، فانما نقصد منه الفهم والاستيعاب للمعقولات من حيث الواقع الخارجي على أقل تقدير. بمعنى أن الناس يفهمون من السماء وجود السماء، ولا يعنينا هنا ما يفسرون به أو يعبرون به عن هذا الوجود وكيفيته؛ أي أن الذي يهمنا من قضية العرف العاقل هو ما تفهمه عقول الناس بفطرتهم البريئة والخالية من التراكمات والسابقيات التربوية والثقافية. وهذا الواقع بحد ذاته حجة في الاستدلال أو التوضيح، وهذه الحجية مستمدة من قبول العقل لها وقناعته بها.

## العلة والمعلول :

وثمة فكرة مشهورة بين الفلاسفة نود مناقشتها في هذا الاطار، وهي الفكرة القائلة بلزوم أن تكون العلة من سنخ المعلول ؛ بمعنى أن من المستحيل أن تولد النار البرودة، ومن المستحيل أن يفرز الثلج الحرارة. فالانسان الطيب يخرج منه العمل الصالح، والذي خبث لا يخرج منه إلاّ النكد. وهذا قانون عقلي.

إلاّ اننا نقول : قد تكون نظرية العلة والمعلول صحيحة، ولكن لابد من التأكيد على لزوم ان يكون الطرفان من جنس واحد ؛ وضرورة أن العلة تحتوي المعلول بصورة أو بأخرى، إذ المعلول هو عبارة عن خروج الشيء بعد كمونه. وهذه التعبيرات كلها تنتهي الى قول واحد، وهو أن كل شيء يولد شيئاً مماثلاً له، وأن الشيء لا يفرز إلاّ مثيله.

لقد استدل القائلون بنظرية وحدة الوجود على صحة مذهبهم بقانون العلة والمعلول مؤكدين بأن الخالق هو الوجود وأن المخلوق هو التجلي لهذا الوجود، وبالتالي فهما شيئان في شيء واحد ؛ أي أن الخالق والمخلوق هما من قماشة واحدة، وأنه مادام هذا وذاك شيء واحد فيجب ان يفرز الأصل مثيلاً له. ومن هنا بالذات يتضح أصل التعبير الصوفي السالف : لو أن المسلم كان يعلم ماهو الصنم لاعتقد بأن عبادته عبادة لله تعالى قدسه..

**الدوروالتسلسل :**

ولنا في ذلك مناقشات وردود، منها :

١- إننا لو أثبتنا وحدة الخالق والمخلوق وأنهما في الحقيقة شيء واحد لاستغنينا عن الخالق. فنحن إنما آمنا بالخالق لأننا وجدنا في وجودنا وأنفسنا الضعف والعجز والاختلاف والتناقض والحاجة، نظراً الى أن هذا المخلوق المحتاج والمحدود والمحدث بحاجة الى خالق بخلافه يختلف معه. ولو كان الخالق مثل المخلوق فيجب على هذا الاخير البحث عن خالق أعلى من الأول، وهكذا يبقى البحث في تسلسل مستمر الى ما لانهاية.

ويشير أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الاطار الى أنه " الدال على قدمه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده، وباشتباههم على أن لا شبه له... مستشهدٌ بحدوث الاشياء على ازليته، وبما وسمها به من العجز على قدرته.. وبما اضطرها اليه من الفناء على دوامه.." (١) وبالفعل هكذا كان، فلماذا نتجاوز قابلية الفطرة فينا، حيث نجد الإجابات واضحة وناصعة ونركب الامواج

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة ١٨٥.

المتلاطمة لاثبات ذلك؟!

## علاقة المخلوق بالخالق :

٢- إن قانون العلة والمعلول إنما تصح مصداقيته إذا كان هناك تجانس بين الجانبين، ولكن من قال بأن الخلق معلول الخالق ؟ والحال يشير الى أن الخلق مخلوق الخالق، والعلاقة إنما هي علاقة مخلوق بخالقه وليس علاقة معلول بعِلّته. ونحن كمخلوقين نعجز تمام العجز عن إدراك وتصور نوع هذه العلاقة، لأننا لا نستطيع أن نحيط علما بالرب جل جلاله، حيث أننا لم نعط القدرة على التصور والاحاطة. فالله أكبر من أن يوصف، وهو لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار، وقد سمت العقول إلاّ اليه، والله نفسه يقول في القرآن المجيد : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الكهف/٥١).

إننا كمخلوقين لم نكن واعين وشاهدين على كيفية خلق أنفسنا، ولا يمكننا القول بأن الخلق قد تمّ وفق قانون العلة والمعلول.

نعم ؛ قد يمكن من حيث الوجهة اللغوية القول بأن الله سبحانه وتعالى هو علة الخلائق أو أنه علة العلل ؛ غير أن هذا ليس إلا مجرد تعبير فضفاض، وأن مجرد التعبير لا يسعه أن يكون دليلا عقلياً. أو لنقل أن الدليل العقلي لا يستقر على مجرد تعبير مشوش.

وما نعهده من الأمثلة من الحرارة والنار والبرودة والثلج وسنخية العلة، فهي كلها تأتي في حدود المخلوقين، وليس في حدود تعريف العلاقة بين الخالق والمخلوق.

وبفطرتنا النزيهة نعرف أن الخالق غير المخلوق، وأنه لا يصح بوجه من الوجوه

القياس بين الرب والمربوب، بين القادر والعاجز، بين الغني والفقير.

## منطق الروايات :

وهناك روايات عديدة وردتنا عن النبي وعن أئمة اهل البيت عليهم السلام في هذا الاطار، فضلاً عن الكم الهائل من الآيات المباركة الخاصة بتعريف الله صفاته وبالفصل بين ذاته وبين مخلوقاته.

١/ فقد سُئل الامام أمير المؤمنين عليه السلام عن إمكانية القول بأن الله شيء ؟ فأجاب الامام عليه السلام : " نعم ؛ تخرجه من الحدين : حد التعطيل وحد التشبيه ". (١) وبهذا التعبير الموجز يقسّم الامام عليه السلام الناس من حيث الايمان الى ثلاثة أقسام ؛ فمن أثبته بتشبيه فإنه مشرك، ومن نفاه فإنه كافر، ومن أثبته بلا شبه وبلا تشبيه فهو الموحّد.

فانت حينما تقول : الله عالم، تكون قد أخرجته من حد الجهل ؛ ولكنك في الوقت ذاته تقف حائرا عاجزا حينما تريد أن تصف علمه حق الوصف. وهكذا الواقع بالنسبة الى باقي الصفات، فهو قادر غير عاجز، ولكن لا احد يعلم اسرار القدرة الالهية. وهذا أمر طبيعي ومنطقي من حيث وجود الخط الفاصل بين الخالق والمخلوق. ولو تساوى الطرفان في علم ما لديهما فضلاً عن قدرتهما، إذن، لانتفت الحقيقة القائلة بوجود خالق ومخلوق، ويصح القول – والعياذ بالله – بأن ثمّ شركاء لله في ربوبيته.

٢/ ويقول الامام علي عليه السلام: " ما رأيت شيئا إلاّ ورأيت الله قبله وبعده ومعه ". فالاشياء الموجودة تهدينا الى رب العزة، فعدمها الاول يعني وجود

---

(١) بحار الأنوار / ج ٣ / ص ٢٦٠ / رواية ٢٦٠.

ماسبقها، ووجودها الحاضر يعني وجود من يمدها بالحياة، وعدمها الثاني يعني بقاء من أماتها.

٣/ ويقول الامام علي عليه السلام في الخطبة الاولى من نهج البلاغة "...موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة...". وهذا يعني الفصل بين كل شيء وبين الخالق لكل شيء، وانعدام المقارنة والعجز عنها إنما يحدد طبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوق.

٤/ وقال أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: "... فبعظمته ونوره أبصره قلوب المؤمنين، وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون، وبعظمته ونوره ابتغى من في السموات والأرض من جميع خلائقه اليه الوسيلة بالأعمال المختلفة والأديان المشتبهة... وهو حياة كل شيء ونور كل شيء... هو هاهنا وهاهنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومعنا وهو قوله : " ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم"... وكيف يحمل حملة العرش الله وبحياته حيّت قلوبهم وبنوره اهتدوا الى معرفته ؟ (١)

إن منطق الروايات الشريفة عن النبي وأهل بيته ( عليهم السلام ) مختلف اختلافاً كلياً عما نص عليه فلاسفة البشر من ان كل الموجودات وَهْم، أو ان الموجودات ما هي إلا ظلال لنور الله سبحانه وتعالى. او أن قضية وحدة الوجود عسيرة النيل وبالغة التحقيق وبعيدة الغور، وانه لاينهب الى هذا المذهب إلاّ العرفاء الالهيون والأولياء الحقيقيون. أقول : إن مثل هذه الشطحات وقع فيها من وقع بسبب تركهم العنان للخيال، وبسبب اعتقادهم الواضح في عدم حاجتهم لما

---

(١) بحار الأنوار / ج ٥٥ / ص١٠ / رواية ٨.

تشير اليه الآيات القرآنية والروايات الواردة بخصوص وصف الخالق وتحديد المخلوق.

وخلاصة القول؛ إن مسألة وحدة الوجود بحاجة الى مجموعة إثباتات، والانسان يستطيع عبر إدراكه الفطري للمسافة القائمة بينه وبين ربه أن يعرف الثنائية البينونية الذاتية بين السيد وعبده، وهذا أقوى دليل وأعظم برهان على عدم صحة القول بوحدة الوجود، مضافاً الى أن أدلة وحدة الوجود والتي أبرزها سنخية العلة والمعلول غير مجدية وغير كافية.

# كيف نعرف الله تعالى ؟

من اعظم وأفخر وأشرف النعم الإلهية على الناس أن عرّفهم نفسه، حيث أنه سمح لهم بأن يعرفوه من خلال آياته. فمن يصل الى مستوى معرفة الربّ لابد له أن يشعر ويتحسس أية نعمة عظيمة أسبغها الله تعالى عليه. وآنذاك يشعر أيضا بأية خسارة فادحة كان يعيشها، لو لم يرتفع الى مستوى معرفة هذا الربّ العظيم، وأنه هل كانت الدنيا تستحق العيش فيها دون هذه المعرفة ؟ كما لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعبر فيها الانسان عن خسارته الكبرى حينما يقضي عمره كلّه في ذهول وغفلة عن رب الوجود ؛ بعيدا عن جماله وجلاله وسنائه ؛ وبعيدا عن لذّة مناجاته وقوة التوكل عليه وسعة الثقة به.

ويبقى الانسان قاصراً للغاية عن بيان مقدار ما يمكن أن ينتفع به من حبّ الله تبارك وتعالى. فالله حينما يبين للناس وللمؤمنين أهمية الصلاة وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، لا يلبث أن يذكرنا بأن ذكر الله أكبر : ﴿ اتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ

أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت /٤٥).

وحينما يصور لنا نِعم الجنة ويرغبنا فيها سرعان ما يبين لنا بأن رضوان الله اعظم من الجنة برمّتها، رغم وصفه لهذه الجنة بأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة / ٧٢). فهذه النعم التي يعجز البشر عن تصورها في حياتهم الدنيا، غير قابلة للمقايسة والتشبيه برضوان وحب ومعرفة الله جلّ جلاله.

بلى ؛ إن البهائم تتمتع بأكل الحشائش، ولو وصفت لها موائد الانسان اللذيذة فهي لا تفهم قيمة هذه الموائد حتى وإن جيئ بها بألف دليل ودليل. هذا فضلاً عن عجزها المسبق عن فهم المتعة في الجلوس الى شخصية عظيمة تدعوك الى تناول الطعام معها. والسبب في عجز البهائم هذا هو التركيبة الغريزية الحاكمة على فهمها وتصرفها حيال هذا الموضوع.

القضية ذاتها تشمل الانسان الكافر والغافل والمحجوب عن لذّة مناجاة الله، حتى وإن جوبه بآلاف الأدلّة عن أهمية وعظمة التعرف الى الله سبحانه وتعالى ؛ فعقليته عقلية محدودة وهابطة باتجّاه العناد والإلحاد.

أما الانسان المؤمن فهو الوحيد القادر على فهم وتصور حلاوة مناجاة ربه، حيث يقوم متهجّداً ومتبتّلاً ؛ مبحراً بقلبه نحو قدرة الكون المطلقة ؛ هذا الانسان يستطيع تصور أيّة خسارة عظمى من الممكن أن تحلّ به لو هجر ذكر الله أو جهل فضل الله عليه.

## أشرف العبادات :

إن هذه المعرفة هي رأس كل خير، واشرف كل عبادة... وحرام على الانسان أن يعيش عشرات السنين وهو أقرب شيء الى الله، وأبعد شيء عن الله ؛ أقرب اليه لو أراد، وأبعد شيء لو لم يرد. والدعاء الكريم الوارد عن الامام زين العابدين عليه السلام يشير الى هذا المعنى مخاطباً رب العزة بالقول : " وإن الراحل اليك قريب المسافة، وإن في اللّهف الى جودك والرضا بقضائك عوضا من منع الباخلين، ومندوحة عمّا في ايدي المستأثرين، وأن الراحل اليك قريب المسافة، وانك لاتحتجب عن خلقك إلا ان تحجبهم الاعمال دونك.." ( من دعاء ابي حمزة الثمالي ). أي أن اللهف والتبتل الى الله تعالى، هو بسبب ما عند الله الذي هو أعظم بما لا يحصى ممّا في ايدي الناس، وان الرضا والتسليم لما يقدّره الخالق الحكيم أفضل من الدنيا وما فيها. فلو أن الله سبحانه وتعالى اعطى العبد جميع الدنيا وسلبه الرضا والتسليم لما نفعته الدنيا، بل لكانت وبالاً عليه.

## كل شيء.. من أجل الله :

فالمنطقي هو أن يتخذ هذا العبد اعماله الصالحة قربات الى ربه... فهو إذا زكّى أمواله عليه أن يعتبر التزكية تطهيرا لقلبه، وإذا صلّى أن يتخذ من الصلاة معراجاً وقرباناً الى ربّه، وإذا صام أن يجعل الصوم وسيلة الى رضوان الله تعالى، يعني أن الزكاة والصلاة والصيام وسائر الاعمال الصالحة والعبادات، وحتى الجهاد هي غير ذات نفع وفائدة ما لم تكن وسيلة الى الله. فالله العليّ العظيم يقول : ﴿ **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾ (المائدة/٣٥)، والأعمال الصالحة مالم تكن وسيلة اليه فهي لا تعدو أن تكون اكثر من قشرة وغلاف. والحال إنما يتقبل من صلاة المرء ما

توجّه فيه و " إنما يتقبل الله من المتقين ". والرسول صلى الله عليه وآله قال كذلك: "حبب اليَّ من الدنيا ثلاث ؛ النساء والطيب وقرّة عيني في الصلاة". (١) فهو كان يعرج بما للكلمة من معنى بصلاته الى الله.

والسؤال الأهم في حياة الانسان هو : كم إرتفع نحو ربّه الاعلى ؟ وهل ازداد قلبه معرفة بالله ؟ وإذا ازداد بالفعل فهل تمت المحافظة على هذا الازدياد ؟

والمحور الأهم في وجود الانسان هو تصميمه وإصراره على ان تكون أعماله بإتجاه معرفة خالقه، وقبل ذلك أن يكون إصراره هذا على رأس قائمة أولوياته.

وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن مدى صحة سند الحديث النّبوي الشريف القائل : " تفكّر ساعة خير من عبادة سنة "، فأجاب الامام عليه السلام بالقول : " نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : تفكر ساعة خير من قيام ليلة". قلت : كيف يتفكر ؟ قال : "يمر بالدور الخربة فيقول : اين بانوك أين ساكنوك مالك لاتتكلمين ؟ (٢) أي أن الاهم في النظر والفكر هو نظر وفكر الاعتبار والاتّعاظ... فخسارة كبرى تحلّ بالإنسان أن يحرم نفسه من معرفة الله، وأن يغمض عينيه ويعطل عقله وإحساسه تجاه آيات الربّ المبثوثة فيه وحوله في كل أفق.

وبطبيعة الحال ؛ فإن المرء حينما يزداد معرفة بالله تعالى سيزداد توكّلاً عليه ويقيناً به، وستخلق فيه القدرة على الصبر في مواجهة الشدائد، وسيستقيم حين البأساء والضراء، وستكون الدنيا كلها مستجيبة ومطيعة له. أما إذا كان قلب

---

(١) بحار الأنوار / ج ٧٣ / ص ١٤١ / رواية ٨.

(٢) المصدر / ج ٦٨ / ص ٣٢٤ / رواية ١٦.

الانسان أجوف فسيواجه في رحلة حياته الشاقّة عقبات كأداء، وسيواجه من المصاعب ما تكبّه على وجهه. ومن أجل تحاشي الاضطرار الى مثل هذا الواقع، وضع الله الطرق الكفيلة والدواء الناجع ؛ وما على الانسان المتطلع الى النجاح والسلامة سوى الاتعاظ بما يقوله الرب بعد أن يطلب – الانسان – الحرية الكاملة والمعرفة الحقّة. وقد جاء في المأثور من الدعاء بهذا الخصوص : " اللّهم عرّفني نفسك ". فالمؤمن في بحث دائم عن الاسلوب المقرّب من مركز الجذب، ونور الانوار، ومحور الهدى، وهو الله سبحانه وتعالى ومعرفته المقدسة.

ولكن كيف يمكن الاستمرار وضمان استمرار هذه المعرفة ؟

إن ضمان ذلك هو التقوى، فالتقوى حصن المعرفة ودرع اليقين، ومن تخلى عن التقوى اختفت عنه المعرفة.

## معرفة الله ؛ ممارسة الايمان :

لقد عجنت قضية معرفة الله تعالى في القرآن الكريم بإستعراض تام للممارسات العملية الايمانية التي ينبغي على الانسان أن يقوم بها ويؤديها. نظرا الى أن العقيدة الاسلامية لا تولي المعرفة النظرية أية أهمية، بل إن الاسلام الحنيف ينتقد من يكتفي بمجرد العلم والادعاء، غير المقرون بالعمل المناسب والملزمن، ألذع الانتقاد وأقساه، حتى جاء في الآية المباركة : ﴿ **يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ** ﴾ (الصف/٢-٣). وقد حرّض ربّ العزّة في القرآن الكريم تحريضاً مباشراً على ان يقرن المؤمنون اقوالهم الايمانية بأعمالهم الصالحة، لكي تكون للنظرية الدينية مصداقيتها الواقعية، ولكي تكون للفرد المؤمن شخصيته المثالية غير المصابة بمرض النفاق والازدواجية.

وبالتالي فإن الدين يهدف الى تكوين وبناء مجتمع اسلامي متراص الشخصية، وقد خاطب الله جميع المؤمنين بقوله : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة/١٠٥)

إن معرفة الله لا تعني مجرد معلومات نظرية ؛ فهذه لوحدها لن تصل بالانسان المؤمن الى النتيجة التي أرادها الله له، بل هي مجموعة ممارسات عملية جهادية رفيعة المستوى. وهي ما نستطيع التعبير عنه بالايمان. والايمان عمل كله ؛ فهو الجهاد والتضحية ورفض أنداد الله، بدءاً بالشيطان ومروراً بالنفس الامارة بالسوء وانتهاءً بالضغوط الاجتماعية المحيطة بما فيها من طواغيت الأرض والتمرد على الظلمة.

من هنا جاء التوجيه الديني القائل على لسان أهل البيت عليهم السلام أنه ينبغي للانسان المؤمن بالله ورسوله أن يتهم نفسه إذا ما رأى الحياة قد استجابت له ورآها قد سهلت عليه، لأن انعدام البلاء يعني أن الله عز وجل لا ينظر بعين الرضا اليك. وقد قال أحدهم للامام أمير المؤمنين عليه السلام : إني احب ان اكون من أصحابكم، فأجابه عليه السلام : " إذن استعد لنزول البلاء عليك من كلّ مكان ".

وهذا هو واقع جميع الانبياء والاولياء والصديقين، إذ ينزل البلاء عليهم حسب درجاتهم، حتى كان سيد المرسلين نبينا الاعظم صلى الله عليه وآله يقول: " ما اوذي نبي مثل ما أوذيت"، (١) تبعاً لمنزلته التي فاقت منازل جميع الانبياء. وكما كان سيد الشهداء الامام الحسين عليه السلام حين اصيب جسده بمئات الجروح وهو على أفظع حالة من الغربة والاضطهاد يخاطب ربّه الجليل : " رضا برضاك

(١) بحار الأنوار / ج ٣٩ / ص ٥٦.

لامعبود سواك "، رغم أنه كان مجرد بشر، ولكن بشراً من طراز الذين ملأ الايمان ومعرفة الله الواقعية قلوبهم ووجدانهم.

## نفي صفات الخلق عن الخالق :

إن المستوحى من الآيات القرآنية والمتبع في روايات الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام حين التعريف بالله سبحانه وتعالى هو نفي الصفات الخلقية والمخلوقية عن رب العالمين لتقريب الانسان منه تعالى.

ولنضرب مثالاً واقعياً على ذلك، فنقول : إنك حينما تريد وصف وتعريف طبيعة النور أو طبيعة اللون لمن هو أعمى خلقة، فهو سيعمد مباشرة الى محاسبته العقلية وذاكرته لتصور النور أو اللون، فيقيس عليهما الحجم او الرائحة او الطعم او الحرارة والبرودة، ذلك لأن هذه الاشياء تدرك بالوسائل العقلية وتدخر في الذاكرة. فتراه يعجز كليًا عن إدراك النور واللّون، لأن وسيلة إدراكهما هي العين الباصرة، وهما غير قابلين لمقايستهما بأشياء اخرى. فاللون لاحجم ولا رائحة ولا طعم ولا حس لمسيٍّ فيه، وكذلك هو النور .

إن هذا الأعمى لا يستطيع تصور الضوء أو اللون إلا إذا أفرغ قوته الذهنية عن اسلوب التشبيه بالحواس التي يملكها.

وكان أمراً متوقعاً بالانسان ذي الحواس الخلقية أن يقيس الله سبحانه وتعالى بالمخلوقين، لأنه لايعيش مع غيرهم، ولا يستطيع التعرف على الله الذي هو غير المخلوق وذاته غير ذات المخلوق إلابعد الارتفاع والسمو عن مقاييس المخلوقين. وذلك لا يمكن إلاّ بالايمان بوجود خالق للخلق هو أكبر من أن توصف ذاته، ولو وصفت ذاته لأصبح في متناول اليد ؛ أي لما كانت قدرته

وإرادته أزليتان في الوجود. إن الانسان الفاقد للايمان أول ما يريد أن يتوهم ربه يتوهم له حجماً، لأن المخلوقين مثله لهم حجم ؛ ويتوهم له لوناً، لأن المخلوقين ذوي ألوان. وكذلك الحال بالنسبة لباقي توهماته.

والروايات الشريفة تتضمن حال وصفهالله سبحانه الأمر بأن يبعد الانسان عن نفسه ضغوط الحواس والتشبيه والمقاييس الخلقية التي عادة ما يستخدمها في التعرف الى المخلوقين، ومن دون هذه المعادلة الفذة يستحيل الوصول الى معرفة الرب جل جلاله.

**الروايات.. ومعرفة الله :**

١/ يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له في الكوفة :

" الحمد لله الذي لامن شيء كان ولا من شيء كوّن ما قد كان. المستشهد بحدوث الأشياء على أزليته، وبما وسمها من العجز على قدرته، وبما اضطرها إليه من الفناء على دوامه. لم يخلُ منه مكان فيدرك بأينيّة، ولاله شبح مثال فيوصف بكيفيّة، ولم يغب عن شيء فيعلم بحيثية ؛ مباين لجميع ما أحدث في الصفات، وممتنع عن الادراك بما ابتدع من تصريف النّوات، وخارج بالكبرياء والعظمة من جميع تصرف الحالات، محرم على بوارع ناقبات الفطن تحديده، وعلى عوامق ثاقبات الفكر تكييفه، وعلى غوائص سابحات النظر تصويره، لا تحويه الاماكن لعظمته، ولا تذرعه المقادير لجلاله، ولا تقطعه المقاييس لكبريائه، ممتنع عن الأوهام أن تكتنهه، وعن الأفهام أن تستغرقه، وعن الأذهان أن تمتثله، قد يئست من استنباط الإحاطة به طوامح العقول، ونضبت عن الاشارة اليه بالاكتناه بحار العلوم، ورجعت بالصغر عن السمو الى وصف قدرته لطائف الخصوم، واحد لا

من عدد، ودائم لا بأمد، وقائم لا بعمد، وليس بجنس فتعادله الأجناس، ولا بشبح فتضارعه الاشباح، ولا كالأشياء فتقع عليه الصفات..." (١)

وكلّ هذه الصفات تراها تعود في نهاية المطاف الى نفس النقطة الجوهرية الداعية الى إبعاد ذهن الانسان عن التشبيه، والى الاعتراف بالعجز المطلق عن الاحاطة بربنا جلّ جلاله. فهو منزهٌ عن الأين والكيف، فلا أول له ولا آخر... وقيود المخلوقين دليل على مطلقيته.

٢/ وجاء في خطبة اخرى لأمير المؤمنين عليه السلام :

"... والحمد لله الكائن قبل أن يكون كرسي أو عرش أو سماء او أرض او جانٌ او إنس، لايدرك بوهم، ولا يقّدر بفهم، ولا يشغله سائل، ولا ينقصه نائل، ولا ينظر بعين، ولا يحد بأين، ولا يوصف بالأزواج، ولايخلق بعلاج، ولايدرك بالحواس، ولا يُقاس بالناس، الذي كلّم موسى تكليماً، وأراه من آياته عظيمًا ؛ بلا جوارح ولا أدوات ؛ ولا نطق ولا لهوات، بل إن كنت صادقاً أيها المتكلّف لوصف ربّك فصف جبرئيل وميكائيل وجنود الملائكه المقربين في حجرات القدس مرجحنين، متولّهة عقولهم أن يحدّوا أحسن الخالقين، وأنما يدرك بالصفات ذووا الهيئات والأدوات، ومن ينقضي إذا بلغ أمد حدِّه بالفناء، فلا إله إلاّ هو، أضاء بنوره كل ظلام، وأظلم بظلمته كل نور". (٢)

٣/ وروي عن الامام أبي الحسن الثالث – الهادي– عليه السلام أنه قال :

" إن الله لايوصف إلاّ بما وصف به نفسه، وأنّى يوصف الذي تعجز الحواس

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤ / ص ٢٢١ / رواية ٢.

(٢) المصدر / ج ٤ / ص ٣١٣ / رواية ٤٠.

أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحدّه، والأبصار عن الإحاطة به. نأى في قربه، وقرب في نأيه. كيّف الكيف بغير أن يقال : كيف ؟ وأيّن الأين بلا أن يقال : أين. هو منقطع الكيفية والأينيّة ؛ الواحد الأحد، جل جلاله، وتقدست أسماؤه". (١)

٤/ وقال الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام :

" – الله – واحد صمد أزليّ صمديّ. لاظلّ له يمسكه، وهو يمسك الأشياء بأظلّتها، عارف بالمجهول، معروف عند كل جاهل. فردانيّ لا خلقه فيه ولا هو في خلقه. غير محسوس ولا محسوس. لاتدركه الأبصار ، علا فقرب، ودنا فبعد، وعُصي فغفر، وأُطيع فشكر، لاتحويه أرضه، ولاتقلّه سماواته، وأنه حامل الأشياء بقدرته، ديمومي أزلي، لاينسى و لايلهو، ولايغلط و لايلعب ، ولا لإرادته فصل، وفصله جزاء، وأمره واقع، لم يلد فيورث، ولم يولد فيشارك، ولم يكن له كفواً أحد". (٢)

بهذه الصفات والأسماء نستطيع الارتفاع الى مستوى معرفة الله تعالى. وإذا عرفنا الله، عرفنا آياته في الكون، وعرفنا رسله ودينه الذي يؤدي اليه ويوضح أوامره ومناهيه.

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤ / ص ٣٠٣ / رواية ٣٠.

(٢) المصدر / ج ٤ / ص ٢٨٦ / رواية ١٨.

# الفهرس


مقدمة ..... ٣

**الباب الأول : نظرة تاريخية**

تمهيد ..... ٧

الفصل الأول : الحكمة لماذا ؟ ١٤

الفصل الثاني : علم الكلام ..... ٢٥

الفصل الثالث : تاريخ الفلسفة ..... ٣٥

الفصل الرابع : فلسفة هيلينية بلغة عربية ٤٥

الفصل الخامس : سمات الفلسفة البشرية ٥٦

**الباب الثاني : مصادر الحكمة**

الفصل الأول : العلم شعاع العقل ٦٩

الفصل الثاني : العلم يجلي الحقائق ٨٢

الفصل الثالث : حدود العلم ..... ٩٥
الفصل الرابع : عقبات في طريق العلم ١٠٣
الفصل الخامس : العقل والقرآن صنوان ..... ١١٦
الفصل السادس : مصادر الفلسفة الاسلامية ١٢٨

## الباب الثالث : مبادئ الحكمة

الفصل الأول : في رحاب معرفة الله ١٣٩
الفصل الثاني : البداء تجلي ارادة الله ١٤٩
الفصل الثالث : سمات منكري البداء ١٦٣
الفصل الرابع : سمات المؤمنين بالبداء ١٧٧
الفصل الخامس : واقع الزمن ..... ١٨٨
الفصل السادس : بين القدر والقضاء ..... ٢٠٤
الفصل السابع : القدر والقضاء بحث مقارن ٢١٢
الفصل الثامن : بين الجبر والاختيار ٢٢١
الفصل التاسع : شبهات وردود ..... ٢٣١
الفصل العاشر : لا جبر ولا تفويض ٢٤١
الفصل الحادي عشر : ماهو الوجود ٢٥٢
الفصل الثاني عشر : حقيقة الوجود ..... ٢٦١
الفصل الثالث عشر : نظرية وحدة الوجود بحث مقارن ٢٦٧
الفصل الرابع عشر : كيف نعرف الله تعالى ٢٧٧